الفصل الأول
عرض المرحلة الثانية من غزوة الأحزاب
«المعركة»
المبحث الأول
المسلمون والمشركون حول الخندق

مرابطة المسلمين خلف الخندق:

يقول أ/ باشميل: «بعد أن أتم المسلمون حفر خندقهم حول المدينة بقيت قواتهم خلفه مرابطة متيقظة في انتظار جيوش الأحزاب، بينما انتشرت دورياتهم المسلحة تطوف بمشارف المدينة مظهرة التهليل والتكبير لحراسة المدينة من أية مباغتة، وخاصة من ناحية يهود بني قريظة الذين (بالرغم من الحلف المعقود بينهم وبين المسلمين) كان المسلمون يتوقعون منهم الشر».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى جَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ، فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَضَرَبَ هُنَالِكَ عَسْكَرَهُ، وَالْخَنْدَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٠].

وروى البيهقي بسنده عن ابن إسحاق قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ الْمُشْرِكُونَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى ضَرَبَ عَسْكَرَهُ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَسَلعٍ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَالْمُشْرِكُونَ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ مِنْ أَحَابِيشِهَا، وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، وَأَهْلِ تِهَامَةَ، وَغَطَفَانَ، وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، حَتَّى نَزَلُوا بَابَ نُعْمَانَ إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ظَهْرَهُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى سَلْعٍ، وَالْخَنْدَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ، وَأَمَرَ بِالذَّرَارِيِّ وَالنِّسَاءِ فَجُعِلُوا فِي الْآطَامِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٢٨].

وقَالَ الْوَاقِدِيُّ: قَالُوا: وَكَانَ الْخَنْدَقُ مَا بَيْنَ جَبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ بِخُرْبَى إِلَى رَاتِجٍ، فَكَانَ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ ذُبَابٍ إِلَى رَاتِجٍ، وَكَانَ لِلْأَنْصَارِ مَا بَيْنَ ذُبَابٍ إِلَى خُرْبَى، فَهَذَا الَّذِي حَفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ، وَشَبَّكُوا الْمَدِينَةَ بِالْبُنْيَانِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَهِيَ كَالْحِصْنِ.

وَخَنْدَقَتْ بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ عَلَيْهَا فِيمَا يَلِي رَاتِجٍ إِلَى خَلْفِهَا، حَتَّى جَاءَ الْخَنْدَقُ مِنْ وَرَاءِ الْمَسْجِدِ، وَخَنْدَقَتْ بَنُو دِينَارٍ مِنْ عِنْدِ خُرْبَى إِلَى مَوْضِعِ دَارِ ابْنِ أَبِي الْجَنُوبِ الْيَوْمَ.

وقَالَ الْوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ، وَكَانَ حَفَرَهُ سِتَّةَ أَيَّامٍ وَحَصَّنَهُ وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دُبُرَ سَلْعٍ، فَجَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ وَالْخَنْدَقَ أَمَامَهُ وَكَانَ عَسْكَرُهُ هُنَالِكَ.

وَضَرَبَ قُبَّةً مِنْ أَدَمٍ وَكَانَتْ الْقُبَّةُ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْأَعْلَى الَّذِي بِأَصْلِ الْجَبَلِ - جَبَلُ الْأَحْزَابِ - وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْقِبُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَتَكُونُ عَائِشَةُ أَيَّامًا، ثُمَّ تَكُونُ أُمُّ سَلَمَةَ، ثُمَّ تَكُونُ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ، فَكَانَ

هَؤُلاءِ الثَّلاثُ اللَّاتِي يُعْقِبُ بَيْنَهُنَّ فِي الخَنْدَقِ وَسَائِرُ نِسَائِهِ فِي أُطُمِ بَنِي حَارِثَةَ، وَيُقَالُ: كُنَّ فِي المَسِيرِ (أطم بني عبد الأشهل، كان لبني حارثة) أُطُمٌ فِي بَنِي زُرَيْقٍ وَكَانَ حَصِينًا. وَيُقَالُ: كَانَ بَعْضُهُنَّ فِي فَارِعٍ (أطم كان في دار جعفر بن يحيى بباب الرحمة)، وَكُلُّ هَذَا قَدْ سَمِعْنَاهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٠-٤٥١، ٤٥٤].

النبي ﷺ يستعرض جيشه ويوزع الألوية:

وكان النبي ﷺ بعد حفر الخندق قد استعرض جيشه وقام بتنظيمه (كما هي عادته) فقسَّم الجيش إلى فرقتين:

١ ـ المهاجرين، وأعطى لواءهم لمولاه زيد بن حارثة ﷺ.

٢ ـ الأنصار، وأعطى لواءهم لسعد بن عبادة ﷺ.

وكانت أغلبية الجيش تتألف (كما هي العادة) من الأنصار.

وعند استعراض الجيش، عُرض عليه فتيان المسلمين الذين حاولوا الاشتراك في معركة الدفاع عن المدينة، وبعد استعراضهم أَمَرَ من لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره بأن يرجع إلى أهله ولم يسمح له بالانخراط في سلك الجيش، وأجاز من الفتيان من بلغ الخامسة عشرة، ومن هؤلاء الذين سمح لهم بالاشتراك في المعركة: عبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب ﷺ.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ زَائِدَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ الغِلْمَانَ وَهُوَ يَحْفِرُ الخَنْدَقَ، فَأَجَازَ مَنْ أَجَازَ وَرَدَّ مَنْ رَدَّ، وَكَانَ الغِلْمَانُ يَعْمَلُونَ مَعَهُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا وَلَمْ يُجِزْهُمْ، وَلَكِنَّهُ لَـمَّا لُحِمَ الأَمْرُ أَمَرَ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ إِلَى الآطَامِ مَعَ الذَّرَارِيِّ...

فَكَانَ مِمَّنْ أَجَازَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ: ابْنُ عُمَرَ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ، وَالبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٣].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَرَضَهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ يُجِزْهُ، وَعَرَضَهُ يَوْمَ الخَنْدَقِ وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَهُ. [البخاري في الشهادات (٢٦٦٤)، وفي المغازي (٤٠٩٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٦٨)، وأبو داود في الخراج والفيء (٢٩٥٧)، وفي الحدود (٤٤٠٦)، والترمذي في الأحكام (١٣٦١)، وفي الجهاد (١٤١٢)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣١)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤٣)، ومسند أحمد ٨/ ٢٨٧، ومسند أبي عوانه ٤/ ٥٣-٥٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٩٥].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: أَوَّلُ يَوْمٍ شَهِدْتُهُ يَوْمُ الخَنْدَقِ. [البخاري في المغازي (٤١٠٧)].

أمير المدينة بالنيابة:

وكما هي عادته ﷺ عند العزم على خوض المعارك أصدر مرسومًا عين بموجبة ابن أم مكتوم ﷺ ليكون أميرًا على المدينة حتى تنتهي معركة الأحزاب.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ﷺ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٠].

كما انتخبت لحراسة المدينة قوة خاصة، قسمها إلى فصيلتين، فصيلة أعطى قيادتها لزيد بن حارثة ﷺ، والأخرى أعطى قيادتها لمسلمة بن أسلم ﷺ [(١)]، وأمر هاتين الفصيلتين بأن تقوما بأعمال الدورية داخل المدينة وعلى مشارفها وخاصة ناحية الجنوب حيث تقع منازل بني قريظة الذين لم يكن المسلمون على ثقة منهم بالرغم من الحلف العسكري المعقود بين الفريقين.

وكان أخشى ما يخشاه المسلمون من ناحية يهود بني قريظة هو تعرضهم للنساء والذراري؛ ولذلك فإن الرسول ﷺ أمر بأن تُرفع النساء والصبيان في الحصون والآطام ليمتنعوا فيها.

شعار المسلمين في المعركة:

عَنِ الْبَرَاءِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكُمْ تَلْقَوْنَ عَدُوَّكُمْ غَدًا، فَلْيَكُنْ شِعَارُكُمْ: حم لَا يُنْصَرُونَ [دَعْوَةُ نَبِيِّكُمْ]**». [المستدرك ٢/ ١١٧ في الجهاد رقم ٢٥١٤، ٢٥١٥، والسنن الكبرى للنسائي في عمل اليوم والليلة ٩/ ٢٢٨ رقم ١٠٣٧٦، ١٠٣٧٧].

وعَنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنْ بُيِّتُّمْ فَلْيَكُنْ شِعَارُكُمْ: حم لاَ يُنْصَرُونَ**». [أبو داود في الجهاد (٢٥٩٧)، والترمذي في الجهاد (١٦٨٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا أُرَاهُمُ اللَّيْلَةَ إِلَّا سَيُبَيِّتُونَكُمْ، فَإِنْ فَعَلُوا فَشِعَارُكُمْ: حم لَا يُنْصَرُونَ**».

[مسند أحمد ٢٧/ ١٦٢ رقم ١٦٦١٥، ٣٨/ ٢٥٣ رقم ٢٣٢٠٤، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف. وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٢٧].

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ الْمُهَلَّبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ يَقُولُ وَذَكَرَ الْحَرُورِيَّةَ تَبْيِيتَهُمْ، فَقَالَ: قَالَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُفِرَ الْخَنْدَقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ يُبَيِّتَهُمْ أَبُو سُفْيَانَ: «**إِنْ بُيِّتُّمْ فَإِنَّ دَعْوَاكُمْ: حم لَا يُنْصَرُونَ**». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٦ في المغازي (٣٧٩٥٤)، والسنن الكبرى للنسائي في عمل اليوم والليلة ٩/ ٢٢٩ رقم ١٠٣٧٩، والمستدرك ٢/ ١١٧ في الجهاد رقم ٢٥١٣، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين إلا أن فيه إرسالًا، فإذا الرجل الذي لم يسمه المهلب بن أبي صفرة البراء بن عازب ﷺ].

---

(١) مسلمة بن أسلم بن حريش بمهملة بوزن (عظيم) الأنصاري، قال في الإصابة ذكره ابن عبد البر، وقال قتل شهيدًا يوم الجسر في فارس.

وعَنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ الْخَنْدَقِ: «إِنِّي لَا أَرَى الْقَوْمَ إِلَّا مُبَيِّتِيكُمْ، فَإِنَّ شِعَارَكُمْ حم لَا يُنْصَرُونَ».

[السنن الكبرى للنسائي في عمل اليوم والليلة ٩/ ٢٢٩ رقم ١٠٣٧٨].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ شِعَارُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ: حم، لَا يُنْصَرُونَ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٦].

أمٌّ تحرض ابنها على القتال والشهادة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي أَبُو لَيْلَى عَبْدُ اللهِ بْنُ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلٍ الأَنْصَارِيُّ، أَخُو بَنِي حَارِثَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها كَانَتْ فِي حِصْنِ بَنِي حَارِثَةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَكَانَ مِنْ أَحْرَزِ حُصُونِ الْمَدِينَةِ، قَالَ: وَكَانَتْ أُمُّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه مَعَهَا فِي الحِصْنِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْنَا الحِجَابُ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ مُقَلَّصَةٌ (قصيرة)، قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا ذِرَاعُهُ كُلُّهَا، وَفِي يَدِهِ حَرْبَتُهُ يَرْقُدُ (يسرع) بِهَا وَيَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يَشْهَدْ الْهَيْجَا حَمَلْ (١) لَا بَأْسَ بِالمَوْتِ إِذَا حَانَ الأَجَلْ

قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ (٢): الحَقْ [بِرَسُولِ اللهِ] أَيْ بُنَيَّ، فَقَدْ وَاللهِ أَخَّرْتَ [تَأَخَّرْتَ].

فَقُلْتُ: وَاللهِ يَا أُمَّ سَعْدٍ، لَوَدِدْتُ أَنَّ دِرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أَسْبَغَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ [عَلَى بَنَانِهِ].

قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ: يَقْضِي اللهُ مَا هُوَ قَاضٍ، فُرُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ بِسَهْمٍ، فَقَطَعَ مِنْهُ الأَكْحَلَ [فَقَضَى لَهُ أَنْ أُصِيبَ يَوْمَئِذٍ، وَلَقَدْ جَاءَ الخَبَرُ بِأَنَّهُ قَدْ رُمِيَ، تَقُولُ أُمُّهُ: وَا جَبَلاهُ!].

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٦ -٢٢٧، والمغازي للواقدي ٢/ ٤٦٩، وقال الشيخ الصوياني عن إسناد ابن إسحاق: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٢٨].

تحركات الأحزاب نحو المدينة وعدد قواتهم:

أما جيوش الأحزاب فبعد أن تكامل حشدها وتم تجهيزها تحرك بها قادتها نحو المدينة.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ تَبِعَهَا مِنْ أَحَابِيشِهَا أَرْبَعَةُ آلَافٍ، وَعَقَدُوا اللِّوَاءَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، وَقَادُوا مَعَهُمْ ثَلَاثَمِائَةِ فَرَسٍ، وَكَانَ مَعَهُمْ مِنَ الظَّهْرِ أَلْفُ بَعِيرٍ وَخَمْسُمِائَةِ بَعِيرٍ.

---

(١) يقول د/ المدخلي: «ورد في بعض الأصول (جمل) بالجيم المعجمة ويبدو أنه تصحيف، والحق أنه حمل بن سعد بن حارثة بن معقل بن عليم بن جناب الكلبي. ينظر: الروض الأنف للسهيلي ٣/ ٢٨٠، فقه السيرة للغزالي هامش صفحة ٣٢٧. مرويات غزوة الخندق ٣٥١.

(٢) اسمها كبشة بنت رافع، وهذا يدل على تضحيتها وفدائها حيث تحث ابنها على الإسراع إلى الجهاد في سبيل الله. وينظر ترجمتها في: الاستيعاب ٤/ ٤٦٠. مرويات غزوة الخندق ٣٥١.

وَأَقْبَلَتْ سُلَيْمٌ فَلاقَوْهُمْ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ (مكان على مرحلة من مكان)، وَبَنُو سُلَيْمٍ يَوْمَئِذٍ سَبْعُمِائَةٍ يَقُودُهُمْ سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ حَلِيفُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَهُوَ أَبُو أَبِي الأَعْوَرِ الَّذِي كَانَ مَعَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ بِصِفِّينَ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ يَقُودُهَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَخَرَجَتْ بَنُو أَسَدٍ وَقَائِدُهَا طَلَحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيُّ، وَخَرَجَتْ بَنُو فَزَارَةَ وَأَوْعَبَتْ (أي خرجوا بأجمعهم في الغزو)، وَهُمْ أَلْفٌ يَقُودُهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، وَخَرَجَتْ أَشْجَعُ وَقَائِدُهَا مَسْعُودُ بْنُ رُخَيْلَةَ وَهُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ ـ لَمْ تُوعِبْ أَشْجَعَ، وَخَرَجَ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ يَقُودُ قَوْمَهُ بَنِي مُرَّةَ وَهُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ.

لَـمَّا أَجْمَعَتْ غَطَفَانُ السَّيْرَ أَبَى الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ المَسِيرَ وَقَالَ لِقَوْمِهِ: **تَفَرَّقُوا فِي بِلادِكُمْ، وَلا تَسِيرُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَإِنِّي أَرَى أَنَّ مُحَمَّدًا أَمْرُهُ ظَاهِرٌ، لَوْ نَاوَأَهُ مَنْ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ لَكَانَتْ لَهُ العَاقِبَةُ.**

فَتَفَرَّقُوا فِي بِلادِهِمْ وَلَمْ يَحْضُرْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ. وَهَكَذَا رَوَى الزُّهْرِيُّ وَرَوَتْ بَنُو مُرَّةَ.

حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قَالا: شَهِدَتْ بَنُو مُرَّةَ الخَنْدَقَ، وَهُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ وَقَائِدُهُمْ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ المُرِّيُّ، وَهَجَاهُ حَسَّانُ وَأَنْشَدَ شِعْرًا، وَذَكَرُوا مُجَاوَرَةَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَئِذٍ، فَكَانَ هَذَا أَثْبَتَ عِنْدَنَا أَنَّهُ شَهِدَ الخَنْدَقَ فِي قَوْمِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ أَمْثَلَ ثُقْيَةً مِنْ عُيَيْنَةَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٣-٤٤٤].

أما اليهود فقد كان جيشهم الذي كان من المتفق بين الوفد اليهودي وقريش أن يشترك مع جيوش الأحزاب هو جيش بني قريظة الواقع في الطرف الجنوبي للمدينة، والذي تعاهد حيي بن أخطب لقادة الأحزاب أن يوجه ضربته المميتة من الخلف للمسلمين ساعة الصفر.

القائد العام لجيوش الأحزاب:

وقد اتفق قادة جيوش الأحزاب على إسناد القيادة العامة لكل هذه الجيوش إلى أبي سفيان (صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف).

وقد كان الميعاد المتفق عليه بين قادة الأحزاب للتجمع حول المدينة هو شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة.

ففي أول هذا الشهر تكامل حشد جيوش الأحزاب حول المدينة، فرابطت هناك عشرة آلاف مقاتل من قريش وأحلافها وغطفان وأحلافها يساندهم حوالي ألفين من اليهود داخل المدينة وخارجها، ظلوا لهم كالاحتياطي، بينما لا يزيد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل على أكثر تقدير».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٤٧-١٤٨].

خطة الأحزاب لاحتلال المدينة:

يقول أ/ باشميل: «كانت الخطة التي وضعها قادة الأحزاب لاحتلال المدينة (باستشارة قادة اليهود) تقضي بأن يكون زحف جيوش الأحزاب على المدينة من الناحية الشمالية على هيئة قوس يمتد من الشمال الغربي حتى الشمال الشرقي، فيطبق هذا القوس ـ زحف سريع ساحق عارم ـ على عسكر الإسلام المرابط عند مداخل المدينة الشمالية.

على أن يتحرك ـ ساعة الصفر (كما هو المتفق عليه بين زعماء اليهود وقادة الأحزاب) تسعمائة مقاتل من يهود بني قريظة (حلفاء المسلمين) والواقعين في الطرف الجنوبي من المدينة وخلف ظهر الجيش الإسلامي، فيسددوا إلى الجيش الإسلامي الصغير ـ ساعة الالتحام، من الخلف ضربة قاتلة، وبهذا (وكما تتصور قيادة الأحزاب) يتم استئصال شأفة المسلمين بسهولة.

الخندق يحبط خطة الأحزاب:

وكانت خطة الأحزاب خطة دقيقة رهيبة محكمة كان من الممكن (لو نجحت) أن يحقق الغزو أهدافه فتجني قيادة الأحزاب ثمار هذه الخطة بسهولة بسحق المسلمين واستئصال شأفتهم لو لم يهد الله المسلمين إلى حفر الخندق.

إذ لولا هذا الخندق لكان من السهل على أحد عشر ألف مقاتل تحيط بتسعمائة مقاتل من كل مكان أن تقضي على هذا التسعمائة إذا ما اشتبكت معها في معركة فاصلة، وخاصة إذا كانت هذه التسعمائة بينها من يتربص بها الدوائر ويشيع روح الهزيمة بين صفوفها من المنافقين كما هو واقع المسلمين في المدينة.

ولكن المسلمين بحفر الخندق نسفوا خطة الأحزاب المرسومة للمعركة من الأساس وأبطلوا مفعولها، إذ حال هذا الخندق بين جيوش الأحزاب وبين الالتحام مع عسكر الإسلام في معركة فاصلة كما تريد، وكما هي الخطة المرسومة سلفًا للمعركة.

فقد وقف قادة الأحزاب حائرين أمام هذه المكيدة الكبيرة (الخندق) هذه المكيدة التي ما كان العرب يكيدونها ولا يعرفون عنها شيئًا في تاريخهم الطويل.

تجميد نشاط جيوش الأحزاب:

فقد جمد وجود هذا الخندق نشاط تلك الآلاف المؤلفة من جيوش الأحزاب، التي كما سنفصله لم تستطع مقاتلة المسلمين إلا عن طريق حركات تسلل انتحارية عبر (الخندق) كانت نتيجة الإقدام عليها إما القتل وإما الفرار كما حدث لفرسان عمرو بن ود الذين اقتحموا الخندق بأفراسهم كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

لقد ذهب قادة الأحزاب ومعهم رأس الفتنة ومثير عواصف هذا الغزو (حيي بن أخطب) ذهبوا بأنفسهم لارتياد واختيار موقع الهجوم العام على المدينة ليوزعوا الكتائب ساعة الزحف على أساس هذا الاختيار.

مكيدة ما كانت العرب تكيدها:

ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام مفاجأة عسكرية وبدعة حربية ذهلوا لها وصعقوا.. وجدوا أنفسهم أمام خندق وكأنه أفعى تكاد تلف المدينة من جميع نواحيها، خندق يبلغ طوله حوالي ألفي متر في سعة أربعة أمتار وعمق ثلاثة، ترابط على مشارفه وتطوف بنواحيه ليل نهار كتائب من جند الله كأنها الأُسْد الضواري في انتظار الفرائس. [ينظر: موضع الخندق من الخرائط العامة للمعركة في هذا الكتاب].

فأُسقط في يدي أولئك القادة، وأخذوا يطوفون بخيلهم (في ذهول وغيظ) حول الخندق لتفقده والكشف عليه فوجدوه أمنع خط دفاع أقامه المسلمون في وجههم.

فحاروا في هذه المكيدة الحربية العظيمة التي كانت سببًا في قلب خططهم رأسًا على عقب، وشل حركاتهم الواسعة التي كانوا ينوون القيام بها، والتي كانت مناط أملهم للإطباق على المدينة وسحق المسلمين فيها.

وبعد أن طاف قادة الأحزاب بجميع نواحي الخندق وتأكدوا من صعوبة اقتحامه، وقفوا على مشارفه فقالوا (وقد أخذ الغيظ منهم كل مأخذ): **وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ العَرَبُ تَكِيدُهَا**..

وفعلًا فقد كانت عملية الخندق بدعة حربية ما كان العرب يعرفونها في تاريخهم الطويل بالرغم من أنهم شعب محارب منذ عُرف.

ولكنَّ المشركين بالرغم من أن الخندق قد شل حركة جيوشهم وجعلهم يقفون أمامه مكتوفي الأيدي حائرين، فإنهم قد صمموا على البقاء وفرض الحصار الخانق على المدينة، والقيام بمناوشة المسلمين على الدوام بالتناوب ليلًا ونهارًا لإرهاقهم، وفي انتظار الفرص المواتية لاقتحام المدينة لا سيما وأنهم كانوا يتوقعون من اليهود ضرب المسلمين من الخلف.

أما المسلمون، فبالرغم من تحصنهم وراء الخندق التي كان أحسن وآمن دفاع أقاموه في وجه جيوش الأحزاب الجرارة الغامرة، فإنهم ظلوا على حذر وخوف؛ لأنهم كانوا يخشون غدر يهود بني قريظة الواقعة حصونهم خلف خطوطهم، كما يخشون قيام المنافقين الموجودين بينهم بحملات تثبيط وإرجاف يشيعون بها روح الهزيمة بين ضعاف الإيمان داخل الجيش». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٥٣-١٥٦].

منزل المشركين في الخندق:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الخَنْدَقِ، أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ حَتَّى نَزَلَتْ بِمُجْتَمَعِ الأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ (أرض بالمدينة بين الجرف وزغابة نزلها المشركون عام الخندق)، بَيْنَ الجُرْفِ [١] وَزَغَابَةَ [٢] فِي عَشَرَةِ آلَافٍ مِنْ أَحَابِيشِهِمْ وَمَنْ بَنِي كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، حَتَّى نَزَلُوا بِذَنَبِ نَقْمَى (موضع من أعراض المدينة كان لآل أبي طالب)، إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ. [السيرة لابن هشام ٢/ ٢١٩-٢٢٠].

وَقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: وَكَانَ القَوْمُ جَمِيعًا الَّذِينَ وَافَوْا الخَنْدَقَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَسُلَيْمٍ وَغَطَفَانَ، وَأَسَدٍ، عَشَرَةَ آلَافٍ فَهِيَ عَسَاكِرُ ثَلَاثَةٍ، وَعِنَاجُ [٣] الأَمْرِ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ، فَأَقْبَلُوا فَنَزَلَتْ قُرَيْشٌ بِرُومَةَ وَوَادِي العَقِيقِ فِي أَحَابِيشِهَا وَمَنْ ضَوَى إِلَيْهَا مِنَ العَرَبِ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ فِي قَادَتِهَا حَتَّى نَزَلُوا بِالزَّغَابَةِ إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ.

وَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تُسَرِّحُ رِكَابَهَا فِي وَادِي العَقِيقِ فِي عِضَاهِهِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ لِلخَيْلِ إِلَّا مَا حَمَلُوهُ مَعَهُمْ مِنْ عَلَفٍ ـ وَكَانَ عَلَفُهُمْ الذُّرَةَ ـ وَسَرَّحَتْ غَطَفَانُ إِبِلَهَا إِلَى الغَابَةِ فِي أَثْلِهَا وَطَرْفَائِهَا فِي عِضَاهِ الجُرْفِ، وَقَدِمُوا فِي زَمَانٍ لَيْسَ فِي العِرْضِ [٤] زَرْعٌ، فَقَدْ حَصَدَ النَّاسُ قَبْلَ ذَلِكَ بِشَهْرٍ، فَأَدْخَلُوا حَصَادَهُمْ وَأَتْبَانَهُمْ، وَكَانَتْ غَطَفَانُ تُرْسِلُ خَيْلَهَا فِي أَثَرِ الحَصَادِ ـ وَكَانَ خَيْلُ غَطَفَانَ ثَلَاثَمِائَةٍ ـ بِالعِرْضِ، فَيُمْسِكُ ذَلِكَ مِنْ خَيْلِهِمْ، وَكَادَتْ إِبِلُهُمْ تَهْلِكُ مِنَ الهُزَالِ، وَكَانَتْ المَدِينَةُ لَيَالِيَ قَدِمُوا جَدِيبَةً.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٤].

---

(١) **الجرف**: بالضم ثم السكون موضع على ثلاثة أميال من المدينة من جهة الشام كانت به أموال لعمر بن الخطاب ﷺ، قالوا: والذي سماه بهذا الاسم هو تُبَّع، مر به فقال: هذا جرف الأرض، وكان يسمى قبل ذلك: العرض بكسر العين. ينظر: معجم البلدان ٢/ ١٢٨، والمغانم المطابة ٨٨/ ٨٩. مرويات غزوة الخندق ٢١٥.

(٢) **زغابة**: قال ياقوت: بالفتح في الأول وبعد الألف باء موحدة، قال ابن إسحاق: «ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف» إلخ.
قال: ورواه أبو عبد البكري الأندلسي زعابة بضم الزاي وعين مهملة، وذكره الطبري فقال: بين الجرف والغابة، واختار هذه الرواية، وقال: لأن زغابة لا تعرف. وليس الأمر كذلك فإنه قد روي في الحديث المسند أنه ﷺ قال في ناقة أهداها إليه أعرابي فكافأه بست بكرات فلم يرض فقال ﷺ: **«ألا تعجبون لهذا الأعرابي أهدي إلي ناقتي أعرفها بعينها ذهبت مني يوم زغابة، وقد كافأته بست فسخط»** الحديث، وقد جاء ذكر زغابة في حديث آخر فكيف لا يكون معروفًا؟ فالأعرف إذًا عندنا زغابة بالغين المعجمة. ا.هـ. كلام ياقوت في معجم البلدان ٣/ ١٤١-١٤٢. وقد وافقه الفيروزآبادي في القاموس ١/ ٧٩. مرويات غزوة الخندق ٢١١.

(٣) **عِناج الأمر**: أي ملاكه ـ بكسر الميم وفتحها ـ هو ما يقوم به، ومعناه أنه كان صاحبهم ومدبر أمرهم والقائم بشأنهم، كما يحمل ثقل الدلو عناجها، وهو الحبل الذي يشد تحت الدلو، ثم يشد في العروة، ليكون عونًا لعراها فلا ينقطع. سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥٦٦.

(٤) يقال لكل واد فيه قرى ومياه: عرض، وقال الأصمعي: أخصب ذلك العرض وأخصبت أعراض المدينة وهي قراها التي في أوديتها، وقال شمر: أعراض المدينة بطون سوادها حيث الزروع والنخل. معجم البلدان ٦/ ١٤٦.

وكان الزعيم اليهودي الكبير محزِّب الأحزاب، حيي بن أخطب موجودًا مع الأحزاب يتنقل بين المعسكرين وعلى اتصال دائم بقادة الفريقين (غطفان وقريش) يرسم الخطط ويقدم المشورة.

أول شهيدين من المسلمين:

وكان النبي ﷺ قبل وصول جيش الأحزاب قد بعث رجلين من رجال استخبارات الجيش الإسلامي للاستطلاع ومعرفة تحركات العدو والحصول على المعلومات الكافية عنه.

والرجلان هما (سليط) و(سفيان بن عوف)، وقد وقع هذان الرجلان في قبضة العدو، حيث التقيا وهما يقومان بعملية الاستكشاف التقيا بدورية كبيرة مسلحة من دوريات جيوش الأحزاب الاستطلاعية فطوقهما رجال الدورية ثم قبضوا عليهما، ثم سلموهما لقيادة الأحزاب، وبمجرد علم هذه القيادة أن الرجلين عينٌ لمعسكر المدينة أمرت بإعدامهما فأعدما فورًا، وقد تمكن المسلمون من نقل جثتي هذين الشهيدين إلى المدينة فدفنهما النبي ﷺ في قبر واحد، فكانا أول شهيدين قتلا في معركة الأحزاب.

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٥٢].

عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ وَهْبٍ الْخُزَاعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ سَلِيطًا، وَسُفْيَانَ بْنَ عَوْفٍ الْأَسْلَمِيَّ رضي الله عنهما طَلِيعَةً (الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو أو مقدمة الجيش) يَوْمَ الْأَحْزَابِ، فَخَرَجَا حَتَّى إِذَا كَانَا بِالْبَيْدَاءِ (الصحراء) الْتَفَّتْ عَلَيْهِمْ خَيْلٌ لِأَبِي سُفْيَانَ، فَقَاتَلَا حَتَّى قُتِلَا، فَأُتِيَ بِهِمَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَدُفِنَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ، فَهُمَا الشَّهِيدَانِ الْقَرِينَانِ [الْقَرِينَانِ].

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٥ في المغازي والسير (١٠١٤٨)، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/ ٣٣٢ رقم ١٨٠٥]، وفيه جماعة لم أعرفهم].

المبحث الثاني
نقض بني قريظة العهد

الحلف بين المسلمين واليهود:

يقول د/ حبيشي: «لم يبق مع النبي ﷺ في المدينة من اليهود سوى بني قريظة وزعيمهم كعب بن أسد. والنبي ﷺ كان قد عاهدهم ـ كما علمت ـ والتزم الفريقان بعهدهم، لم يخرج واحد منهم على العهد.

وكان بنو قريظة قومًا يعملون بالزراعة وينشغلون بها، وبينهم وبين المسلمين من أنصار ومهاجرين نوع من المودة، وتبادل المنافع على نحو ما يكون بين الجار وجاره.

وقد علمت فيما سبق أن حيي بن أخطب، وعبد الله بن أبي بن سلول قد حاولا قبيل إجلاء بني النضير أن يحملا القرظيين على أن يدخلوا مع إخوانهم اليهود في نقض العهد مع النبي ﷺ، وإبطال معاهدة السلام المبرمة بينهم وبين المسلمين، وأن بني قريظة لم يستجيبوا لهذه المحاولة، وقالوا لعبد الله بن أبي: إنا مع النبي في معاهدة سلام، وإنا لم نر من الرجل إلا خيرًا.

واستمر يهود بني قريظة على مبدئهم هذا لا ينبذون إلى النبي ﷺ عهده، ولم يرهقهم النبي ﷺ في شيء». [رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١١٥].

ومن الجدير بالذكر أن حلفًا عسكريًّا ومعاهدة دفاع مشترك كانت ـ حتى وصول جيوش الأحزاب ـ معقودة بين المسلمين وبين يهود بني قريظة.

إلا أن زعيم بني النضير وسيدها حيي بن أخطب النضري قد أقنع يهود بني قريظة بنقض هذا العهد والانقضاض على المسلمين من الخلف ساعة الصفر كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

تردد العرب في البقاء والشتاء قارس:

يقول د/ هيكل: «أيقن أبو سفيان والذين معه أنهم مقيمون أمام يثرب وخندقها طويلًا دون أن يستطيعوا اقتحامها، وكان الوقت آنئذ شتاءً قارسًا برده، عاصفة رياحه، يخشى في كل وقت مطره، وإذا كان من اليسير أن يحتمي أهل مكة وأهل غطفان من ذلك كله بمنازلهم في مكة وفي غطفان، فالخيام التي ضربوا أمام يثرب لا تحميهم منه فتيلًا، وهم بعدُ قد جاؤوا يرتجون نصرًا ميسورًا لا يكلفهم غير يوم كيوم أُحُد، ثم يعودون أدراجهم يتغنون بأناشيد الفوز ويستمتعون باقتسام الغنائم والأسلاب.

وماذا عسى أن يُمسك غطفان عن أن تعود أدراجها وهي إنما اشتركت في الحرب لأن اليهود وعدتها ـ متى تم النصر ـ ثمارَ سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر وحدائقها، وها هي ذي ترى النصر غير ميسور، أو هو على الأقل غير محقق، وهو يحتاج من المشقة في هذا الفصل القارس إلى ما ينسيها الثمار والحدائق!

فأما انتقام قريش لنفسها من بدر ومما لحقها بعد بدر من هزائم، فأمره مدرك على الأيام ما دام هذا الخندق يحول دون إمساك محمد ﷺ بالتلابيب، وما دامت بنو قريظة تمد أهل يثرب بالمؤونة إمدادًا يطيل أمد مقاومتهم شهورًا وشهورًا.

أفليس خيرًا للأحزاب أن يعودوا أدراجهم؟!

نعم! لكن جمع هؤلاء الأحزاب لحرب محمد مرة أخرى ليس بالأمر الميسور وقد استطاع اليهود، وحيي بن أخطب على رأسهم، أن يجمعوها هذه المرة للانتقام لأنفسهم من محمد ﷺ وأصحابه عما أوقع بهم وببني قينقاع من قبلهم، فإن أفلتت الفرصة فهيهات هيهات أن تعود، وإن انتصر محمد ﷺ بانسحاب الأحزاب فالويل ثم الويل لليهود.

خوف حيي من انسحاب الأحزاب:

قدَّر حيي بن أخطب هذا كله، وخاف مغبته، ورأى ألا مفر من أن يقامر بآخر سهم عنده، فأوحى إلى الأحزاب أنه مقنع بني قريظة بنقض عهد موادعتهم محمدًا ﷺ والمسلمين والانضمام إليهم، وأن قريظة متى فعلت انقطع المدد والميرة عن محمد ﷺ من ناحية، وفتح الطريق لدخول يثرب من ناحية أخرى».

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤١-٣٤٢].

خوف المسلمين من غدر اليهود:

يقول أ/ باشميل: «أخشى ما يخشاه قادة جيش المدينة داخليًّا هو غدر يهود بني قريظة عندما تتحرج الحالة؛ لأن ذلك يعني تعريض الكيان الإسلامي بأكمله لأشد الأخطار.

لأن انضمام يهود بني قريظة الذين توازي قواتهم (فقط) قوات الجيش الإسلامي بأكمله، يجعل المسلمين بين نارين.. اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب ـ بآلافهم العشرة ـ أمامهم.

ودخول بني قريظة المعركة ضد المسلمين وضربهم من الخلف يقلل من أهمية الخندق بالنسبة لجيوش الأحزاب؛ لأن الخندق إنما يكون ذا أهمية بالنسبة للدفاع عن المدينة إذا كان هناك قوة كافية من المسلمين تطوف حوله ليلًا ونهارًا لضرب أية قوة تحاول المغامرة باقتحامه عن طريق القفز بالخيل أو عن طريق الردم.

فضرب بني قريظة المسلمين من الخلف، وهم (أي بنو قريظة) قوة لا يستهان بها يجبر المسلمين أو قسمًا كبيرًا من قواتهم المرابطة في وجه الأحزاب على مشارف الخندق يجبرهم على ترك مراكزهم حول الخندق لمواجهة الهجوم اليهودي الآتي من الخلف.

وهذا دونما شك يسهل لقوات الأحزاب اجتياز الخندق ناحية المسلمين، بأعداد كبيرة، سواء عن طريق القفز بالخيل، أو عن طريق ردم الخندق في مواضع يستطيع رجال الأحزاب ردمها للعبور دون أن

يجدوا مقاومة تُذكر من المسلمين؛ لأن رجالهم سيكونون قليلين جدًّا بعد الهجوم اليهودي مما يجعل مراقبة الخندق وحراسته حراسة فعالة من الأمور الصعبة، لاسيما وأن الخندق يبلغ طوله حوالي ألفي متر، قد جندت قيادة المدينة كل جيشها (تقريبًا) لمراقبته وحراسة مشارفه.

ولقد حدث ما كان المسلمون يتوقعون حدوثه ويخشونه، سواء من ناحية نقض اليهود العهد وانضمامهم إلى جيوش الأحزاب، أو من ناحية انفضاض المنافقين من حول النبي ﷺ وتسللهم من الجيش ساعة الشدة وقيامهم بعمليات الإرجاف والتثبيط وبث روح الهزيمة بين المحاربين المسلمين.

كيف نقض اليهود العهد:

لقد كانت استخبارات الجيش الإسلامي تراقب مناطق بني قريظة مراقبة شديدة وتتبع حركاتهم وسكناتهم لتأتي بما يجد من أخبارها إلى النبي القائد ﷺ أولًا بأول، وذلك لئلا يؤخذ المسلمون على حين غرة.

فقد كانت القيادة الإسلامية في المدينة عند وصول الأحزاب على غاية من الحرج، وموقفها بلغ من الدقة إلى أبعد الحدود.

كان قادة جيش المدينة على يقين بأن شيطان بني النضير (حيي بن أخطب) سيتصل بيهود بني قريظة لتحريضهم على نقض العهد وحملهم على الانضمام إلى جيوش الأحزاب.

وقد أجمع أصحاب المغازي والسير على أن زعيم يهود بني قريظة (كعب بن أسد) ما كان راغبًا (مطلقًا) في نقض العهد الذي بينه وبين المسلمين ولم تكن له أية رغبة في الغدر بهم، خوفًا على اليهود من النتائج المخيفة التي ستترتب على نقض العهد والغدر بالمسلمين في تلك الظروف الخانقة التي بلغت فيها حالة المسلمين من الدقة والحراجة أقصى الدرجات؛ لأن اليهود لم يكونوا واثقين من تغلب الأحزاب على المسلمين.

ممانعة سيد قريظة في نقض العهد:

حتى إن كعبًا هذا عندما علم بقدوم حيي بن أخطب إلى ديار بني قريظة لمقابلته أمر بإقفال باب الحصن في وجهه ورفض أول الأمر مقابلته، وطلب منه مغادرة ديار بني قريظة والعودة من حيث أتى؛ لأنه يعلم أن مجيئه لم يكن إلا لحمل بني قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين، فكعب هذا يعرف مدى العداوة الشديدة التي يحملها حيي بن أخطب للنبي ﷺ خاصة.

ولكن هذا اليهودي الشرير (حيي بن أخطب) بالرغم من إقفال باب الحصن في وجهه وأمره بمغادرة ديار بني قريظة ظل (في مكر وخبث) لاصقًا بباب حصن سيد بني قريظة، طلبًا منه (وبإلحاح) أن يفتح له باب الحصن ليكلمه، حتى خجل من كلامه القارص الذي كان يوجهه إليه، ففتح له.

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٥٧-١٥٩].

شيطان بني النضير في صفوف بني قريظة:

ولكن شيطان بني النضير والعدو رقم واحد للإسلام والمسلمين ـ حيي بن أخطب ـ الذي تعهد لقادة قريش وغطفان ـ عندما حزَّبها وشجعها على حرب النبي ﷺ ـ وَفَد على بني قريظة يدعوهم إلى اغتنام فرصة وجود جيوش الأحزاب وحسَّن لهم الغدر بالمسلمين والمشاركة مع الأحزاب في استئصال شأفتهم، هذا الاستئصال الذي ما كان سيد بني النضير اليهودي الحاقد يشك لحظة في نجاح عمليته.

ولقد قاوم سيد بني قريظة كعب بن أسد هذه المحاولة الخطيرة طويلًا، وقبح لحيي بن أخطب فكرة ما يدعو إليه من الغدر بالمسلمين، وذكره بالعواقب الوخيمة التي سيتعرض لها شعب قريظة نتيجة هذا الغدر الذي يلح حيي بن أخطب في القيام به.

المناقشة بين الزعيمين اليهوديين:

لقد دارت بين سيد بني النضير وسيد بني قريظة حول هذا الموضوع الخطير المناقشة التالية:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَخَرَجَ عَدُوُّ اللهِ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضَرِيُّ، حَتَّى أَتَى كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ القُرَظِيَّ، صَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعَهْدِهِمْ، وَكَانَ قَدْ وَادَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى قَوْمِهِ، وَعَاقَدَهُ عَلَى ذَلِكَ وَعَاهَدَهُ، فَلَمَّا سَمِعَ كَعْبٌ حَيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ أَغْلَقَ دُونَهُ بَابَ حِصْنِهِ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، فَأَبَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ، فَنَادَاهُ حُيَيٌّ: **وَيْحَكَ**[1] **يَا كَعْبُ! افْتَحْ لِي**، قَالَ: **وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! إِنَّكَ امْرِؤٌ مَشْؤُومٌ، وَإِنِّي قَدْ عَاهَدْتُ مُحَمَّدًا، فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إِلَّا وَفَاءً وَصِدْقًا**، قَالَ: **وَيْحَكَ افْتَحْ لِي أُكَلِّمْكَ**، قَالَ: **مَا أَنَا بِفَاعِلٍ**، قَالَ: **وَاللهِ إِنْ أَغْلَقْتَ دُونِي الحِصْنَ إِلَّا تَخَوُّفْتَ عَلَى جَشِيشَتِكَ**[2] **أَنْ آكُلَ مَعَكَ مِنْهَا**، فَأَحْفَظَ (أغضب) الرَّجُلَ، فَفَتَحَ لَهُ، فَقَالَ: **وَيْحَكَ يَا كَعْبُ! جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ، وَبِبَحْرٍ طَامٍ** (أي مرتفع، ويريد كثرة الرجال)، **جِئْتُكَ بِقُرَيْشٍ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا، حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِمُجْتَمَعِ الأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ، وَبِغَطَفَانَ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِذَنَبِ نَقْمَى إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ، قَدْ عَاهَدُونِي وَعَاقَدُونِي عَلَى أَنْ لَا يَبْرَحُوا حَتَّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ.**

قَالَ: فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ: **جِئْتَنِي وَاللهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ، وَبِجَهَامٍ** (السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه) **قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ، فَهُوَ يُرْعِدُ وَيُبْرِقُ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ**[3]**، وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً.**

---

(١) **ويح**: كلمة ترحُّم وتوجُّع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها، وقد يقال بمعنى المدح والتعجب وهي منصوبة على المصدر. النهاية لابن الأثير ٥/ ٢٣٥.

(٢) **الجشيشة**: طعام يُصنع من البر يطحن غليظًا، ثم تجعل في القدور ويُلقى عليه لحم أو تمر أو تطبخ. النهاية لابن الأثير ١/ ٢٧٣، وهو الذي تقول له العامة: «دشيش» بالدال، والصواب بالجيم.

(٣) يعني بذلك كعب: أن جيوش الأحزاب على كثرتها وعظمتها ليست إلا كالسحاب العظيم الذي تصك رعوده الآذان ويخطف برقه الأبصار وليس فيه قطرة ماء.

فَلَمْ يَزَل حُيَيٌّ بِكَعْبٍ يَفْتِلُهُ فِي الذُّرْوَةِ وَالغَارِبِ (هذا مثل، وأصله في البعير يستصعب عليك، فتأخذ القرادة من ذروته وغارب سنامه وتفتل هناك، فيجد البعير لذة فيأنس عند ذلك. فضُرب هذا الكلام مثلًا في المراودة والمخاتلة)، حَتَّى سَمَحَ لَهُ، عَلَى أَنْ أَعْطَاهُ عَهْدًا مِنَ اللهِ وَمِيثَاقًا: **لَئِنْ رَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ، وَلَمْ يُصِيبُوا مُحَمَّدًا أَنْ أَدْخُلَ مَعَكَ فِي حِصْنِكَ حَتَّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ.**

فَنَقَضَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَهْدَهُ، وَبَرِئَ مِمَّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. [السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٠-٢٢١].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي أَبُو أَيُّوبَ بْنُ النُّعْمَانِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ يَقُولُ لأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَلِقُرَيْشٍ فِي مَسِيرِهِ مَعَهُمْ: **إِنَّ قَوْمِي قُرَيْظَةَ مَعَكُمْ، وَهُمْ أَهْلُ حَلْقَةٍ وَافِرَةٍ، هُمْ سَبْعُمِائَةِ مُقَاتِلٍ وَخَمْسُونَ مُقَاتِلًا، فَلَمَّا دَنَوْا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ: ائْتِ قَوْمَكَ، حَتَّى يَنْقُضُوا العَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ،** فَذَهَبَ حُيَيٌّ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ صَالَحَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ وَمَنْ بِالمَدِينَةِ مِنَ اليَهُودِ أَلَّا يَكُونُوا مَعَهُ وَلا عَلَيْهِ.

وَيُقَالُ: صَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ يَنْصُرُوهُ مِمَّنْ دَهَمَهُ مِنْهُمْ وَيُقِيمُوا عَلَى مَعَاقِلِهِمُ الأُولَى الَّتِي بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ (أي يكونوا على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها)، وَيُقَالُ: إِنَّ حُيَيًّا عَدَلَ مِنْ ذِي الحُلَيْفَةِ فَسَلَكَ عَلَى العَصَبَةِ حَتَّى طَرَقَ كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ، وَكَانَ كَعْبٌ صَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعَهْدِهَا.

فَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ يُحَدِّثُ يَقُولُ: **كَانَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ رَجُلًا مَشْؤُومًا، هُوَ شَأَمَ بَنِي النَّضِيرِ قَوْمَهُ وَشَأَمَ قُرَيْظَةَ حَتَّى قُتِلُوا، وَكَانَ يُحِبُّ الرِّئَاسَةَ وَالشَّرَفَ عَلَيْهِمْ، وَلَهُ فِي قُرَيْشٍ شَبَهٌ، أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ.**

فَلَمَّا أَتَى حُيَيٌّ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ كَرِهَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ دُخُولَهُ دَارَهُمْ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيَهُ غَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلٍ، فَقَالَ لَهُ حُيَيٌّ: **قَدْ جِئْتُكَ بِمَا تَسْتَرِيحُ بِهِ مِنْ مُحَمَّدٍ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ حَلَّتْ وَادِيَ العَقِيقِ، وَغَطَفَانَ بِالزَّغَابَةِ.**

قَالَ غَزَّالٌ: **جِئْتَنَا وَاللهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ،** قَالَ حُيَيٌّ: **لا تَقُلْ هَذَا،** ثُمَّ وُجِّهَ إِلَى بَابِ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ فَدَقَّ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُ كَعْبٌ، وَقَالَ: **مَا أَصْنَعُ بِدُخُولِ حُيَيٍّ عَلَيَّ رَجُلٌ مَشْؤُومٌ قَدْ شَأَمَ قَوْمَهُ وَهُوَ الآنَ يَدْعُونِي إِلَى نَقْضِ العَهْدِ،** قَالَ: فَدَقَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ كَعْبٌ: **إِنَّكَ امْرُؤٌ مَشْؤُومٌ قَدْ شَأَمْتَ قَوْمَكَ حَتَّى أَهْلَكْتَهُمْ، فَارْجِعْ عَنَّا فَإِنَّكَ إِنَّمَا تُرِيدُ هَلاكِي وَهَلاكَ قَوْمِي،** فَأَبَى حُيَيٌّ أَنْ يَرْجِعَ، فَقَالَ كَعْبٌ: **يَا حُيَيُّ، إِنِّي عَاقَدْتُ مُحَمَّدًا وَعَاهَدْتُهُ، فَلَمْ نَرَ مِنْهُ إِلَّا صِدْقًا، وَاللهِ مَا أَخْفَرَ لَنَا ذِمَّةً وَلا هَتَكَ لَنَا سِتْرًا، وَلَقَدْ أَحْسَنَ جِوَارَنَا.**

فَقَالَ حُيَيٌّ: **وَيْحَكَ! إِنِّي قَدْ جِئْتُكَ بِبَحْرٍ طَامٍ وَبِعَزِّ الدَّهْرِ، جِئْتُكَ بِقُرَيْشٍ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا، وَجِئْتُكَ بِكِنَانَةَ حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِرُومَةَ، وَجِئْتُكَ بِغَطَفَانَ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِالزَّغَابَةِ إِلَى نَقْمَى، قَدْ قَادُوا الخَيْلَ وَامْتَطَوْا الإِبِلَ، وَالعَدَدُ عَشَرَةُ آلافٍ وَالخَيْلُ أَلْفُ فَرَسٍ، وَسِلاحٌ كَثِيرٌ، وَمُحَمَّدٌ لا يُفْلَتُ فِي فَوْرِنَا هَذَا، وَقَدْ تَعَاقَدُوا وَتَعَاهَدُوا أَلَّا يَرْجِعُوا حَتَّى يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ.**

قَالَ كَعْبٌ: وَيْحَكَ! جِئْتَنِي وَاللهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ وَبِسَحَابٍ يَبْرُقُ وَيَرْعُدُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، وَأَنَا فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ لا أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أَرِيمَ دَارِي، وَمَالِي مَعِي، وَالصِّبْيَانُ وَالنِّسَاءُ فَارْجِعْ عَنِّي، فَإِنَّهُ لا حَاجَةَ لِي فِيمَا جِئْتَنِي بِهِ.

قَالَ حُيَيٌّ: وَيْحَكَ أُكَلِّمُكَ، قَالَ كَعْبٌ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ: وَاللهِ مَا أَغْلَقْت دُونِي إِلَّا لِخَشِيشَتِكَ أَنْ آكُلَ مَعَكَ مِنْهَا، فَلَكَ أَلَّا أُدْخِلَ يَدِي فِيهَا، قَالَ: فَأَحْفَظُهُ، فَفَتَحَ البَابَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَل يَفْتِلُهُ فِي الذُّرْوَةِ وَالغَارِبِ حَتَّى لانَ لَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ عَنِّي يَوْمَكَ هَذَا حَتَّى أُشَاوِرَ رُؤَسَاءَ اليَهُودِ، فَقَالَ: قَدْ جَعَلُوا العَهْدَ وَالعَقْدَ إِلَيْكَ فَأَنْتَ تَرَى لَهُمْ، وَجَعَلَ يُلِحُّ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَلَهُ عَنْ رَأْيِهِ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ: يَا حُيَيُّ، قَدْ دَخَلْتُ فِيمَا تَرَى كَارِهًا لَهُ، وَأَنَا أَخْشَى أَلَّا يُقْتَلَ مُحَمَّدٌ وَتَنْصَرِفُ قُرَيْشٌ إِلَى بِلادِهَا، وَتَرْجِعُ أَنْتَ إِلَى أَهْلِكَ، وَأَبْقَى فِي عُقْرِ الدَّارِ وَأُقْتَلُ وَمَنْ مَعِي.

فَقَالَ حُيَيٌّ: لَكَ مَا فِي التَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سَيْنَاءَ، لَئِنْ لَمْ يُقْتَل مُحَمَّدٌ فِي هَذِهِ الفَوْرَةِ وَرَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ قَبْلَ أَنْ يُصِيبُوا مُحَمَّدًا، لأَدْخُلَنَّ مَعَكَ حِصْنَكَ حَتَّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ.

فَنَقَضَ كَعْبٌ العَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَدَعَا حُيَيٌّ بِالكِتَابِ الَّذِي كَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمْ فَشَقَّهُ حُيَيٌّ، فَلَمَّا شَقَّهُ حُيَيٌّ عَلِمَ أَنَّ الأَمْرَ قَدْ لَحَمَ وَفَسَدَ فَخَرَجَ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَهُمْ حِلَقٌ حَوْلَ مَنْزِلِ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، فَخَبَّرَهُمْ الخَبَرَ.

يَقُولُ الزُّبَيرُ بْنُ بَاطَا: وَا هَلاكَ اليَهُودِ! تُوَلِّي قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ وَيَتْرُكُونَنَا فِي عُقْرِ دَارِنَا وَأَمْوَالِنَا وَذَرَارِيِّنَا، وَلا قُوَّةَ لَنَا بِمُحَمَّدٍ، مَا بَاتَ يَهُودِيٌّ عَلَى حَزْمٍ قَطُّ، وَلا قَامَتْ يَهُودِيَّةٌ بِيَثْرِبَ أَبَدًا.

ثُمَّ أَرْسَلَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ إِلَى نَفَرٍ مِنْ رُؤَسَاءِ اليَهُودِ خَمْسَةٍ: الزَّبَيْرَ بْنَ بَاطَا، وَنَبَّاشَ بْنَ قَيْسٍ، وَغَزَّالَ بْنَ سَمَوْأَلٍ، وَعُقْبَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَكَعْبَ بْنَ زَيْدٍ، فَخَبَّرَهُمْ خَبَرَ حُيَيٍّ وَمَا أَعْطَاهُ حُيَيٌّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ فَيَدْخُلَ مَعَهُ فَيُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُ.

يَقُولُ الزُّبَيرُ بْنُ بَاطَا: وَمَا حَاجَتُكَ إِلَى أَنْ تُقْتَلَ وَيُقْتَلَ مَعَكَ حُيَيٌّ، قَالَ: فَأُسْكِتَ كَعْبٌ، وَقَالَ القَوْمُ: نَحْنُ نَكْرَهُ نُزْرِي بِرَأْيِكَ أَوْ نُخَالِفُكَ، وَحُيَيٌّ مَنْ قَدْ عَرَفْتَ شُؤْمَهُ.

وَنَدِمَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَلَى مَا صَنَعَ مِنْ نَقْضِ العَهْدِ وَلَحَمَ الأَمْرُ لَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى مِنْ حَرْبِهِمْ وَهَلاكِهِمْ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٤-٤٥٧].

يقول أ/ باشميل: «لما ألح حيي بن أخطب في كلامه وأخذ بأسلوبه الخادع الماكر يؤثر في نفوس القوم دعا سيد بني قريظة كعب بن أسد إلى اجتماع حضره جميع زعماء وقادة بني قريظة للتشاور في الأمر وبحث ما عرضه عليهم سيد بني النضير من الانضمام إلى جيوش الأحزاب ونقض العهد الذي بين قريظة والمسلمين.

أحد زعماء اليهود يحذر من نقض العهد:

وفي هذا المجلس تكلم أحد عقلائهم من القادة وهو عمرو بن سُعدى، فنصح بني قريظة وحذرهم مغبة نقض العهد، وذكرهم بوفاء محمد الدائم وصدقه في معاملته لهم، وأنهم ملزمون بالقتال إلى جانبه، فكيف يسوغ لهم (بدلًا من ذلك) أن يُشهروا السلاح في وجهه ويعينوا عدوه عليه؟ ثم طلب منهم الثبات على العهد وألا يصغوا لكلام حيي بن أخطب، بل وطلب منهم حمل السلاح إلى جانب المسلمين كما تفرض ذلك المعاهدة المعقودة بينهم، وطلب عمرو بن سعدى في هذا المجلس من قومه أن يقفوا على الأقل موقف الحياد إذا لم ينصروا النبي ﷺ قائلًا: «**إذا لم تنصروا محمدًا فاتركوه وعدوه**».

ولكن وساوس وتأثيرات حيي بن أخطب كانت أقوى من كل معارضة حيث ما زال ـ كما قال ابن إسحاق ـ يستدرج زعماء بني قريظة ويفتل كعبًا في الذروة والغارب حتى أجابوه إلى ما طلب، فوافقوا على نقض العهد والغدر بالمسلمين والانضمام إلى جيوش الأحزاب.

وذلك بعد أن أخذوا العهد والميثاق على سيد بني النضير حيي بن أخطب أن يبقى معهم في حصونهم ليصيبه ما أصابهم إذا رجعت قريش وغطفان دون أن تقضي جيوشها على المسلمين، وبعد أن أخذت قريظة العهد على حيي بن أخطب بهذا الخصوص، أعلن زعيمها كعب بن أسد نقضه للعهد وبرئ مما كان بينه وبين النبي ﷺ.

إعلان قريظة الغدر بالمسلمين:

استدعى كعب زعماء بني قريظة، ومنهم: الزبير بن باطا، وغزال بن ميمون، وشاس بن قيس، وعقبة بن زيد، وعمرو بن سعدي، وأحضر الصحيفة التي تتضمن نص العهد المعقود بين النبي ﷺ ويهود بني قريظة وطلب منهم الموافقة على تمزيقها إيذانًا بنقض العهد والانضمام إلى الأحزاب.

فوافق الجميع على ذلك، إلا الزعيم القرظي عمرو بن سُعدى، فإنه أبى ذلك وأعلن رفضه المشاركة في جريمة الغدر هذه قائلًا: «**والله لا أغدر بمحمد أبدًا**» وبقي على عهده، وسانده في موقفه النبيل هذا ثلاثة من هؤلاء اليهود وهم: ثعلبة وأسيد ابنا سعية، وأسد بن عبيد.

وقد كان موقف عمرو بن سعدى اليهودي هذا سببًا في نجاته عندما حاق بيهود بني قريظة مكرهم السيء وأعدمهم المسلمون بعد انصراف الأحزاب عن المدينة، أما الثلاثة الآخرون فقد خرجوا إلى النبي ﷺ، وأعلنوا إسلامهم.

تمزيق صحيفة المعاهدة:

أما كعب بن أسد فقد تغلب طيشه على عقله وحلمه فأصر مع زعماء قريظة على الغدر بالمسلمين فأخذوا الصحيفة التي تتضمن نص العقد الذي بينهم وبين المسلمين فمزقوها، وبهذا أصبحوا حربًا على النبي ﷺ وجزءًا من قوة الأحزاب.

وصول الخبر إلى النبي ﷺ:

ولما كانت ديار بني قريظة تحت مراقبة رجال الاستخبارات الإسلامية، فقد علم هؤلاء الرجال بالحدث الخطير الذي أحدثته قريظة الخائنة، فسارعوا بنقل الخبر إلى الرسول القائد ﷺ.

فجاؤوا إليه وهو في معسكره وراء الخندق، وبلَّغوه (سرًّا) هذا الخبر الخطير، فشق عليه ذلك كثيرًا، إلا أنه كتم الخبر وأمر بألا يُشاع منه شيء. [غزوة الأحزاب لباشميل ١٦١-١٦٣].

الزبير بن العوام ﷺ رجل المهمات الصعبة:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ فِي الخَنْدَقِ أَتَى عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ فِي قُبَّتِهِ - وَقُبَّةُ رَسُولِ الله ﷺ مَضْرُوبَةٌ مِنْ أَدَمٍ فِي أَصْلِ الجَبَلِ عِنْدَ المَسْجِدِ الَّذِي فِي أَسْفَلِ الجَبَلِ - مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَالمُسْلِمُونَ عَلَى خَنْدَقِهِمْ يَتَنَاوَبُونَ، مَعَهُمْ بِضْعَةٌ وَثَلاثُونَ فَرَسًا، وَالفُرْسَانُ يَطُوفُونَ عَلَى الخَنْدَقِ مَا بَيْنَ طَرَفَيْهِ يَتَعَاهَدُونَ رِجَالًا وَضَعُوهُمْ فِي مَوَاضِعَ مِنْهُ إِلَى أَنْ جَاءَ عُمَرُ ﷺ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله، بَلَغَنِي أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ نَقَضَتْ العَهْدَ وَحَارَبَتْ**، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَقَالَ: «**مَنْ نَبْعَثُ يَعْلَمُ لَنَا عِلمَهُمْ؟**»، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: **الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ**، فَكَانَ أَوَّلَ النَّاسِ بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ الزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ ﷺ، فَقَالَ: «**اذْهَبْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَذَهَبَ الزُّبَيْرُ فَنَظَرَ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله، رَأَيْتُهُمْ يُصْلِحُونَ حُصُونَهُمْ وَيُدْرِبُونَ طُرُقَهُمْ، وَقَدْ جَمَعُوا مَاشِيَتَهُمْ**، فَذَلِكَ حِينَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيَّ (١) الزُّبَيْرُ وَابْنُ عَمَّتِي**». [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٧].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: اشْتَدَّ الأَمْرُ يَوْمَ الخَنْدَقِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَانْطَلَقَ الزُّبَيْرُ ﷺ فَجَاءَ بِخَبَرِهِمْ، ثُمَّ اشْتَدَّ الأَمْرُ أَيْضًا، فَذَكَرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَابْنُ الزُّبَيْرِ حَوَارِيِّ**». [مسند أحمد ٢٢/ ٢٧٢ عن جابر ﷺ رقم ١٤٣٧٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وسنن النسائي الكبرى ٥/ ٢٦٤ في السير (٨٨٤٢، ٨٨٤٣)].

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ القَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيْرُ ﷺ: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ القَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيْرُ ﷺ: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ القَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيْرُ ﷺ: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**».

[البخاري في المغازي (٤١١٣)، وفي الجهاد (٢٨٤٦)، والترمذي في المناقب (٣٧٤٥)، وسنن النسائي الكبرى ٥/ ٦٠ في المناقب (٢١١٨)، ٥/ ٢٦٤ في السير (٨٨٤١)، ٦/ ٣٣٩ في التفسير (١١١٥٩)].

---

(١) **حواري**: لفظة مفرد بمعنى الخالص والناصر. والياء فيه للنسبة. وأصل معناه البياض فهو منصرف منون، وحواري: أصله بالإضافة إلى ياء المتكلم. لكن حذفت الياء اكتفاء بالكسرة وقد تبدل فتحة للتخفيف.

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: نَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**»، قَالَ سُفْيَانُ: الحَوَارِيُّ النَّاصِرُ. [البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٧، ٢٩٩٧)، وفي فضائل الصحابة ﷺ (٣٧١٩)، وفي أخبار الآحاد (٧٢٦١)، ومسلم في فضائل الصحابة ﷺ (٢٤١٥)، ومسند أحمد ٢٢/ ٢٠٠ رقم ١٤٢٩٧].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ ﷺ قَالَ: كُنْتُ يَوْمَ الأَحْزَابِ جُعِلْتُ أَنَا وَعُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ مَعَ النِّسَاءِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِالزُّبَيْرِ عَلَى فَرَسِهِ يَخْتَلِفُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، فَلَمَّا رَجَعْتُ [رَجَعَ] قُلْتُ: يَا أَبَتِ رَأَيْتُكَ تَخْتَلِفُ، قَالَ: أَوَهَل [وَهَل] رَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: كَانَ [فَإِنَّ] رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ**»، فَانْطَلَقْتُ، فَلَمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ الله ﷺ أَبَوَيْهِ، فَقَالَ: «**فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**». [البخاري في المناقب (٣٧٢٠)، وسنن النسائي الكبرى ٥/ ٦٠ في المناقب (٨٢١٣)، وأحمد في المسند ٣/ ٣٩ عن الزبير بن العوام ﷺ رقم ١٤٢٣].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَعُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ مَعَ النِّسْوَةِ فِي أُطُمِ حَسَّانَ، فَكَانَ يُطَأْطِئُ لِي مَرَّةً فَأَنْظُرُ، وَأُطَأْطِئُ لَهُ مَرَّةً فَيَنْظُرُ، فَكُنْتُ أَعْرِفُ أَبِي إِذَا مَرَّ عَلَى فَرَسِهِ فِي السِّلَاحِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

قَالَ: وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الله بْنُ عُرْوَةَ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ ﷺ قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي، فَقَالَ: وَرَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا وَالله لَقَدْ جَمَعَ لِي رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ أَبَوَيْهِ فَقَالَ: «**فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**».

[مسلم في فضائل الصحابة ﷺ (٢٤١٦)، ومسند أحمد ٣/ ٢٧ عن الزبير بن العوام ﷺ رقم ١٤٠٩].

وفد النبي ﷺ إلى بني قريظة:

لما جاء الزبير ﷺ بخبر نقض بني قريظة للعهد استدعى رسول الله ﷺ حليف بني قريظة وسيد الأوس سعد بن معاذ ﷺ وهو شاب لم يبلغ الأربعين من عمره، كما استدعى سيد الخزرج سعد بن عبادة ﷺ وهما قطبا الأنصار، وعبد الله بن رواحة، وأسيد بن حضير، والجميع من الأنصار، وبعد أن حضروا كلفهم النبي ﷺ بأن يذهبوا إلى بني قريظة وأمرهم بأن يتصلوا رسميًّا بزعماء هؤلاء اليهود، ويسألوهم عما بلغهم من خبر نقضهم العهد.

وقد أمر النبي ﷺ رجال هذا الوفد بأن يكتموا الخبر عن الجيش إذا ما صح أن يهود بني قريظة قد نقضوا العهد وأعلنوا الحرب؛ وذلك لكي لا يؤثر هذا الخبر الخطير على معنويات الجند الإسلامي، الذي هو في حالة كرب وشدة لمواجهته الأحزاب على مشارف الخندق ليلًا ونهارًا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ الله ﷺ الخَبَرُ وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ، بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذِ بْنِ النُّعْمَانِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الأَوْسِ، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ بَنِ دُلَيْمٍ، أَحَدَ بَنِي سَاعِدَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ الخَزْرَجِ

وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وَمَعَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، أَخُو بَنِي الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، وَخَوَّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ، أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا** (اللحن: اللغز، وهو أن يخالف ظاهر الكلام معناه) **أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ**(فت في عضده، إذا أضعفه وأوهنه)، **وَإِنْ كَانُوا عَلَى الوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢١-٢٢٢].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، وَأُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ[1]، فَقَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ نَقَضُوا العَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ وَحَارَبُوا، فَاذْهَبُوا فَانْظُرُوا إِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي حَقًّا، فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا فَأَظْهِرُوا القَوْلَ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا فَتَكَلَّمُوا بِكَلَامٍ تَلْحَنُونَ لِي بِهِ أَعْرِفُهُ لا تَفُتُّوا أَعْضَادَ المُسْلِمِينَ**». [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٨].

المشادة بين الوفد النبوي وبني قريظة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجُوا حَتَّى أَتَوْهُمْ، فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ، فِيمَا نَالُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: **مَنْ رَسُولُ اللهِ؟ لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ**، فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ وَشَاتَمُوهُ، وَكَانَ رَجُلًا فِيهِ حِدَّةٌ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ: **دَعْ عَنْكَ مُشَاتَمَتَهُمْ، فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى** (أعظم) **مِنَ المُشَاتَمَةِ**. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٢].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ وَجَدُوا القَوْمَ قَدْ نَقَضُوا العَهْدَ، فَنَاشَدُوهُمُ اللهَ وَالعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِمَ الأَمْرُ، وَأَلَّا يُطِيعُوا حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ.

فَقَالَ كَعْبٌ: **لا نَرُدُّهُ أَبَدًا، قَدْ قَطَعْتُهُ كَمَا قَطَعْتُ هَذَا القِبَالَ لِقِبَالِ نَعْلِهِ**، وَوَقَعَ كَعْبٌ بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ يَسُبُّهُ، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ: **تَسُبُّ سَيِّدَكَ يَا عَدُوَّ اللهِ؟ مَا أَنْتَ لَهُ بِكُفْءٍ، أَمَا وَاللهِ يَا ابْنَ اليَهُودِ، لَتُوَلِّيَنَّ قُرَيْشٌ - إِنْ شَاءَ اللهُ - مُنْهَزِمَةً وَتَتْرُكُكَ فِي عُقْرِ دَارِكَ، فَنَسِيرُ إِلَيْكَ فَتَنْزِلُ مِنْ جُحْرِكَ هَذَا عَلَى حُكْمِنَا، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ النَّضِيرَ كَانُوا أَعَزَّ مِنْكَ وَأَعْظَمَ بِهَذِهِ البَلْدَةِ، دِينُكَ نِصْفُ دِينِهِمْ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَا صَنَعَ اللهُ بِهِمْ، وَقَبْلَ ذَلِكَ بَنُو قَيْنُقَاعَ، نَزَلُوا عَلَى حُكْمِنَا**.

قَالَ كَعْبٌ: **يَا ابْنَ الحُضَيْرِ تُخَوِّفُونَنِي بِالمَسِيرِ إِلَيَّ؟ أَمَا وَالتَّوْرَاةِ، لَقَدْ رَآنِي أَبُوكَ يَوْمَ بُعَاثَ - لَوْلا نَحْنُ لأَجْلَتْهُ الخَزْرَجُ مِنْهَا، إِنَّكُمْ وَاللهِ مَا لَقِيتُمْ أَحَدًا يُحْسِنُ القِتَالَ، وَلا يَعْرِفُهُ نَحْنُ وَاللهِ نُحْسِنُ قِتَالَكُمْ**، وَنَالُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمِنَ المُسْلِمِينَ أَقْبَحَ الكَلَامِ، وَشَتَمُوا سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ﷺ شَتْمًا قَبِيحًا حَتَّى أَغْضَبُوهُ.

---

(١) قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، وَسَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ، وَخَوَّاتَ بْنَ جُبَيْرٍ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ. قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: وَالأَوَّلُ أَثْبَتُ عِنْدَنَا. المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٩.

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ: **دَعْهُمْ فَإِنَّا لَمْ نَأْتِ لِهَذَا، مَا بَيْنَنَا أَشَدُّ مِنَ الْمُشَاتَمَةِ ـ السَّيْفُ.**

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٨].

سعد بن معاذ ﷺ ينصح حلفاءه من اليهود:

لقد توجه سعد بن معاذ ﷺ إلى حلفائه (في محاولة أخيرة) ناصحًا إياهم بالرجوع عن غيهم ومحذرهم العواقب المخيفة التي ستترتب على إصرارهم على نقض العهد.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَكَانَ الَّذِي يَشْتُمُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ﷺ نَبَّاشُ بْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ: **عَضِضْتَ بِبَظْرِ أُمِّكَ** (البظر: لحمة بين شفري المرأة، وهي الغلفة التي تقطع في الختان، والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض الذم فيقولون: امصص بظر أمك. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٣/ ١٨٩)، فَانْتَفَضَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ غَضَبًا، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ: **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ بَنِي النَّضِيرِ.**

قَالَ غَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلٍ: **أَكَلْتَ أَيْرَ أَبِيكَ** (أي ذَكَرُه)، قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ: **غَيْرَ هَذَا الْقَوْلِ أَحْسَنَ مِنْهُ.**

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٩].

فتمادى بنو قريظة في غيهم وصاروا ينالون من النبي ﷺ ويقعون فيه، وهنا يئس سعد بن معاذ ﷺ من عودة حلفائه إلى جادة الصواب، فعاد الوفد الإسلامي يحمل إلى النبي ﷺ تأكيد غدر اليهود ونقضهم العهد.

كلمة السر بين النبي ﷺ والوفد:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: ثُمَّ رَجَعُوا [سَعْدٌ وَسَعْدٌ وَمَنْ مَعَهُمَا] إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ: **عَضَلٌ وَالْقَارَةُ**، وَسَكَتَ الرَّجُلانِ ـ يُرِيدُ بِعَضَلَ وَالْقَارَةَ غَدْرَهُمْ بِخُبَيْبٍ ﷺ وَأَصْحَابِ الرَّجِيعِ ـ ثُمَّ جَلَسُوا، فَكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: «**أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**»، وَانْتَهَى الْخَبَرُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ بِنَقْضِ بَنِي قُرَيْظَةَ الْعَهْدَ فَاشْتَدَّ الْخَوْفُ وَعَظُمَ الْبَلاءُ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٩، السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢١-٢٢٢].

المبحث الثالث
الموقف بعد نقض اليهود العهد

المسلمون في الموقف الحرج:

يقول أ/ الشامي: «لم يكن نقض العهد من قبل قريظة بالأمر الهين، إنه يعني وجود منفذ لقوات العدو يمكنها أن تعبر منه إلى المدينة، كما يعني انشغال قسم من قوات المسلمين في جبهة كانت موصدة مما يضطر المسلمين إلى تخفيف الحماية التي تحرس الخندق لتأمين المواجهة مع قريظة، وهذا ما يسهل ردم جزء من الخندق لانشغال المسلمين والعبور منه، وهكذا يصل المشركون إلى ما خططوا له...».

[من معين السيرة للشامي ٣٠٠-٣٠١].

النشاط العسكري للأحزاب:

يقول الشيخ الغزالي: «ووجم المسلمون حين عادت رسلهم تحمل هذه الأنباء المقلقة، ورَبت مشاعر الكره في صدورهم لأولئك اليهود؛ حتى لأصبحوا أشوه أمام أعينهم من عُبَّاد الأصنام، ووعوا أتم الوعي أن بني إسرائيل أقدموا على قرارهم هذا وهم يعلمون معناه وعقباه، يعلمون أنه محاولة متعمدة للإجهاز على هذه الأمة ودينها، وتسليمها إلى من يقتل رجالها، ويسترق نساءها، ويبيع ذراريها في الأسواق». [فقه السيرة للغزالي ٣١١].

ويقول د/ هيكل: «رجع رسل محمد ﷺ إليه بما رأوا، هنالك عظم البلاء واشتد الخوف، ورأى أهل المدينة طريق قريظة وقد فُتح للأحزاب فدخلوا عليهم واستأصلوهم، ولم يكن ذلك محض خيال ووهم، فهم رأوا قريظة تقطع المدد والميرة عنهم، ورأوا قريشًا وغطفان ـ منذ عاد حيي بن أخطب ينبئهم بانضمام قريظة إليهم ـ قد تغيرت نفسيتهم وأخذوا يعدون أنفسهم للقتال، وذلك أن قريظة استمهلت الأحزاب عشرة أيام تعد فيها عدتها على أن تقاتل الأحزابُ المسلمين في هذه الأيام العشرة أشد القتال، وذلك ما فعلوا، فقد ألفوا ثلاث كتائب لمحاربة النبي ﷺ، فأتت كتيبة ابن الأعور السلمي من فوق الوادي، وأتت كتيبة عيينة بن حصن من الجنب، ونصب له أبو سفيان من قبل الخندق». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٣].

ويقول أ/ دويدار: «رجع حيي بن أخطب إلى جماعة المشركين يخبرهم بما تم له من حَمْل بني قريظة على الغدر بالمسلمين، فانتعشوا ونشطوا، وقويت روحهم المعنوية، وأعظموا نيرانهم مبالغة في تخويف المسلمين وإضعافًا لروحهم، وكان بنو قريظة قد طلبوا إلى حيي بن أخطب أن يدع لهم مهلة عشرة أيام يستعدون فيها، على أن تشتد كتائب الأحزاب في مناوشة المسلمين خلال هذه المدة، حتى يشغلوهم عن بني قريظة، فكثرت مناوشات الأحزاب، واشتدت مناوأتهم للمسلمين حتى أرهقوهم».

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ١٨٤-١٨٥].

ويقول أ/ باشميل: «لقد كان نشاط الأحزاب العسكري ـ قبل أن تنقض قريظة العهد الذي بينها وبين المسلمين ـ فاترًا إلى حد ما، فلم يكن هناك من عمل عسكري يُذكر سوى الطواف بالخيل للاستكشاف والإزعاج والإرهاب؛ لأن المشركين قد قطعوا الأمل في عبور الخندق بأعداد كبيرة تمكنهم من الالتحام في معركة فاصلة مع جيش المدينة؛ لأن هذا الجيش قد أصبح بأكمله يقوم بأعمال الدورية وحراسة مشارف الخندق.

ولكن لما تلقت الأحزاب (رسميًّا) انضمام يهود بني قريظة إليهم ازداد نشاطهم العسكري وصاروا يضاعفون من جولاتهم وتحفزاتهم الجدية حول الخندق حيث عاد إليهم الأمل في اقتحام مواقع المسلمين وراء الخندق بأعداد كبيرة بسهولة.

ذلك أن انضمام قريظة سيجبر أكثرية الجيش الإسلامي على ترك مواقعه التي يرابط فيها لحراسة مشارف الخندق، وإذا ما قامت القوات اليهودية ـ التي ليس بينها وبين المسلمين أي حاجز من خندق أو غيره ـ بالهجوم على معسكر المسلمين من الخلف كما هو المتفق عليه بين قادة قريش وغطفان وبين اليهود، فسيؤدي ذلك إلى إشغال عدد كبير من قوات المسلمين.

تدهور الحالة عند المسلمين:

لقد كان موقف القوات الإسلامية منذ وصول جيش الأحزاب ـ وقبل نقض اليهود العهد ـ موقفًا حرجًا (دونما شك)؛ لأنه مهما يُقال عن مناعة خط الدفاع الأول (الخندق) ومهما يمتاز به المسلمون من شجاعة وثبات وإقدام فإن وجود تسعمائة مقاتل من هؤلاء المسلمين أمام عشرة آلاف مقاتل كلهم غيظ وحقد على المسلمين، يتحفزون لابتلاعهم، كما يتحفز البحر الهادر المحيط بالجزيرة الصغيرة جدًّا لابتلاعها ـ هو أمر من الخطورة بحيث يجعل مركز قوة المسلمين الصغيرة من الحراجة بمكان يقض مضاجع القيادة المسؤولة عن هذه القوة ويجعلها في مركز حرج للغاية.

غير أن انضمام يهود بني قريظة إلى معسكر الأحزاب قد عقَّد الوضع داخل المعسكر الإسلامي وجعل الحالة فيه تسير من سيء إلى أسوأ.

بلغت الحالة أعلى درجات الحراجة والتأزم، فأصبح مصير الكيان الإسلامي كله في مهب العاصفة.

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٦٧-١٦٨].

«ألا ويل لليهود! ما كان أجدر محمدًا ﷺ بأن يقضي على بني النضير وأن يستأصلهم بدل أن يذرهم يرتحلون موفورين، وأن يذر حيبًا والذين معه يؤلبون العرب على المسلمين ليستأصلوهم، ألا إنها الطامة الكبرى والفزع الأكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله!». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٤].

حراسة المدينة من هجوم بني قريظة:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنِ الحَارِثِ بْنِ الفُضَيْلِ قَالَ: هَمَّتْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَى بَيْضَةِ المَدِينَةِ لَيْلًا، فَأَرْسَلُوا حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ إِلَى قُرَيْشٍ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْهُمْ أَلْفُ رَجُلٍ وَمِنْ غَطَفَانَ أَلْفٌ فَيُغِيرُوا بِهِمْ، فَجَاءَ رَسُولَ اللهِ ﷺ الخَبَرُ بِذَلِكَ فَعَظُمَ البَلاءُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبْعَثُ سَلَمَةَ بْنَ أَسْلَمَ بْنِ حَرِيشٍ الأَشْهَلِيَّ فِي مِائَتَيْ رَجُلٍ وَزَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فِي ثَلاثِمِائَةٍ يَحْرُسُونَ المَدِينَةَ، وَيُظْهِرُونَ التَّكْبِيرَ وَمَعَهُمْ خَيْلُ المُسْلِمِينَ فَإِذَا أَصْبَحُوا أَمِنُوا.

فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ يَقُولُ: **لَقَدْ خِفْنَا عَلَى الذَّرَارِيِّ بِالمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَشَدَّ مِنْ خَوْفِنَا مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ، وَلَقَدْ كُنْتُ أُوفِي عَلَى سَلْعٍ فَأَنْظُرُ إِلَى بُيُوتِ المَدِينَةِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُمْ هَادِينَ حَمِدْتُ اللهَ ﷻ، فَكَانَ مِمَّا رَدَّ اللهُ بِهِ قُرَيْظَةَ عَمَّا أَرَادُوا أَنَّ المَدِينَةَ كَانَتْ تُحْرَسُ.** [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٠].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ الحَارِثِ، عَنْ أَبِي عَتِيقٍ، عَنْ جَابِرٍ، وَحَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِقْسَمٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: كَانَ خَوْفُنَا عَلَى الذَّرَارِيِّ بِالمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَشَدَّ مِنْ خَوْفِنَا مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى فَرَّجَ اللهُ ذَلِكَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٨].

خَوَّات بن جبير ﷺ في مهمة خاصة:

عَنْ عِكْرِمَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «بَعَثَ خَوَّاتَ بْنَ جُبَيْرٍ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى فَرَسٍ يُقَالُ لَهُ جَنَاحٌ».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٨ في المغازي (٣٧٩٨٠)، وقال الشيخ عوامة: «هذا مرسل، رجاله ثقات»].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ خَوَّاتٍ، عَنِ ابْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ خَوَّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ: دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ مُحَاصِرُو الخَنْدَقِ، فَقَالَ: «**انْطَلِقْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَانْظُرْ هَل تَرَى لَهُمْ غِرَّةً أَوْ خَلَلًا مِنْ مَوْضِعٍ فَتُخْبِرُنِي**».

قَالَ: فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَتَدَلَّيْتُ مِنْ سَلْعٍ وَغَرَبَتْ لِي الشَّمْسُ فَصَلَّيْتُ المَغْرِبَ، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى أَخَذْتُ فِي رَاتِجٍ، ثُمَّ عَلَى عَبْدِ الأَشْهَلِ، ثُمَّ فِي زُهْرَةَ، ثُمَّ عَلَى بُعَاثَ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنَ القَوْمِ قُلْتُ: أَكْمُنُ لَهُمْ، فَكَمَنْتُ وَرَمَقْتُ الحُصُونَ سَاعَةً، ثُمَّ ذَهَبَ بِي النَّوْمُ فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا بِرَجُلٍ قَدْ احْتَمَلَنِي وَأَنَا نَائِمٌ فَوَضَعَنِي عَلَى عُنُقِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَمْشِي، قَالَ: فَفَزِعْتُ وَرَجُلٌ يَمْشِي بِي عَلَى عَاتِقِهِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ طَلِيعَةٌ مِنْ قُرَيْظَةَ، وَاسْتَحْيَيْتُ تِلكَ السَّاعَةَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِيَاءً شَدِيدًا، حَيْثُ ضَيَّعْتُ ثَغْرًا أَمَرَنِي بِهِ، ثُمَّ ذَكَرْتُ غَلَبَةَ النَّوْمِ.

قَالَ: وَالرَّجُلُ يُرْقَلُ (يسرع) بِي إِلَى حُصُونِهِمْ فَتَكَلَّمَ بِاليَهُودِيَّةِ فَعَرَفْتُهُ، قَالَ: أَبْشِرْ بِجَزْرَةٍ سَمِينَةٍ، قَالَ: وَذَكَرْتُ وَجَعَلْتُ أَضْرِبُ بِيَدِي - وَعَهْدِي بِهِمْ لا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ أَبَدًا إِلَّا بِمِعْوَلٍ فِي وَسَطِهِ، قَالَ: فَأَضَعُ

يَدِي عَلَى المِعْوَلِ فَأَنْتَزِعُهُ، وَشُغِلَ بِكَلامِ رَجُلٍ مِنْ فَوْقِ الحِصْنِ فَانْتَزَعْتُهُ فَوَجَأْتُ بِهِ كَبِدَهُ، فَاسْتَرْخَى وَصَاحَ: السَّبْعُ، فَأَوْقَدَتْ اليَهُودُ النَّارَ عَلَى آطَامِهَا بِشُعَلِ السَّعَفِ، وَوَقَعَ مَيِّتًا وَانْكَشَفَ، فَكُنْتُ لا أُدْرَكُ، وَأَقْبَلَ مِنْ طَرِيقِي الَّتِي جِئْتُ مِنْهَا.

وَجَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ظَفِرْتَ يَا خَوَّاتُ**»، ثُمَّ خَرَجَ فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: «**كَانَ مِنْ أَمْرِ خَوَّاتٍ كَذَا وَكَذَا**»، وَآتِي رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: «**أَفْلَحَ وَجْهُكَ**»، قُلْتُ: وَوَجْهُكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**أَخْبِرْنِي خَبَرَكَ**» فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَكَذَا أَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ**».

وَقَالَ القَوْمُ: هَكَذَا حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ خَوَّاتٌ: **فَكَانَ لَيْلُنَا بِالخَنْدَقِ نَهَارًا**.

قَالَ غَيْرُ صَالِحٍ: قَالَ خَوَّاتٌ: رَأَيْتُنِي وَأَنَا أَتَذَكَّرُ سُوءَ أَثَرِي عِنْدَهُمْ بَعْدَ مُمَالَحَةٍ وَخِلْصِيَّةٍ (مالحت فلانًا ممالحة: المماحلة المواكلة. وفلان يحفظ حرمة المالحة وهي الرضاع. تاج العروس (ملح). والخلصية أراها بمعنى الإخلاص والمعاملة الحسنة بينهم، ولم أجد معناها الآن) مِنِّي لَهُمْ، فَقُلْتُ: هُمْ يُمَثِّلُونَ بِي كُلَّ المَثْلَ حَتَّى ذَكَرْتُ المِعْوَلَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٠-٤٦٢].

المناوشات العسكرية مع اليهود:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَكَانَ هِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ يَقُولُ: أَقْبَلْتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِي وَبَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَقَدْ نَكَبْنَا عَنِ الجِسْرِ وَصَفْنَةَ (منزلة بني عطية بن زائدة) فَأَخَذْنَا عَلَى قُبَاءَ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِعَوْسَا (موضع بوادي رانونا) إِذَا نَفَرٌ مِنْهُمْ فِيهِمْ نَبَّاشُ بْنُ قَيْسٍ القُرَظِيُّ، فَنَضَحُونَا بِالنَّبْلِ سَاعَةً وَرَمَيْنَاهُمْ بِالنَّبْلِ، وَكَانَتْ بَيْنَنَا جِرَاحَةٌ، ثُمَّ انْكَشَفُوا عَلَى حَامِيَتِهِمْ، وَرَجَعْنَا إِلَى أَهْلِنَا، فَلَمْ نَرَ لَهُمْ جَمْعًا بَعْدُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥١].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: خَرَجَ نَبَّاشُ بْنُ قَيْسٍ لَيْلَةً مِنْ حِصْنِهِمْ يُرِيدُ المَدِينَةَ، وَمَعَهُ عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ مِنْ أَشِدَّائِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: **عَسَى أَنْ نُصِيبَ مِنْهُمْ غِرَّةً**، فَانْتَهَوْا إِلَى بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَيَجِدُونَ نَفَرًا مِنَ المُسْلِمِينَ مِنْ أَصْحَابِ سَلَمَةَ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ حَرِيشٍ ﷺ فَنَاهَضُوهُمْ فَرَامُوهُمْ سَاعَةً بِالنَّبْلِ ثُمَّ انْكَشَفَ القُرَيْظِيُّونَ مُوَلِّينَ.

وَبَلَغَ سَلَمَةَ بْنَ أَسْلَمَ ﷺ وَهُمْ بِنَاحِيَةِ بَنِي حَارِثَةَ، فَأَقْبَلَ فِي أَصْحَابِهِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى حُصُونِهِمْ فَجَعَلُوا يُطِيفُونَ بِحُصُونِهِمْ حَتَّى خَافَتْ اليَهُودُ، وَأَوْقَدُوا النِّيرَانَ عَلَى آطَامِهِمْ وَقَالُوا: البَيَاتَ، وَهَدَمُوا قَرْنَيْ بِئْرٍ (**القرنان**: منارتان تبنيان على رأس البئر، ويوضع فوقهما خشبة فتعلق البكرة فيها. الصحاح ص ٢١٨٠) لَهُمْ وَهَوَّرُوهَا (هدموها) عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا يَطْلُعُوا مِنْ حِصْنِهِمْ وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٢].

قريظة تتحرش بحصون نساء المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «ولقد أدركت قيادة الأحزاب ما يعانيه المسلمون من شدة وضيق وكرب وخوف، نتيجة تنظيمات الحصار الجديدة، فشددوا من ضغطهم وضاعفوا من نشاطهم، وأعطوا الإشارة ليهود بني قريظة بأن يبدؤوا التحرش بالمسلمين من الخلف، فيشغلوهم ويقلقوهم بالإغارة على الحصون التي قد جمعت القيادة الإسلامية فيها النساء والذراري عند إخلاء المدينة، وأن يكونوا على أتم الاستعداد ليقوموا ـ ساعة الصفر ـ بالهجوم العام على مواقع المسلمين وراء الخندق.

وقد نفذ اليهود ما طلب الأحزاب منهم، فصاروا يلقون المسلمين ويشوشون عليهم ـ مع ما هم فيه من كرب وبلاء ـ وبالإغارة على الحصون والآطام التي وضع المسلمون فيها نساءهم وأطفالهم.

ولا شيء أقلق لبال الإنسان من علمه بأن زوجته وأبناءه وبناته في خطر، ومهددون بأن يسبيهم العدو، ويأخذهم أسرى.

وهذا هو الذي قصد إليه العدو عندما أوحى إلى يهود بني قريظة بالهجوم على الحصون والآطام التي يتحصن فيها نساء المسلمين وأطفالهم، ولقد قام اليهود ـ فعلًا ـ بالإغارة على هذه الحصون والآطام.

هجوم اليهود على النساء:

فقد قام اليهود ـ في تلك الساعات الرهيبة من ليالي الأحزاب ـ بعدة محاولات للهجوم على تلك الحصون التي يعتصم بها النساء والأطفال.

ولما كانت الحصون ـ إياها ـ ليست بعيدة عن مواقع الجيش الإسلامي وراء الخندق، فإن المسلمين لم يتركوا حرسًا دائمًا خاصًّا يحرس هذه الحصون؛ لأن دوريات المسلمين تطوف باستمرار داخل المدينة وخاصة في الليل.

ولكن القيادة أوصت النساء أن يحركن السيوف في رأس الحصن إذا ما تعرضن لخطر الهجوم من قبل العدو، كإشارة لطلب النجدة، ليسارع المسلمون إلى نجدتهن». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٠٣-٢٠٤].

عَنْ رَافِعِ بن خَدِيجٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الخَنْدَقِ لَمْ يَكُنْ حِصْنٌ أَحْصَنَ مِنْ حِصْنِ بني حَارِثٍ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ وَالذَّرَارِيَّ فِيهِ، فَقَالَ: «**إِنْ أَلَمَّ بِكُنَّ أَحَدٌ فَأَلْمِعْنَ بِالسَّيْفِ**»، فَجَاءَهُنَّ رَجُلٌ مِنْ بني ثَعْلَبَةَ بن سَعْدٍ يُقَالُ لَهُ: بُجْدَانُ أَحَدُ بني جَحَّاشٍ عَلَى فَرَسٍ، حَتَّى كَانَ فِي أَصْلِ الحِصْنِ، ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ لِلنِّسَاءِ: **انْزِلْنَ إِلَيَّ خَيْرٌ لَكُنَّ**، فَحَرَّكْنَ السَّيْفَ، فَأَبْصَرَهُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، فَابْتَدَرَ الحِصْنَ قَوْمٌ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ بني حَارِثَةَ، يُقَالُ لَهُ: ظُهَيْرُ بن رَافِعٍ، فَقَالَ: يَا بُجْدَانُ أَبْرِزْ فَبَرَزَ إِلَيْهِ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَرَسُهُ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ رَأْسَهُ، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. [مجمع الزوائد ٦/ ١٩٣ في المغازي والسير (١٠١٤٤)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٤/ ٢٦٨ رقم ٤٣٧٨] ورجاله ثقات. وقد رواه ابن جرير في تاريخه بسنده من طريق ابن إسحاق. تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٧٠- ٥٧١].

محاولة اليهود الهجوم على نساء النبي ﷺ:

ولم يكتف اليهود بمحاولة الهجوم على نساء الصحابة في الحصون ومحاولة سبيهن، بل حاولوا الهجوم على نساء النبي ﷺ وعلى من معهن من النساء في حصن آخر، بغية إزعاج المسلمين وإقلاقهم والتشويش عليهم، وهم يواجهون قوات الأحزاب الرئيسة على مشارف الخندق.

عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، خَرَجَ إِلَى الخَنْدَقِ (وفي البزار: أُحُد) فَجَعَلَ نِسَاءَهُ وَعَمَّتَهُ صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي أُطُمٍ يُقَالُ لَهُ: فَارِعٌ، وَجَعَلَ مَعَهُمْ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ ﷺ، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ، فَيَرْقَى يَهُودِيٌّ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى نِسَاءِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَى عَمَّتِهِ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ: **يَا حَسَّانُ قُمْ إِلَيْهِ حَتَّى تَقْتُلَهُ**، قَالَ: **لاَ وَالله، مَا ذَاكَ فِيَّ، وَلَوْ كَانَ ذَاكَ فِيَّ لَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ**، قَالَتْ صَفِيَّةُ: **فَارْبُطِ السَّيْفَ عَلَى ذِرَاعِي**، قَالَ: ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ حَتَّى قَتَلَتْهُ وَقَطَعَتْ رَأْسَهُ، فَقَالَتْ لَهُ: **خُذِ الرَّأْسَ فَارْمِ بِهِ عَلَى اليَهُودِ**، قَالَ: **مَا ذَاكَ فِيَّ**، فَأَخَذَتْ هِيَ الرَّأْسَ فَرَمَتْ بِهِ عَلَى اليَهُودِ، فَقَالَتِ اليَهُودُ: **قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ يَتْرُكُ أَهْلَهُ خُلُوفًا، لَيْسَ مَعَهُمْ أَحَدٌ**، فَتَفَرَّقُوا وَذَهَبُوا.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَرَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ، وَهُوَ يَقُولُ:

مَهْلًا قَلِيلًا يُدْرِكُ الهَيْجَا حَمَلْ ... لاَ بَأْسَ بِهِ بِالمَوْتِ إِذَا حَانَ الأَجَلْ

قَالَتْ: وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَجْمَلَ مِنْهُ ذَلِكَ اليَوْمَ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ دِرْعٌ مُقَلَّصَةٌ، وَقَدْ تَزَوَّجَ فَبَنَى بِأَهْلِهِ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ، فَعَلَيْهِ أَثَرُ زَعْفَرَانَ.

قَالَ: وَكَانَ حَسَّانُ ﷺ إِذَا شَدَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الكُفَّارِ يَفْتَحُ الأُطُمَ، وَإِذَا كَرُّوا رَجَعَ مَعَهُمْ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٣ في المغازي والسير (١٠١٤٥)، وقال الهيثمي: رواه البزار [مسند البزار ٣/ ١٩١ رقم ٩٧٨]، وأبو يعلى باختصار [مسند أبي يعلى ٧/ ٢٦٤ رقم ٤٢٧٧]، وقال: فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فضرب لصفية بسهم كما كان يضرب للرجال، وإسنادهما ضعيف، وقد تقدم الحديث من رواية صفية في وقعة أحد. إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ٥/ ٢٣٢ في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ (٤٥٨٨)، وقال محققه: قال في المختصر (٧/ ٢٩-٣٠ رقم ٥٢٣٨): رواه البزار، وإسناده حسن].

وقد رواها الطبراني عن صفية ﷺ، ولكنه جعلها في غزوة أحد، وهي نفس أحداث الرواية السابقة، فقال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، ثنا إِسْحَاقُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْفَرْوِيُّ، حَدَّثَتْنَا [حَدَّثَتْنِي] أُمُّ عُرْوَةَ بِنْتُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهَا، عَنْ جَدَّتِهَا صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ، «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَـمَّا خَرَجَ إِلَى أُحُدٍ جَعَلَ نِسَاءَهُ فِي أُطُمٍ يُقَالُ لَهُ: فَارِعٌ، وَجَعَلَ مَعَهُنَّ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ، فَكَانَ حَسَّانُ ﷺ يَطْلُعُ عَلَى [إِلَى] النَّبِيِّ ﷺ: فَإِذَا شَدَّ [اشْتَدَّ] عَلَى الْمُشْرِكِينَ أَشَدَّ [اشْتَدَّ] مَعَهُ [وَهُوَ] فِي الْحِصْنِ، وَإِذَا رَجَعَ رَجَعَ

وَرَاءَهُ، قَالَتْ: فَجَاءَ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ فَتَرَقَّى [فَرَقَى] أَحَدُهُمْ فِي الْحِصْنِ حَتَّى أَطَلَّ الْحِصْنَ عَلَيْنَا، فَقُلْتُ لِحَسَّانَ: **قُمْ إِلَيْهِ فَاقْتُلْهُ**، فَقَالَ: **مَا ذَاكَ فِيَّ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فِيَّ لَكُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ**، فَضَرَبَتْ صَفِيَّةُ رَأْسَهُ حَتَّى قَطَعَتْهُ [قَالَتْ صَفِيَّةُ: فَضَرَبْتُ رَأْسَهُ حَتَّى قَطَعْتُهُ]، فَلَمَّا قَطَعَتْهُ [قَطَعْتُهُ، قُلْتُ:]، قَالَتْ: **يَا حَسَّانُ، قُمْ إِلَى رَأْسِهِ فَارْمِ بِهِ إِلَيْهِمْ وَهُمْ مِنْ أَسْفَلِ الْحِصْنِ**، فَقَالَ: **وَاللهِ مَا ذَاكَ فِيَّ**، قَالَتْ: **فَأَخَذْتُ بِرَأْسِهِ فَرَمَيْتُهُ عَلَيْهِمْ**، فَقَالُوا: **قَدْ وَاللهِ عَلِمْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ [يَكُنْ] يَتْرُكْ أَهْلَهُ خُلُوفًا، لَيْسَ مَعَهُمْ أَحَدٌ**، وتَفَرَّقُوا، وَذَهَبُوا، قَالَتْ: وَمَرَّ [بِنَا] قَبْلَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَبِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ كَأَنَّهُ كَانَ مُعَرِّسًا قَبْلَ ذَلِكَ، وَهُوَ [يَرْتَجِزُ و] يَقُولُ:

مَهْلًا قَلِيلًا تَلْحَقِ [يَلْحَقُ] الْهَيْجَا جَمَلْ [جَمَلْ] لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ [كَانَ] الْأَجَلْ

[مجمع الزوائد ٦/ ١٦٥ رقم ١٠٠٨٦، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير [٢٤/ ٣٢١ رقم ٨٠٩]، والأوسط [٤/ ١١٦ رقم ٣٧٥٤]، من طريق أم عروة بنت جعفر بن الزبير عن أبيها ولم أعرفها، وبقية رجاله ثقات].

قال ابن عساكر: قوله: «يوم أحد» وَهْمٌ، إنما كان ذلك يوم الخندق، كما روي من وجه آخر عن صفية.

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي، أنا أبو عاصم بن الحسن، أنا أبو عمر بن مهدي، أنا أبو العباس أحمد بن حمد بن عبدة، نا أحمد بن يحيى الصوفي، نا عبد الرحمن بن شريك، نا أبي، نا محمد بن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد بن الزبير عن أبيه عن صفية بنت عبد المطلب ﵂ أنها قالت: كنا مع حسان بن ثابت في حصن فارع والنبي ﷺ بالخندق فإذا يهودي يطوف بالحصن، فخفنا أن يدل على عورتنا، فقلت لحسان: **لو نزلت إلى هذا اليهودي فإني أخاف أن يدل على عورتنا**، فقال: **يا بنت عبد المطلب لقد علمت ما أنا بصاحب هذا**، قالت: فتحزمت، ثم نزلت فأخذت عمودًا فقتلته، ثم قالت لحسان: اخرج فاسلبه، قال: لا حاجة لي في سلبه.

وروي من وجه آخر عن يحيى ولم يذكر صفية في إسناده،... [تاريخ دمشق لابن عساكر ١٢/ ٤٣٠-٤٣٣].

وعَنْ عُرْوَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَدْخَلَ النِّسَاءَ [نِسَاءَهُ] يَوْمَ الأَحْزَابِ أُطُمًا مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ، وَكَانَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﵁ رَجُلًا جَبَانًا [جَوَادًا]، فَأَدْخَلَهُ مَعَ النِّسَاءِ، وَأَغْلَقَ البَابَ، فَجَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَعَدَ عَلَى بَابِ الأُطُمِ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ بنتُ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ: **انْزِلْ حَسَّانُ إِلَى هَذَا العِلْجِ** (بالكسر العَيْرُ، والحِمارُ، وحِمارُ الوَحْشِ السَّمينُ القَوِيُّ، والرَّغِيفُ الغَليظُ الحَرْفِ، والرَّجُلُ من كُفَّارِ العَجَمِ، ج عُلُوجٌ وأعْلاجٌ ومَعْلوجاءُ وعِلَجَةٌ) **فَاقْتُلْهُ**، فَقَالَ: **مَا كُنْتُ لأَجْعَلَ نَفْسِي خَطَرًا لِهَذَا العِلْجِ**، فَائْتَزَرَتْ بِكِسَاءٍ وَأَخَذَتْ فِهْرًا (بالكسر الحَجَرُ قَدْرَ ما يُدَقُّ به الجَوْزُ، أو ما يَمْلَأُ الكَفَّ، ويُؤَنَّثُ ج أفْهارٌ وفُهُورٌ)، فَنَزَلَتْ إِلَيْهِ، فَقَطَعَتْ رَأْسَهُ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤ في المغازي والسير (١٠١٤٦)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٤/ ٣١٩ رقم ٨٠٤] ورجاله إلى عروة رجال الصحيح ولكنه مرسل، وينظر للتفصيل: غزوتا الأحزاب وبني قريظة في ضوء الآيات القرآنية والروايات الحديثية للجبوري ١٥٦-١٥٩].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَحَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ قُرَيْشٍ، قَالَ ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ وَابْنُ جَعْفَرٍ: كَانَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَجُلًا جَبَانًا، فَكَانَ قَدْ رُفِعَ مَعَ النِّسَاءِ فِي الآطَامِ فَكَانَتْ صَفِيَّةُ فِي أُطُمٍ فَارِعٍ، وَمَعَهَا جَمَاعَةٌ وَحَسَّانُ مَعَهُمْ، فَأَقْبَلَ عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، وَرَأْسُهُمْ غَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ نَهَارًا، فَجَعَلُوا يَنْقَمِعُونَ (يدخلون) وَيَرْمُونَ الحِصْنَ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ لِحَسَّانَ: **دُونَك يَا أَبَا الوَلِيدِ**، قَالَ: **لا وَالله لا أُعَرِّضُ نَفْسِي لِهَؤُلاءِ اليَهُودِ**، وَدَنَا أَحَدُهُمْ إِلَى بَابِ الحِصْنِ يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ فَاحْتَجَزَتْ صَفِيَّةُ بِثَوْبِهَا، ثُمَّ أَخَذَتْ خَشَبَةً فَنَزَلَتْ إِلَيْهِ فَضَرَبَتْهُ ضَرْبَةً شَدَخَتْ رَأْسَهُ فَقَتَلَتْهُ، فَهَرَبَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٢-٤٦٣].

يقول أ/ باشميل: «وهكذا أقلق اليهود المسلمين بتحرشهم بالنساء والذراري، وزادوا من متاعبهم وضاعفوا من بلائهم، ولا شيء أشغل لبال الإنسان من أن تتعرض زوجته وأبناؤه وبناته لخطر السبي والأسر.

ولهذا اضطر المسلمون إلى أن يضاعفوا من قوات الحراسة لحماية نسائهم وأطفالهم من اليهود مما أنقص عدد قواتهم الرئيسة المرابطة على مشارف الخندق لمواجهة الأحزاب.

وشعر المشركون بالنقص الملموس في قوات المسلمين المواجهة لهم على الخندق، فاغتنموا الفرصة، فأطبقوا عليهم من كل ناحية وأشغلوهم إلى درجة الإرهاق والإعياء، وإلى درجة أنهم لم يتركوا لهم فرصة يستريحون فيها أو حتى يؤدون فيها فريضة الصلاة، إذ أجبروهم على المرابطة (ليلًا ونهارًا) على مشارف الخندق في حالة تعبئة لا يفارقهم السلاح.

فصار فرسان الأحزاب يطوفون (في استفزاز متزايد مرعدين ومبرقين) حول الخندق ويتجمعون بأعداد كبيرة حول المضائق طيلة ساعات الليل والنهار وبصورة مزعجة مخيفة لم يسبق لها مثيل مما أجبر المسلمين على البقاء في أسلحتهم مرابطين بصفة دائمة ليلًا ونهارًا على مشارف الخندق وخاصة النقط التي هي مظنة لأن يقتحمها سلاح فرسان الأحزاب، وضاعف المسلمون من نشاط دورياتهم التي أضناها (لقلة رجالها) الطواف المتواصل حول الخندق بصفة متعبة للغاية». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٠٦-٢٠٧].

بلوغ القلوب الحناجر:

يقول أ/ باشميل: «ولقد تحدث القرآن الكريم عن حالة الحرج والتدهور هذه ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع وخوف وفزع في تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف، حيث قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب]، فقد عظم البلاء على المسلمين وتضاعف الابتلاء، واشتد الخوف وانتاب الفزع كل القلوب (تقريبًا)، وبلغ الجزع بأفراد الجيش الصغير

(كما حدثنا القرآن) إلى درجة الزلزال، بعد أن أصبح هذا الجيش الإسلامي الصغير ـ بعد غدر اليهود ـ بين نارين: الأحزاب من الأمام، واليهود من الخلف.

وكأن الله تعالى أراد بهذا البلاء العظيم أن يمتحن هذه الأمة الناشئة التي ستنشئ على كاهلها أعظم دولة عرفها التاريخ، ويوكل إليها مهمة نشر أشرف عقيدة عرفتها الدنيا.

فقد ظهر بهذا الامتحان العظيم الطيب من الخبيث والصادق من الكاذب.

أما المؤمنون فقد ثبتوا على إيمانهم ولم يزدهم توتر الحالة وتدهور الموقف إلا تمسكًا بدينهم والتفافًا حول نبيهم». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٦٨-١٦٩].

عَنْ عَائِشَةَ ﵂: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠﴾ [الأحزاب: ١٠]، قَالَتْ: كَانَ ذَاكَ يَوْمَ الخَنْدَقِ. [البخاري في المغازي (٤١٠٣)، ومسلم في التفسير (٣٠٢٠)].

وَعِنْدَ ابْنِ مَرْدَوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قَالَ: عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: أَبُو سُفْيَان بْن حَرْب. [فتح الباري ٧/ ٤٦٢].

ظهور النفاق داخل جيش المدينة:

يقول أ/ باشميل: «أما الذين في قلوبهم مرض والذين يسترون وراء التظاهر بالإسلام فقد كشفتهم هذه التطورات الخطيرة وظهروا ـ أمام هذا الامتحان العظيم ـ على حقيقتهم كذابين مخادعين يُظهرون ما لا يُبطنون.

فقد كانت فئات من هذا النوع الخبيث (كالطابور الخامس[1] داخل الجيش الإسلامي، يتظاهرون بالإسلام وهم ـ في حقيقتهم ـ يعملون ضد الإسلام ويتمنون زوال المسلمين، وهؤلاء هم المنافقون.

وكان ظهور هذا النوع الخبيث على حقيقته، بل وتظاهره (داخل الجيش الإسلامي) بميله نحو الأحزاب وإطلاقه الإشاعات والأراجيف ضد مقدرة المسلمين على الصمود في وجه العدو، كل ذلك ضاعف من بلاء المسلمين وجعل محنة جيش المدينة الصغيرة تستحكم حلقاتها.

ظهرت من داخل الجيش الإسلامي جماعة تناوئه وتتمرد على قيادته في تلك الساعات الحاسمة من تاريخه، وهذا من أخطر الأخطار التي تواجهها الجيوش المحاربة وتهددها بالدمار ـ حتى إن كانت ضخمة كبيرة ـ فكيف بجيش صغير تبلغ نسبة جنوده حيال أعدائه المحيطين به واحدًا لأحد عشر.

---

(١) **الطابور الخامس**، أو الرتل الخامس كما يطلق عليه في العراق، هم جماعة من الناس يكونون معك (ظاهريًا) ومع عدوك (سرًا)، وأول ما استعمل في الحرب الإسبانية الأهلية بين الوطنيين من جهة وبين الشيوعيين، وكانت النتيجة استيلاء قوة فرانكو.

لقد ظنت فئة المنافقين الموجودين داخل الجيش الإسلامي ـ وخاصة بعد غدر قريظة وانضمامها إلى الأحزاب ـ ظنت هذه الفئة أن الكيان الإسلامي أصبح قاب قوسين أو أدنى من الانهيار.

ولذلك تجرأت تلك الفئة المنافقة، وصارت ـ داخل المعسكر الإسلامي ـ تتفوه بكلمات خطيرة من شأنها إشاعة الفزع وتحطيم الروح المعنوية بين صفوف الجيش التي استحكمت عليه حلقات المحنة».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٦٩-١٧٠].

مقالة المنافقين والبشارة النبوية في شدة المحنة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَعَظُمَ عِنْدَ ذَلِكَ الْبَلَاءُ وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ، وَأَتَاهُمْ عَدُوُّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، حَتَّى ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ ظَنٍّ، وَنَجَمَ النِّفَاقُ مِنْ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، حَتَّى قَالَ مُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْرٍ، أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ: **كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَأَحَدُنَا الْيَوْمَ لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ.**

أكان مُعَتِّبٌ مُنَافِقًا؟:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَأَخْبَرَنِي مَنْ أَثِقُ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ مُعَتِّبَ بْنَ قُشَيْرٍ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَاحْتَجَّ بِأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٢، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٠٧-٢٠٩].

وعلى العموم فقد تفوه المنافقون بهذا القول المنكر، وقد أشار القرآن إلى الذين تفوهوا به فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

وهكذا كان وجود فئات المنافقين داخل الجيش الإسلامي ابتلاءً ثالثًا ابتُلي به المسلمون.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: قَالُوا: وَنَجَمَ النِّفَاقُ، وَفَشِلَ النَّاسُ، وَعَظُمَ الْبَلَاءُ، وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ، وَخِيفَ عَلَى الذَّرَارِيِّ وَالنِّسَاءِ، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ وِجَاهَ الْعَدُوِّ لَا يَسْتَطِيعُونَ الزَّوَالَ عَنْ مَكَانِهِمْ يَعْتَقِبُونَ خَنْدَقَهُمْ وَيَحْرُسُونَهُ.

وَتَكَلَّمَ قَوْمٌ بِكَلَامٍ قَبِيحٍ، فَقَالَ مُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْرٍ: **يَعِدُنَا مُحَمَّدٌ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَأَحَدُنَا لَا يَأْمَنُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى حَاجَتِهِ، وَمَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا.**

فَحَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ ابْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَآخُذَ الْمِفْتَاحَ، وَلَيُهْلِكَنَّ اللهُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَلَتُنْفَقَنَّ أَمْوَالُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، يَقُولُ ذَلِكَ حِينَ رَأَى مَا بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكَرْبِ، فَسَمِعَهُ مُعَتِّبٌ فَقَالَ مَا قَالَ. [المغازي للواقدي٢/ ٤٥٩-٤٦٠].

القوة الثالثة ضد المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «فقد كان هؤلاء المنافقون ـ بالإضافة إلى قوة الأحزاب ويهود بني قريظة ـ قوة ثالثة ضد المعسكر الإسلامي، صارت عن قصد وإصرار ـ وخاصة بعد نقض اليهود العهد ـ تقوم بأعمال تخريبية داخل صفوف المسلمين مما زاد الطين بلة كما يقولون، وضاعف من متاعب القيادة العليا في الجيش الإسلامي.

فقد صار هؤلاء المنافقون، وخاصة بعد غدر اليهود واشتداد الحالة على المسلمين، صاروا وبصورة شبه علنية يبثون روح الفزع والتخاذل واليأس داخل صفوف جيش المدينة.

انسحاب المنافقين من الجيش:

ولم تكتف فئات المنافقين بالإرجاف والسخرية من الإسلام وبث روح الانهزام بين صفوف جيش المدينة بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث أخذوا في الانسحاب والتحريض على الانسحاب من الجيش في ذلك الظرف الدقيق الذي يمر به الكيان الإسلامي كله؛ هادفين من وراء ذلك إلى مساندة الأحزاب وتسهيل مهمتهم بطريق غير مباشر، وتحت ستار حماية منازلهم من غارات يهود بني قريظة.

ففي تلك الحالة التي بلغ فيها موقف المسلمين الذروة من الحرج، تقدم أحد هؤلاء المنافقين الموجودين في الجيش الإسلامي، فطلب ـ باسم ملأ من قومه ـ أن يسمح لهم الرسول القائد ﷺ بالانسحاب من المعسكر المواجه للأحزاب على مشارف الخندق بحجة أنهم بحاجة إلى حماية بيوتهم المكشوفة الواقعة في أطراف المدينة.

وما كان قصد هؤلاء المنافقين حماية بيوتهم، وإنما قصدهم الفرار ثم بث الفزع وروح الهزيمة والتذمر داخل الجيش الصغير الذي أحاط به عدوه من كل مكان». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٧١-١٧٢].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَتَّى قَالَ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الحَارِثِ: **يَا رَسُولَ الله، إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ مِنَ العَدُوِّ** ـ وَذَلِكَ عَنْ مَلَإٍ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ ـ فَأْذَنْ لَنَا أَنْ نَخْرُجَ فَنَرْجِعَ إِلَى دَارِنَا، فَإِنَّهَا خَارِجٌ مِنَ المَدِينَةِ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٢].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَاجْتَمَعَتْ بَنُو حَارِثَةَ فَبَعَثَ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ؛ وَلَيْسَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ مِثْلَ دَارِنَا، لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ غَطَفَانَ أَحَدٌ يَرُدُّهُمْ عَنَّا، فَأْذَنْ لَنَا فَلْنَرْجِعْ إِلَى دُورِنَا فَنَمْنَعْ ذَرَارِيَّنَا وَنِسَاءَنَا، فَأَذِنَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ فَرَجَعُوا بِذَلِكَ وَتَهَيَّؤُوا لِلانْصِرَافِ.

فَبَلَغَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله، لا تَأْذَنْ لَهُمْ إِنَّا وَالله مَا أَصَابَنَا وَإِيَّاهُمْ شِدَّةٌ قَطُّ إِلَّا صَنَعُوا هَكَذَا**، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ لِبَنِي حَارِثَةَ: «**هَذَا لَنَا مِنْكُمْ أَبَدًا، مَا أَصَابَنَا وَإِيَّاكُمْ شِدَّةٌ إِلَّا صَنَعْتُمْ هَكَذَا**»، فَرَدَّهُمْ رَسُولُ الله ﷺ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٣].

يقول أ/ باشميل: «وقد فضح القرآن الكريم هؤلاء المنافقين، حيث صرح بأن طلبهم الانسحاب من الجيش في ذلك الظرف الدقيق، لم يكن لحماية بيوتهم، وإنما كان القصد منه الفرار وتفتيت وحدة الجيش، وبث مزيد من الخوف والفزع في نفوس الجند، فبيوتهم لم تكن عورة (كما زعموا) وإنما هم كاذبون منافقون لا سيما وأن دوريات المسلمين داخل المدينة قد كلفت بحماية ديار هؤلاء، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

وهكذا ازدادت حالة المسلمين دقة وازداد موقفهم تحرجًا، بعد اكتشاف فئات المنافقين الذين ظهروا على حقيقتهم داخل صفوف الجيش، وصاروا يسخرون من المسلمين ويبثون روح الهزيمة واليأس داخل صفوفهم.

وبالرغم من أن الخندق قد جمد نشاط جيوش الأحزاب، وجعلها عاجزة عن القيام بأي هجوم جدي واسع، فإن النبي ﷺ كان (وخاصة بعد نقض اليهود العهد وانضمامهم إلى الأحزاب ونجوم النفاق داخل الجيش الإسلامي) يشعر بحراجة مركز جيشه ويخشى عليه ـ مع قلة رجاله بين فكي الكماشة الرهيبة التي تمثلها جيوش الأحزاب وبني قريظة، هذه الكماشة التي بدأت ـ وخاصة بعد غدر يهود بني قريظة ـ تضغط بعنف على عنق جيش المدينة نفسه الذي برزت ـ داخل صفوفه ـ فئات المنافقين، تثبط وتخذل وتنشر روح الهزيمة والعصيان داخل هذا الجيش الصغير الذي بلغت نسبته إلى أعدائه واحدًا لأحد عشر. [غزوة الأحزاب لباشميل ١٧٣-١٧٤].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَأَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ بِضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ، لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ إِلَّا الرَّمِيَّا بِالنَّبْلِ وَالحِصَارُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ الرَّمْيَا. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٢-٢٢٣].

المبحث الرابع
محاولة النبي ﷺ تفريق الأحزاب

محاولة النبي ﷺ عقد صلح منفرد مع غطفان:

يقول أ/ الشامي: «لقد ثقلت الوطأة على المسلمين وحف بهم البلاء من كل جانب، فالأعداء يحيطون بهم من كل جانب ولا شك أن انحسار المنافقين من أرض المعركة كان له بعض الأثر، والهجوم متوقع بين لحظة وأخرى، كل ذلك دفع رسول الله ﷺ إلى التفكير في وسيلة يستطيع بها تخفيف الضغط الذي أصاب المسلمين». [من معين السيرة للشامي ٣٠٢].

ويقول أ/ باشميل: «ففي هذه الظروف الخانقة التي بلغت فيها الخطورة والاختناق بالجيش الإسلامي الذروة، وكان لابد للقائد الأعلى النبي ﷺ من أن يفكر في وسيلة تخفف ـ على الأقل ـ من الضغط الخانق الذي يتعرض له جيشه الصغير، والذي ينتظر أن يتعرض لمزيد من الأخطار المزلزلة إذا ما وفت قريظة الخائنة بوعدها للأحزاب وشنت قواتها الهجوم من الخلف على الجيش الإسلامي، الذي كان قد جند كل إمكانياته المحدودة للمرابطة وراء الخندق ومنع الأحزاب من اجتياز هذا الخندق.

ولهذا ـ وقبل أن تقوم قريظة بأي هجوم فعلي على المسلمين ـ فكر النبي ﷺ ـ كقائد عسكري وسياسي ـ فكر في القيام بعمل يُحدث به الفرقة والاختلاف بين قادة الأحزاب، ليخفف من شدة وطأة الحصار العنيف المضروب على المدينة، وليفت في عضد اليهود ليؤخروا ـ على الأقل ـ عملية القيام بضرب المسلمين من الخلف، هذه العملية المخيفة التي كان الجيش الإسلامي يتوقعها بين لحظة وأخرى».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٧٤].

عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ قَالَ: جَاءَ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فَقَالَا لِرَسُولِ الله ﷺ عَامَ الخَنْدَقِ: **نَكُفُّ عَنْكَ غَطَفَانَ عَلَى أَنْ تُعْطِيَنَا ثِمَارَ المَدِينَةِ**، قَالَ: فَرَاوَضُوهُ حَتَّى اسْتَقَامَ الأَمْرُ عَلَى نِصْفِ ثِمَارِ المَدِينَةِ، فَقَالُوا: اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا، فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ، قَالَ: وَالسَّعْدَانِ: سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنهما جَالِسَانِ، فَأَقْبَلَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَا: «**أَشَيْءٌ أَتَاكَ عَنِ الله لَيْسَ لَنَا أَنْ نَعْرِضَ فِيهِ**، قَالَ: «**لَا، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَصْرِفَ وُجُوهَ هَؤُلَاءِ عَنِّي وَيَفْرُغَ وَجْهِي لِهَؤُلَاءِ**»، قَالَ: قَالَا لَهُ: **مَا نَالَتْ مِنَّا العَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِنَا شَيْئًا إِلَّا بِشِرًى أَوْ قِرًى**». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٣- ٣٨٤ في المغازي (٣٧٩٧١)، وقال الشيخ عوامة: «هو من مراسيل سعيد بن المسيب»].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ الحَارِثُ الغَطَفَانِيُّ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، نَاصِفْنَا تَمْرَ (بالمثناة الفوقية وهو التمر المعروف، وفي بعض المراجع «ثمر» بالمثلثة وهي تعم التمر وغيره. ينظر في ذلك: البداية والنهاية ٤/ ١٠٤، أسد الغابة ٢/ ٢٨٤) المَدِينَةِ ، وَإِلَّا مَلَأْنَاهَا [مَلأْتُهَا] عَلَيْكَ خَيْلًا وَرِجَالًا، فَقَالَ ﷺ: «**حَتَّى أَسْتَأْمِرَ السُّعُودَ**: سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ وَسَعْدَ بنَ مُعَاذٍ»، يَعْنِي يَشَاوِرُهُمَا، فَقَالَا: «**لَا وَالله مَا أَعْطَيْنَا الدَّنِيَّةَ** (هي

الخصلة الحقيرة المذمومة من الدنو) مِنْ أَنْفُسِنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَكَيْفَ وَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالإِسْلامِ؟!»، فَرَجَعَ إِلَيْهِ الحَارِثُ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: غَدَرْتَ يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: فَقَالَ حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ ﷺ:

يَا حَارِ مَنْ يَغْدُرْ بِذِمَّةِ جَارِهِ ... مِنْكُمْ فَإِنَّ مُحَمَّدًا لا يَغْدُرُ
إِنْ تَغْدُرُوا فَالغَدْرُ مِنْ عَادَاتِكُمْ ... وَاللؤْمُ يَنْبُتُ فِي أُصُولِ السَّخْبَرِ
وَأَمَانَةُ النَّهْدِي حَيْثُ لَقِيتَهَا ... مِثْلُ الزُّجَاجَةِ صَدْعُهَا لا يُجْبَرُ (١)

قَالَ: فَقَالَ الحَارِثُ: «كُفَّ عَنَّا يَا مُحَمَّدُ لِسَانَ حَسَّانَ، فَلَوْ مُزِجَ بِهِ مَاءُ البَحْرِ لَمَزَجَهُ». [مسند البزار ١٤/ ٣٣٧ رقم ٨٠١٧، والإصابة ٢/ ٣٦. قال البزار: «لا نعلم رواه عن محمد بن عمرو هكذا إلا عثمان ولم نسمعه إلا من عقبة». والحديث بهذا السند يعتبر حسنًا لذاته وقد ذكره ابن الأثير عند ترجمة سعد بن مسعود الأنصاري وكذا ذكره الحافظ].

ولفظ الطبراني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ الحَارِثُ الغَطَفَانِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، شَاطِرْنَا تَمْرَ المَدِينَةِ، قَالَ: «حَتَّى أَسْتَأْمِرَ السُّعُودَ»، فَبَعَثَ إِلَى سَعْدِ بن مُعَاذٍ، وَسَعْدِ بن عُبَادَةَ، وَسَعْدِ بن الرَّبِيعِ، وَسَعْدِ بن خَيْثَمَةَ، وَسَعْدِ بن مَسْعُودٍ، رَحِمَهُمُ اللهُ، فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّ الحَارِثَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تُشَاطِرُوهُ تَمْرَ المَدِينَةِ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَامَكُمْ هَذَا، حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَوَحْيٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَالتَّسْلِيمُ لأَمْرِ الله، أَوْ عَنْ رَأْيِكَ، أَوْ هَوَاكَ، فَرَأْيُنَا تَبَعٌ لِهَوَاكَ ورَأْيِكَ؟ فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ الإِبْقَاءَ عَلَيْنَا، فَوَالله لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَإِيَّاهُمْ عَلَى سَوَاءٍ مَا يَنَالُونَ مِنَّا تَمْرَةً إِلا بِشِرَىً، أَوْ قِرًى، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هُوَ ذَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُونَ»، قَالُوا: غَدَرْتَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ حَسَّانُ بن ثَابِتٍ ﷺ:

يَا حَارِ مَنْ يَغْدُرْ بِذِمَّةِ جَارِهِ ... أَبَدًا [منكم] فَإِنَّ مُحَمَّدًا لا يَغْدُرُ
وَأَمَانَةُ المَرْءِ [المريِّ (٢)] حَيْثُ لَقِيتَهَا ... كَسْرُ الزُّجَاجَةِ صَدْعُهَا لا يُجْبَرُ
إِنْ تَغْدُرُوا فَالغَدْرُ مِنْ عَادَاتِكُمْ ... وَاللؤْمُ يَنْبُتُ فِي أُصُولِ السَّخْبَرِ (٣)

---

(١) ينظر في كل ذلك: ديوان حسان ١/ ١٣٧، ٢/ ١٢٧، أسد الغابة ١/ ٣٤٣، الإصابة ١/ ٢٨٦، النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٤٩.

(٢) يقصد الحارث بن عوف المري.

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ١٩١-١٩٢ في المغازي والسير (١٠١٤١)، وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني [في الكبير ٦/ ٢٨-٢٩ رقم ٥٤٠٩]، ورجال البزار والطبراني فيهما محمد ابن عمرو وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات.

قال الحافظ في الإصابة [٣/ ١٧٧]: قال ابن الأثير: في ذكر سعد بن خيثمة نظر؛ لأنه استشهد ببدر والخندق كانت بعدها بثلاث سنين.

قلت: لا يلزم من الغلط في سعد بن خيثمة الغلط في سعد بن مسعود، فإن ثبت الخبر فهو من كبار الأنصار بحيث كان يستشار في ذلك الوقت. ا.هـ. ==

اتصال النبي ﷺ بقيادة غطفان:

يقول أ/ باشميل: «اتصل الرسول القائد ﷺ بقائدي غطفان ـ سرًّا ـ وهما (عيينة بن حصن الفزاري) و(الحارث بن عوف المري) فقد أرسل إليهما ـ في جنح الظلام ـ أحد رجال استخباراته الأمناء الأذكياء ليبلغهما رغبته في الاجتماع بهما (سرًّا) في مقر قيادته وراء الخندق.

وكان النبي ﷺ ـ كقائد أعلى مسؤول وكسياسي محنك مجرب ـ أعلم الناس بنفسيات الرجال، وكان على علم تام بأهداف وغايات كل من القادة والزعماء الذين يقودون هذا الغزو الخطير الساحق.

فهو يعلم ـ مثلًا ـ أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء على ما يمكنهم الاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها.

ولهذا فإن الرسول القائد السياسي المحنك ﷺ، لم يحاول الاتصال بقادة الأحزاب من اليهود كحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع، أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب؛ لأن هدف أولئك الرئيس، لم يكن المال وإنما كان هدفهم، هدفًا سياسيًّا وعقائديًّا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله ـ فقط ـ بقادة غطفان، الذين ـ فعلًا ـ لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي ﷺ.

فقد استجاب القائدان الغطفانيان عيينة بن حصن والحارث بن عوف لطلب النبي القائد ﷺ وحضرا ـ مع بعض أعوانهما ـ إلى مقر قيادة النبي ﷺ، اجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد.

بنود الصلح المقترح:

ولدى وصولهما، شرع النبي ﷺ في مفاوضتهما، كانت هذه المفاوضة تدور ـ بصفة رئيسة ـ حول عرض تقدم به النبي ﷺ يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة هي:

١ ـ عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب.

٢ ـ توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم (وخاصة في هذه الفترة).

٣ ـ تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها.

== وقال الشيخ الصوياني: سنده حسن وفي متنه زيادة غير صحيحة، وهي كلمة (سعد بن الربيع) وهي من أوهام ابن علقمة. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص٣١٧، صحيح السيرة النبوية للعلي ص ٢٧٢ رقم ٤٣٧.

٤ ـ يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنواع، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة.

وقد وافق قائد غطفان (عيينة بن حصن والحارث بن عوف) على هذا العرض موافقة تامة إلا أنهما طلبا نصف ثمار المدينة بدل الثلث، ولكن النبي ﷺ (في هذه المفاوضة الأولية) أصر على الثلث.

فقبلت غطفان ذلك ورضوا بثلث ثمار المدينة، وتم (مبدئيًّا) الاتفاق على عقد الصلح، وفعلًا، حررت المعاهدة وسجلت بنودها، وكان كاتبها عثمان بن عفان ﷺ، ولم يبق لإنفاذها إلا توقيع الطرفين عليها وإشهاد الشهود». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٧٤-١٧٧].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَى النَّاسِ الْبَلَاءُ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ كَمَا حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ ابْنِ قَتَادَةَ وَمَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ ـ إِلَى عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَإِلَى الحَارِثِ بْنِ عَوْفِ بْنِ أَبِي حَارِثَةَ الـمُرِّيِّ ـ وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ ـ فَأَعْطَاهُمَا ثُلُثَ ثِمَارِ الـمَدِينَةِ عَلَى أَنْ يَرْجِعَا بِمَنْ مَعَهُمَا عَنْهُ وَعَنْ أَصْحَابِهِ، فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا الصُّلحُ حَتَّى كَتَبُوا الكِتَابَ، وَلَمْ تَقَعْ الشَّهَادَةُ وَلَا عَزِيمَةُ الصُّلحِ، إِلَّا الْمُرَاوَضَةَ فِي ذَلِكَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٣].

استشارة الأنصار:

يقول أ/ باشميل: «ويظهر أن النبي ﷺ قد اشترط موافقة سادة الأوس والخزرج من الأنصار على هذه الاتفاقية لتكون نافذة المفعول؛ لأن ثمار المدينة هي ملك للأنصار وحدهم، ولا يمكن التعهد بإعطاء أحد شيئًا من هذه الثمار دون موافقة مالكيها وخاصة إذا كان الأمر اجتهادًا سياسيًّا من النبي ﷺ، لا وحيًا من السماء.

ولهذا ـ وقبل التوقيع على هذه الاتفاقية ـ استدعى النبي ﷺ، سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وشرح لهما بحضور عيينة بن حصن والحارث بن عوف ـ ما دار بينه وبين هذين القائدين وما توصل إليه من اتفاق معهما تنسحب بموجبها وتفك الحصار عن المدينة جميع قبائل غطفان التي يتكون منها العمود الفقري لهذا الغزو الكبير، مقابل إعطائها ثلث ثمار المدينة.

ثم استشار النبي ﷺ السعدين في الأمر ـ وخاصة البند المتعلق بإعطاء ثلث ثمار المدينة لغطفان ـ وطلب منهما إبداء رأيهما الأخير في هذه الاتفاقية.

سادة الأنصار يرفضون الصلح:

وبعد أن استمعا إلى النبي ﷺ واطلعا على بنود الاتفاقية ـ لم يعجبهما ولم يرق لهما البند المتعلق بإعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة، فلم يلق قبولًا من نفسيهما بل استعظماه.

إلا أنهما كمؤمنين صادقين لا يبيحان لأنفسهما الخروج على أمر النبي ﷺ ـ حتى ولو كان فيه هلاكهما ـ أبلغا النبي القائد ﷺ أنهما ـ باسم الأنصار جميعًا ـ على أتم استعداد للموافقة على هذه الاتفاقية بكاملها إذا كان ذلك عن أمر الله ووحي منه.

أما إذا كان الأمر لا يعدو أن يكون رأيًا فيه مجال للأخذ والرد فإن لهما رأيًا غير الرأي الذي رآه النبي ﷺ، وهو أنهم يرفضان بصراحة إعطاء قبائل غطفان تمرة واحدة من ثمار المدينة على هذه الصورة».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٧٧-١٧٨].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَفْعَلَ بَعَثَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رضي الله عنهما فَذَكَرَ ذَلِكَ لَـهُمَا، وَاسْتَشَارَهُمَا فِيهِ، فَقَالَا لَهُ: **يَا رَسُولَ الله، أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ العَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا؟** قَالَ ﷺ: «**بَل شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَالله مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنِّي رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ** (اشتدوا عليكم) **مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا**».

والله لا نعطيهم إلا السيف:

فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه: **يَا رَسُولَ الله، قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ القَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِالله وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، لَا نَعْبُدُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا ثَمَرَةً إِلَّا قِرًى** (ما يُصنع للضيف من الطعام) **أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ وَهَدَانَا لَهُ، وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا، وَالله مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَالله لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.**

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَأَنْتَ وَذَاكَ**».

فَتَنَاوَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه الصَّحِيفَةَ فَمَحَا مَا فِيهَا مِنَ الكِتَابِ، ثُمَّ قَالَ: لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٣].

يقول أ/ باشميل: «وهكذا ازداد البلاء على المسلمين، فقد ضاعف رفض سادة الأنصار فكرة عقد الصلح المنفرد مع غطفان مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة، ضاعف هذا الرفض من متاعب المسلمين العسكرية، وبدد الأمل في تخفيف الضغط عليهم، هذا التخفيف الذي كان هو المقصود بالدعوة إلى مصالحة غطفان.

إلا أن هذا الرفض من ناحية أخرى، أثبت للقادة المسؤولين في الجانبين ـ الأحزاب والمسلمين ـ أن هناك داخل الجيش الإسلامي الصغير، رجالًا يعدون بالآلاف، لا تزيدهم المحن إلا قوة، ولا البلايا إلا إيمانًا وثباتًا وتمسكًا بنبيهم والتفافًا حوله.

فارتفعت لهذا الموقف المتصلب نسبة الروح المعنوية بين المؤمنين الصادقين، وخرج قادة غطفان من معسكر الجيش الصغير، وصور أولئك الأسود الضواري الذين جاؤوا ليقولوا لقادة أقوى قوة ضاربة تبلغ نسبة رجالها إلى رجالهم أحد عشر لواحد، وقفوا ليقولوا لقادة هذه القوة التي تكاد تغرقهم بكتائبها الهائجة من كل مكان وقفوا ليقولوا لها في تحد واستخفاف : والله لا نعطيكم ثمرة واحدة من ثمار المدينة إلا ضيافة، فافعلوا ما يحلو لكم.

موقف رائع:

نعم عاد قادة غطفان من معسكر المسلمين، وقد أدركوا حقيقة كانوا يجهلونها كل الجهل، وهي أن الذي يصنع الانتصارات الحقيقية ويبعث الأمن والطمأنينة في النفوس ـ ساعة الروع ـ ليس كثرة الجيوش وقوتها، وإنما الذي يصنع كل ذلك هو قوة العقيدة وزخم الإيمان بالله تعالى، عاد قادة غطفان من معسكر الجيش الصغير وهذه الكلمات تدوي في آذانهم دويًّا، كلمة قالها سعد بن معاذ ـ سيد الأوس ـ أمام قادة غطفان، في ذلك الظرف الحرج الدقيق الذي بلغت فيه قلوب المسلمين الحناجر من شدة الكرب وتلاحق المحن وتقاطر البلايا، كلمة ما كان ليقولها لولا الإيمان الصادق أمام قادة تلك القوة الضاربة، إلا الذي يملك قياد عشرين ألف مقاتل على الأقل.

ولكن محور العجب هنا هو أن الذي قال هذه الكلمة التي تتفجر منها ينابيع الرجولة والشجاعة والأنفة والإيمان والثقة المتناهية بالنفس ليس وراءه أكثر من ثمانمائة مقاتل تقابلها في الجانب المعادي الآخر أحد عشر ألف مقاتل ومن ورائها احتياطي لا يقل عن ثلاثة آلاف مقاتل في خيبر والمدينة.

ولعل هذه الكلمة التي قالها سعد بن معاذ ﷺ للرسول القائد ﷺ بحضور قادة غطفان، كانت من أكبر الأسباب التي جعلت قادة هذه القبائل يعيدون النظر في مخططهم العدواني، فيتقلُّون بشأن المجازفة في مقاتلة المسلمين، فمن الجدير بالذكر أنه بعد عودة عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري من معسكر المسلمين وسماعهم الذي سمعوا من سعد بن معاذ ﷺ لم يكن لغطفان أي دور حربي ضد المسلمين، حيث ظلت قوات هذه القبائل مرابطة في معسكراتها حتى أذن القائد العام أبو سفيان بالرحيل وفكت الأحزاب الحصار عن المدينة». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٨٠-١٨٢].

تصوير الواقدي للمفاوضات:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: حُصِرَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِضْعَ عَشْرَةَ حَتَّى خَلُصَ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ الكَرْبُ وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تَشَأْ لا تُعْبَدُ**».

فَبَيْنَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الحَالِ أَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ وَإِلَى الحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ - وَلَمْ يَحْضُرِ الخَنْدَقَ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ، وَلا قَوْمُهُ، وَيُقَالُ: حَضَرَهَا الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ.

قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: وَهُوَ أَثْبَتُ القَوْلَيْنِ عِنْدَنَا، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَرْسَلَ إِلَيْهِ وَإِلَى عُيَيْنَةَ أَرَأَيْتَ إِنْ جَعَلْتُ لَكُمْ ثُلُثَ تَمْرِ المَدِينَةِ تَرْجِعَانِ بِمَنْ مَعَكُمْ وَتُخَذِّلانِ بَيْنَ الأَعْرَابِ؟ قَالا: تُعْطِينَا نِصْفَ تَمْرِ المَدِينَةِ، فَأَبَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَزِيدَهُمَا عَلَى الثُّلُثِ فَرَضِيَا بِذَلِكَ، وَجَاءَا فِي عَشَرَةٍ مِنْ قَوْمِهِمَا حِينَ تَقَارَبَ الأَمْرُ، فَجَاؤُوا وَقَدْ أَحْضَرَ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَهُ وَأَحْضَرَ الصَّحِيفَةَ وَالدَّوَاةَ، وَأَحْضَرَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ فَأَعْطَاهُ الصَّحِيفَةَ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَكْتُبَ الصُّلحَ بَيْنَهُمْ، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﷺ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ الله ﷺ مُقَنَّعٌ فِي الحَدِيدِ.

فَأَقْبَلَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَلا يَدْرِي بِمَا كَانَ مِنَ الكَلامِ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَجَاءَ عُيَيْنَةُ مَادًّا رِجْلَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ، وَعَلِمَ مَا يُرِيدُونَ فَقَالَ: **يَا عَيْنَ الهِجْرِسِ اقْبِضْ رِجْلَيْكَ أَتَمُدُّ رِجْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله؟** وَمَعَهُ الرُّمْحُ، وَالله لَوْلا رَسُولُ الله لأَنْفَذْتُ خُصْيَتَيْكَ بِالرُّمْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله إِنْ كَانَ أَمْرًا مِنَ السَّمَاءِ فَامْضِ لَهُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَوَالله لا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ مَتَى طَمِعُوا بِهَذَا مِنَّا؟** فَأَسْكَتَ رَسُولُ الله ﷺ، وَدَعَا سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فَاسْتَشَارَهُمَا فِي ذَلِكَ، وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَيْهِمَا، وَالقَوْمُ جُلُوسٌ فَتَكَلَّمَ بِكَلامٍ يُخْفِيهِ وَأَخْبَرَهُمَا بِمَا قَدْ أَرَادَ مِنَ الصُّلحِ.

فَقَالا: **إِنْ كَانَ هَذَا أَمْرًا مِنَ السَّمَاءِ فَامْضِ لَهُ، وَإِنْ كَانَ أَمْرًا لَمْ تُؤْمَرْ فِيهِ وَلَكَ فِيهِ هَوَىً فَامْضِ لِمَا كَانَ لَكَ فِيهِ هَوَىً، فَسَمْعًا وَطَاعَةً، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا هُوَ الرَّأْيُ فَمَا لَـهُمْ عِنْدَنَا إِلَّا السَّيْفُ.**

وَأَخَذَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ الكِتَابَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي رَأَيْتُ العَرَبَ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، فَقُلْتُ أُرْضِيهِمْ وَلا أُقَاتِلُهُمْ**»، فَقَالا: **يَا رَسُولَ الله إِنْ كَانُوا لَيَأْكُلُونَ العِلْهِزَ** (١) **فِي الـجَاهِلِيَّةِ مِنَ الجَهْدِ مَا طَمِعُوا بِهَذَا مِنَّا قَطُّ، أَنْ يَأْخُذُوا تَمْرَةً إِلَّا بِشِرًى أو قِرًى، فَحِينَ أَتَانَا الله تَعَالَى بِكَ، وَأَكْرَمَنَا بِكَ، وَهَدَانَا بِكَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ، لا نُعْطِيهِمْ أَبَدًا إِلَّا السَّيْفَ.**

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**شُقَّ الكِتَابَ**»، فَتَفَلَ سَعْدٌ فِيهِ ثُمَّ شَقَّهُ، وَقَالَ: بَيْنَنَا السَّيْفُ، فَقَامَ عُيَيْنَةُ، وَهُوَ يَقُولُ: **أَمَا وَالله لَلَّتِي تَرَكْتُمْ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الخُطَّةِ الَّتِي أَخَذْتُمْ، وَمَا لَكُمْ بِالقَوْمِ طَاقَةٌ.**

---

(١) قال في النهاية ٣/ ٢٩٣: هو شيء يتخذونه في سنين المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه، وقيل كانوا يخلطون به القردان. وقيل: العلهز: شيء ينبت ببلاد بني سليم له أصل كالبردي. وينظر: السيرة الحلبية ٢/ ٢١٨.

فَقَالَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﷺ: يَا عُيَيْنَةُ أَبِالسَّيْفِ تُخَوِّفُنَا؟ سَتَعْلَمُ أَيُّنَا أَجْزَعُ وَإِلَّا فَوَاللهِ لَقَدْ كُنْتَ أَنْتَ وَقَوْمَكَ تَأْكُلُونَ العِلْهِزَ وَالرِّمَّةَ مِنَ الجَهْدِ فَتَأْتُونَ هَاهُنَا مَا تَطْمَعُونَ بِهَذَا مِنَّا إِلَّا قِرًى أَوْ شِرًى، وَنَحْنُ لا نَعْبُدُ شَيْئًا، فَلَمَّا هَدَانَا اللهُ وَأَيَّدَنَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ سَأَلْتُمُونَا هَذِهِ الخُطَّةَ، أَمَا وَاللهِ لَوْلا مَكَانُ رَسُولِ اللهِ مَا وَصَلْتُمْ إِلَى قَوْمِكُمْ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْجِعُوا، بَيْنَنَا السَّيْفُ» رَافِعًا صَوْتَهُ، فَرَجَعَ عُيَيْنَةُ وَالحَارِثُ وَهُمَا يَقُولانِ: وَاللهِ مَا نَرَى أَنْ نُدْرِكَ مِنْهُمْ شَيْئًا، وَلَقَدْ أُنْهِجَتْ لِلقَوْمِ بَصَائِرُهُمْ، وَاللهِ مَا حَضَرْتُ إِلَّا كُرْهًا لِقَوْمٍ غَلَبُونِي، وَمَا مَقَامُنَا بِشَيْءٍ مَعَ أَنَّ قُرَيْشًا إِنْ عَلِمَتْ بِمَا عَرَضْنَا عَلَى مُحَمَّدٍ عَرَفَتْ أَنَّا قَدْ خَذَلْنَاهَا وَلَمْ نَنْصُرْهَا.

قَالَ عُيَيْنَةُ: هُوَ وَاللهِ ذَلِكَ، قَالَ الحَارِثُ: أَمَا إِنَّا لَمْ نُصِبْ بِتَعَرُّضِنَا لِنَصْرِ قُرَيْشٍ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَئِنْ ظَهَرَتْ قُرَيْشٌ عَلَى مُحَمَّدٍ لَيَكُونَنَّ الأَمْرُ فِيهَا دُونَ سَائِرِ العَرَبِ، مَعَ أَنِّي أَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ أَمْرًا ظَاهِرًا، وَاللهِ لَقَدْ كَانَ أَحْبَارُ يَهُودِ خَيْبَرَ وَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَنَّهُمْ يَجِدُونَ فِي كُتُبِهِمْ إِنَّهُ يُبْعَثُ نَبِيٌّ مِنَ الحَرَمِ عَلَى صِفَتِهِ، قَالَ عُيَيْنَةُ: إِنَّا وَاللهِ مَا جِئْنَا نَنْصُرُ قُرَيْشًا، وَلَوْ اسْتَنْصَرْنَا قُرَيْشًا مَا نَصَرَتْنَا وَلا خَرَجَتْ مَعَنَا مِنْ حَرَمِهَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَطْمَعُ أَنْ نَأْخُذَ تَمْرَ المَدِينَةِ فَيَكُونُ لَنَا بِهِ ذِكْرٌ مَعَ مَا لَنَا فِيهِ مِنْ مَنْفَعَةِ الغَنِيمَةِ مَعَ أَنَّا نَنْصُرُ حُلَفَاءَنَا مِنَ اليَهُودِ فَهُمْ جَلَبُونَا إِلَى مَا هَاهُنَا.

قَالَ الحَارِثُ: قَدْ وَاللهِ أَبَتِ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ إِلَّا السَّيْفَ، وَاللهِ لَتُقَاتِلُنَّ عَنْ هَذَا السَّعَفِ مَا بَقِيَ مِنْهَا رَجُلٌ مُقِيمٌ، وَقَدْ أَجْدَبَ الجَنَابُ وَهَلَكَ الخُفُّ وَالكُرَاعُ.

قَالَ عُيَيْنَةُ: لا شَيْءَ، فَلَمَّا أَتَيَا مَنْزِلَهُمَا جَاءَتْهُمَا غَطَفَانُ فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكُمْ؟ قَالُوا: لَمْ يَتِمَّ الأَمْرُ رَأَيْنَا قَوْمًا عَلَى بَصِيرَةٍ وَبَذْلِ أَنْفُسِهِمْ دُونَ صَاحِبِهِمْ وَقَدْ هَلَكْنَا وَهَلَكَتْ قُرَيْشٌ، وَقُرَيْشٌ تَنْصَرِفُ وَلا تُكَلِّمُ مُحَمَّدًا وَإِنَّمَا يَقَعُ حَرُّ مُحَمَّدٍ بِبَنِي قُرَيْظَةَ إِذَا وَلَّيْنَا جَثَمَ عَلَيْهِمْ فَحَصَرَهُمْ جُمُعَةً حَتَّى يُعْطُوا بِأَيْدِيهِمْ.

قَالَ الحَارِثُ: بُعْدًا وَسُحْقًا، مُحَمَّدٌ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ اليَهُودِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٧-٤٨٠].

توتر الحالة ومضاعفة التيقظ:

يقول أ/ باشميل: «ومما لا جدال فيه أن التوتر بعد نقض قريظة العهد ورفض الأنصار فكرة عقد الصلح المنفرد مع غطفان ـ كما اقترح النبي ﷺ ـ قد بلغ الذروة.

وحسبانًا للطوارئ التي ينتظر المسلمون حدوثها نتيجة هذه التطورات الخطيرة، ضاعف المسلمون من يقظتهم واستعدادهم وصاروا يرهقون أنفسهم بالعمل المتواصل للدفاع عن كيانهم.

فقد وضعت قيادة المدينة المواقع الضيقة من الخندق ـ المحتمل اقتحامها من جهة خيل الأحزاب ـ تحت المراقبة الشديدة المتواصلة، خوفًا من أن تدفع نشوة الفرح بانضمام اليهود إلى جانب الأحزاب، بعض شجعانهم إلى اقتحام الخندق بالخيل.

حتى إن الرسول القائد ﷺ قد رابط بنفسه حول أخطر نقطة يتوقع المسلمون اقتحامها من قبل خيل الأحزاب، كما ضاعفت القيادة النبوية من نشاط دوريات الحراسة المتجولة على طول الخندق، كما كلفوا قوة أخرى من احتياطيهم بالمرابطة خلف خطوطهم الخلفية لمراقبة اليهود والصمود في وجههم إذا ما حاولوا الهجوم.

ولقد تضاعف الخوف واشتد الفزع وركضت القلوب بين الجنوب ـ رعبًا وهلعًا ـ حتى بلغت الحناجر، وأخذ المنافقون ـ في تلك الليالي المخيفة التي تحالفت فيها ـ على المسلمين ـ البلايا وتقاطرت فيها ضدهم الخطوب والرزايا ـ أخذ هؤلاء المنافقون يتسللون ـ هربًا ـ من مواقعهم داخل صفوف الجيش الإسلامي، تاركين هذا الجيش الصغير لمصيره في مهب العاصفة التي تنوشه رياحها الهوج بعنف وقسوة تنخلع لها القلوب.

ثبات العصبة المؤمنة:

وظلت الصفوة المختارة من صحابة محمد ﷺ الأبرار بجانب الرسول القائد العظيم ﷺ صامدة ثابتة، في تلك الليالي الحاسمات المثقلات بالمحن والكروب، في انتظار ما ستتمخض عنه هذه الليالي من أحداث خطيرة مقلقة، لا يعلم مداها إلا الله، وخاصة ما يتوقعه المسلمون من هجوم تقوم به قريظة الغادرة على الجيش الإسلامي من الخلف، كما هي الخطة المتفق عليها بين اليهود والأحزاب».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٨٢-١٨٣].

المبحث الخامس
التحول العسكري في المعركة

نقطة التحول في المعركة عسكريًّا:

يقول أ/ باشميل: «وبعد نقض قريظة العهد وانضمامها إلى الأحزاب، دخلت فعلًا الحرب في مراحل أكثر جدية من ذي قبل، فقد كانت مفاجأة قيادة المدينة لقيادة الأحزاب بحفر الخندق كخط أول للدفاع عن المدينة صدمة عنيفة جعلت قادة الأحزاب يفقدون الأمل في سحق المسلمين عن طريق الالتحام بهم في معركة فاصلة كما هي الخطة المرسومة للمعركة والمتفق عليها من الأساس.

ولكن الأمل في سحق المسلمين عن طريق الالتحام بهم في معركة فاصلة أخذ يعود إلى نفوس قادة الأحزاب، بعد أن تبلغوا من يهود بني قريظة رسميًّا انحيازهم إليهم واستعدادهم لضرب المسلمين من الخلف.

فأخذوا لذلك يضاعفون من تحفزاتهم ومحاولاتهم لاقتحام الخندق وعبوره نحو المسلمين، وضاعفوا من دورياتهم الاستفزازية على طول الخندق لإرهاب المسلمين وتحطيم معنوياتهم تمهيدًا للخطة الحاسمة التي يشنون فيها الهجوم العام المرتقب عليهم بالاشتراك مع يهود بني قريظة.

ولذلك فقد اتفق قادة قريش أبو سفيان بن حرب، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب الفهري، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي هبيرة، ونوفل بن عبد الله، اتفقوا على أن يقودوا عملية مناوشة المسلمين وإزعاجهم بأنفسهم.

فقد اتفق هؤلاء القادة على أن يكون لكل واحد منهم يوم، يقود فيه عمليات الاستفزاز والمناوشات على طول مشارف الخندق، فصار رجال كل قائد من هؤلاء القادة يقوم بهذه العمليات لمدة يوم وليلة دونما انقطاع». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٨٣-١٨٤].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ وَعَدُوُّهُمْ مُحَاصِرُوهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ، إِلَّا أَنَّ فَوَارِسَ مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدِّ بْنِ أَبِي قَيْسٍ، أَخُو بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: عَمْرُو بْنُ عَبْدِ بْنِ أَبِي قَيْسٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ الْمَخْزُومِيَّانِ، وَضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ الشَّاعِرُ ابْنُ مِرْدَاسٍ أَخُو بَنِي مُحَارِبِ بْنِ فِهْرٍ، تَلَبَّسُوا لِلْقِتَالِ، ثُمَّ خَرَجُوا عَلَى خَيْلِهِمْ حَتَّى مَرُّوا بِمَنَازِلِ بَنِي كِنَانَةَ، فَقَالُوا: تَهَيَّؤُوا يَا بَنِي كِنَانَةَ لِلْحَرْبِ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ الْفُرْسَانُ الْيَوْمَ، ثُمَّ أَقْبَلُوا تُعْنِقُ بِهِمْ خَيْلُهُمْ حَتَّى وَقَفُوا عَلَى الْخَنْدَقِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: **وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَكِيدُهَا**.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَنَاوَبُونَ بَيْنَهُمْ، فَيَغْدُو أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فِي أَصْحَابِهِ يَوْمًا، [وَيَغْدُو خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ يَوْمًا] (زيادة من الطبقات لابن سعد ٢/ ٦٤)، وَيَغْدُو هُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ يَوْمًا، وَيَغْدُو عِكْرِمَةُ ابْنُ أَبِي جَهْلٍ يَوْمًا، وَضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ يَوْمًا، فَلا يَزَالُونَ يُجِيلُونَ خَيْلَهُمْ مَا بَيْنَ المَذَادِ إِلَى رَاتِجٍ، وَهُمْ فِي نَشَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِمْ يَتَفَرَّقُونَ مَرَّةً وَيَجْتَمِعُونَ أُخْرَى، حَتَّى عَظُمَ البَلاءُ وَخَافَ النَّاسُ خَوْفًا شَدِيدًا.

وَيُقَدِّمُونَ رُمَاتَهُمْ ـ وَكَانَ مَعَهُمْ رُمَاةٌ حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ وَأَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَفْنَاءِ العَرَبِ ـ فَعَمَدُوا يَوْمًا مِنْ ذَلِكَ فَتَنَاوَشُوا بِالنَّبْلِ سَاعَةً وَهُمْ جَمِيعًا فِي وَجْهٍ وَاحِدٍ وِجَاهَ قُبَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَيْهِ الدِّرْعُ وَالمِغْفَرُ وَيُقَالُ: عَلَى فَرَسِهِ.

فَيَرْمِي حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ بِسَهْمٍ فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ، فَقَالَ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ العَرِقَةِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَرَّقَ اللهُ وَجْهَكَ فِي النَّارِ**»، وَيُقَالُ: أَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ رَمَاهُ وَكَانَ دَارِعًا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٨-٤٦٩].

إلا أن هذه المناوشات الجديدة المنظمة ـ بسبب وجود الخندق ـ لم تتعد الجولان بالخيل والرمي بالنبل والقذف بالحجارة، مما لم يكن له أي أثر حاسم يذكر في سير المعركة.

قال الواقدي: فَحَدَّثَنِي أَيُّوبُ بْنُ النُّعْمَانِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ يَحْرُسُ الخَنْدَقَ فِي أَصْحَابِهِ، فَانْتَهَوْا إِلَى مَكَانٍ مِنَ الخَنْدَقِ تَطْفُرُهُ (طفر: وثب في ارتفاع، وطفر الحائط: وثبه إلى ما ورائه) الخَيْلُ، فَإِذَا طَلِيعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِائَةُ فَارِسٍ أَوْ نَحْوُهَا، عَلَيْهِمْ عَمْرُو بْنُ العَاصِ يُرِيدُونَ أَنْ يُغِيرُوا إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ عَلَيْهَا بِأَصْحَابِهِ، فَرَمَوْهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ حَتَّى أَجْهَضُوا عَنَّا وَوَلَّوْا.

وَكَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ ﷺ، فَقَالَ لأُسَيْدٍ ﷺ: إِنَّ هَذَا مَكَانٌ مِنَ الخَنْدَقِ مُتَقَارِبٌ، وَنَحْنُ نَخَافُ تَطْفُرُهُ خَيْلُهُمْ، وَكَانَ النَّاسُ عَجِلُوا فِي حَفْرِهِ، وَبَادَرُوا فَبَاتُوا يُوَسِّعُونَهُ حَتَّى صَارَ كَهَيْئَةِ الخَنْدَقِ، وَأَمَّنُوا أَنْ تَطْفُرَهُ خَيْلُهُمْ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَتَنَاوَبُونَ الحِرَاسَةَ، وَكَانُوا فِي قُرٍّ (برد) شَدِيدٍ وَجُوعٍ.

فَحَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ الحَارِثِ، عَنْ أَبِي عَتِيقٍ السُّلَمِيِّ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَحْرُسُ الخَنْدَقَ، وَخَيْلُ الْمُشْرِكِينَ تُطِيفُ بِالخَنْدَقِ وَتَطْلُبُ غُرَّةً وَمُضِيقًا مِنَ الخَنْدَقِ فَتَقْتَحِمُ فِيهِ، وَكَانَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ، وَخَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ هُمَا اللَّذَانِ يَفْعَلانِ ذَلِكَ يَطْلُبَانِ الغَفْلَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَقِينَا خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ فِي مِائَةِ فَارِسٍ، قَدْ جَالَ بِخَيْلِهِ يُرِيدُ مَضِيقًا مِنَ الخَنْدَقِ يُرِيدُ أَنْ يَعْبُرَ فُرْسَانُهُ فَنَضَحْنَاهُمْ بِالنَّبْلِ حَتَّى انْصَرَفَ.

فَحَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ: أَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ تِلكَ اللَّيْلَةَ فِي مِائَةِ فَارِسٍ، فَأَقْبَلُوا مِنَ العَقِيقِ حَتَّى وَقَفُوا بِالْمُذَادِ وِجَاهَ قُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَذِرْتُ بِالقَوْمِ، فَقُلْتُ لِعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ، وَكَانَ عَلَى حَرَسِ قُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ قَائِمًا يُصَلِّي، فَقُلْتُ: أَتَيْتُ، فَرَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ، وَأَقْبَلَ خَالِدٌ فِي ثَلاثَةِ نَفَرٍ هُوَ رَابِعُهُمْ فَأَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ: هَذِهِ قُبَّةُ مُحَمَّدٍ ارْمُوا فَرَمَوْا، فَنَاهَضْنَاهُمْ حَتَّى وَقَفْنَا عَلَى شَفِيرِ الخَنْدَقِ، وَهُمْ بِشَفِيرِ الخَنْدَقِ مِنَ الجَانِبِ الآخَرِ، فَتَرَامَيْنَا، وَثَابَ إِلَيْنَا أَصْحَابُنَا، وَثَابَ إِلَيْهِمْ أَصْحَابُهُمْ وَكَثُرَتِ الجِرَاحَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، ثُمَّ اتَّبَعُوا الخَنْدَقَ عَلَى حَافَّتَيْهِ وَتَبِعْنَاهُمْ وَالمُسْلِمُونَ عَلَى مَحَارِسِهِمْ فَكُلَّمَا نَمُرُّ بِمَحْرِسٍ نَهَضَ مَعَنَا طَائِفَةٌ، وَثَبَتَ طَائِفَةٌ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَاتِجٍ فَوَقَفُوا وَقْفَةً طَوِيلَةً، وَهُمْ يَتَنْظِرُونَ قُرَيْظَةَ يُرِيدُونَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَى بَيْضَةِ المَدِينَةِ، فَمَا شَعَرْنَا إِلَّا بِخَيْلِ سَلَمَةَ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ حَرِيشٍ يَحْرُسُ فَيَأْتُونَ مِنْ خَلْفِ رَاتِجٍ، فَلاقَوْا خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ فَاقْتَتَلُوا وَاخْتَلَطُوا، فَمَا كَانَ إِلَّا حَلبُ شَاةٍ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى خَيْلِ خَالِدٍ مُوَلِّيَةً وَتَبِعَهُ سَلَمَةُ بْنُ أَسْلَمَ حَتَّى رَدَّهُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ.

فَأَصْبَحَ خَالِدٌ وَقُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ تَزْرِي عَلَيْهِ وَتَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا فِيمَنْ فِي الخَنْدَقِ وَلا فِيمَنْ أَصْحَرَ لَكَ، فَقَالَ خَالِدٌ: أَنَا أَقْعُدُ اللَّيْلَةَ وَابْعَثُوا خَيْلًا حَتَّى أَنْظُرَ أَيَّ شَيْءٍ تَصْنَعُ.

فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ أَبِي عَوْنٍ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: وَاللهِ إِنِّي لَفِي جَوْفِ اللَّيْلِ فِي قُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ إِلَى أَنْ سَمِعْتُ الهَيْعَةَ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: يَا خَيْلَ اللهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَعَلَ شِعَارَ الْمُهَاجِرِينَ: يَا خَيْلَ اللهِ، فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِصَوْتِهِ فَخَرَجَ مِنَ القُبَّةِ، فَإِذَا نَفَرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ عِنْدَ قُبَّتِهِ يَحْرُسُونَهَا، مِنْهُمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا بَالُ النَّاسِ؟**» قَالَ عَبَّادٌ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا صَوْتُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، اللَّيْلَةَ نَوْبَتُهُ يُنَادِي: يَا خَيْلَ اللهِ، وَالنَّاسُ يَثُوبُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةِ حُسَيْكَةَ مَا بَيْنَ ذُبَابٍ وَمَسْجِدِ الفَتْحِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ ﷺ: «**اذْهَبْ فَانْظُرْ، ثُمَّ ارْجِعْ إِلَيَّ إِنْ شَاءَ اللهُ فَأَخْبِرْنِي**»، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَقُمْتُ عَلَى بَابِ القُبَّةِ أَسْمَعُ كُلَّ مَا يَتَكَلَّمَانِ بِهِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمًا حَتَّى جَاءَهُ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ فِي خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ مَعَهُ مَسْعُودُ بْنُ رُخَيْلَةَ بْنِ نُوَيْرَةَ بْنِ طَرِيفِ بْنِ سُحْمَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ هِلالِ بْنِ خَلاوَةَ بْنِ أَشْجَعَ بْنِ رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ، فِي خَيْلِ غَطَفَانَ، وَالْمُسْلِمُونَ يُرَامُونَهُمْ بِالنَّبْلِ وَالحِجَارَةِ.

قَالَتْ: فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَبِسَ دِرْعَهُ وَمِغْفَرَهُ وَرَكِبَ فَرَسَهُ وَخَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى أَتَى تِلْكَ الثُّغْرَةَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَجَعَ وَهُوَ مَسْرُورٌ، فَقَالَ: «**صَرَفَهُمُ اللهُ وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمُ الجِرَاحَةُ**».

قَالَتْ: فَنَامَ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، وَسَمِعْتُ هَائِعَةً أُخْرَى، فَفَزِعَ فَوَثَبَ فَصَاحَ: «يَا عَبَّادُ بْنَ بِشْرٍ!»، قَالَ: لَبَّيْكَ، قَالَ: «انْظُرْ مَا هَذَا»، فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: هَذَا ضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ فِي خَيْلٍ مِنَ الـمُشْرِكِينَ مَعَهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فِي خَيْلِ غَطَفَانَ عِنْدَ جَبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ، وَالـمُسْلِمُونَ يُرَامُونَهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ، فَعَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَبِسَ دِرْعَهُ وَرَكِبَ فَرَسَهُ، ثُمَّ خَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ إِلَى تِلْكَ الثُّغْرَةِ، فَلَمْ يَأْتِنَا حَتَّى كَانَ السَّحَرُ فَرَجَعَ وَهُوَ يَقُولُ: «رَجَعُوا مَفْلُولِينَ قَدْ كُثِرَتْ فِيهِمْ الجِرَاحَةُ»، ثُمَّ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ الصُّبْحَ وَجَلَسَ، فَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تَقُولُ: قَدْ شَهِدْتُ مَعَهُ مَشَاهِدَ فِيهَا قِتَالٌ وَخَوْفٌ ـ الْمُرَيْسِيعَ، وَخَيْبَرَ، وَكُنَّا بِالْحُدَيْبِيَةِ، وَفِي الفَتْحِ، وَحُنَيْنٍ ـ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ أَتْعَبُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَلا أَخْوَفُ عِنْدَنَا مِنَ الخَنْدَقِ، وَذَلِكَ أَنَّ الـمُسْلِمِينَ كَانُوا فِي مِثْلِ الحَرَجَةِ، وَأَنَّ قُرَيْظَةَ لا نَأْمَنُهَا عَلَى الذَّرَارِيِّ، وَالـمَدِينَةُ تُحْرَسُ حَتَّى الصَّبَاحِ يُسْمَعُ تَكْبِيرُ الـمُسْلِمِينَ فِيهَا حَتَّى يُصْبِحُوا خَوْفًا، حَتَّى رَدَّهُمْ اللهُ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَكَفَى اللهُ الـمُؤْمِنِينَ القِتَالَ.

حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ، قَالَ: كُنَّا حَوْلَ قُبَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَحْرُسُهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ نَائِمٌ نَسْمَعُ غَطِيطَهُ إِذْ وَافَتْ أَفْرَاسٌ عَلَى سَلْعٍ، فَبَصُرَ بِهِمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﷺ فَأَخْبَرَنَا بِهِمْ، قَالَ: فَأَمْضَى إِلَى الخَيْلِ وَقَامَ عَبَّادٌ عَلَى بَابِ قُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ آخِذًا بِقَائِمِ السَّيْفِ يَنْظُرُنِي، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: خَيْلُ الـمُسْلِمِينَ أَشْرَفَتْ عَلَيْهَا سَلَمَةُ بْنُ أَسْلَمَ بْنِ حَرِيشٍ ﷺ، فَرَجَعْتُ إِلَى مَوْضِعِنَا، ثُمَّ يَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ: كَانَ لَيْلُنَا بِالخَنْدَقِ نَهَارًا حَتَّى فَرَّجَهُ اللهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٤-٤٦٨].

سعد بن أبي وقاص ﷺ يرمي رجلاً فيضحك النبي ﷺ:

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الخَنْدَقِ وَرَجُلٌ يَتَتَرَّسُ (يتوقى بالترس)، جَعَلَ يَقُولُ بِالتُّرْسِ هَكَذَا، فَوَضَعَهُ فَوْقَ أَنْفِهِ، ثُمَّ يَقُولُ هَكَذَا، يُسَفِّلُهُ بَعْدُ، قَالَ: فَأَهْوَيْتُ إِلَى كِنَانَتِي فَأَخْرَجْتُ مِنْهَا سَهْمًا مُدَمًّا (الذي أصابه الدم، فحصل في لونه سواد وحمرة مما رمى به العدو، ويُطلق على ما تكرر الرمي به)، فَوَضَعْتُهُ فِي كَبِدِ القَوْسِ (مقبضها وكبد كل شيء وسطه)، فَلَمَّا قَالَ هَكَذَا يُسَفِّلُ التُّرْسَ رَمَيْتُ فَمَا نَسِيتُ وَقْعَ القِدْحِ (عود السهم) عَلَى كَذَا وَكَذَا مِنَ التُّرْسِ، قَالَ: وَسَقَطَ، فَقَالَ بِرِجْلِهِ [هَكَذَا]، فَضَحِكَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ أَحْسِبُهُ قَالَ: حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: قُلْتُ: لِمَ [فَعَلَ؟] قَالَ: لِفِعْلِ الرَّجُلِ.

[مسند أحمد ٣/ ١٦٧ رقم ١٦٢٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف، مجمع الزوائد ٦/ ١٩٧ رقم ١٠١٥٣، وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار إلا أنه قال: كان رجل معه ترسان وكان سعد راميًا فكان يقول كذا وكذا بالترسين يغطي جبهته فنزع له سعد بسهم فلما رفع رأسه رماه فلم يخط هذه منه ـ يعني جبهته ـ والباقي بنحوه، ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن محمد بن الأسود وهو ثقة].

نقل المعركة إلى معسكر المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «ظل الحال هكذا مدة من الزمن قصيرة ـ ترام بالنبل وجولان بالخيل للإرهاب من جانب قريش، ودوريات مستمرة منظمة تطوف بالخندق من الجانبين ـ حتى تطور القتال قليلًا من جانب الأحزاب.

فقد قام فريق من فرسانهم الأشداء المغامرين باقتحام الخندق بخيلهم من ناحية ضيقة به، فنقلوا المعركة جزئيًّا إلى معسكر المسلمين وراء الخندق.

فقد اقتحم عمرو بن عبد ود العامري وعكرمة بن أبي جهل المخزومي وضرار بن الخطاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ونوفل بن عبد الله.. اقتحم هؤلاء الفرسان ـ وكلهم من قريش ـ بخيلهم مضيقًا في الخندق، فسارع إلى ملاقاتهم ذوو النجدة والبأس من المسلمين، فأخذوا عليهم أولًا الطريق الذي اجتازوه، فقطعوا عليهم خط الرجعة، حيث احتلوا فم المضيق الذي اقتحموه، ثم اشتبكوا معهم في معركة سريعة عنيفة حتى أبادوا أكثرهم، وأجبروا الباقين على الفرار». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٨٦].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: ثُمَّ إِنَّ رُؤَسَاءَهُمْ أَجْمَعُوا أَنْ يَغْدُوَا جَمِيعًا، فَغَدَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ، وَخَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، وَعَمْرُو بْنُ العَاصِ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ، وَنَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ المَخْزُومِيُّ، وَعَمْرُو بْنُ عَبْدٍ وَنَوْفَلُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الدِّيلِيُّ، فِي عِدَّةٍ فَجَعَلُوا يُطِيفُونَ بِالخَنْدَقِ وَمَعَهُ رُؤَسَاءُ غَطَفَانَ ـ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَمَسْعُودُ بْنُ رُخَيْلَةَ وَالحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ؛ وَمِنْ سُلَيْمٍ رُؤَسَاؤُهُمْ وَمِنْ بَنِي أَسَدٍ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ.

وَتَرَكُوا الرِّجَالَ مِنْهُمْ خُلُوفًا، يَطْلُبُونَ مُضِيقًا يُرِيدُونَ يَقْتَحِمُونَ خَيْلَهُمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فَانْتَهَوْا إِلَى مَكَانٍ قَدْ أَغْفَلَهُ المُسْلِمُونَ فَجَعَلُوا يُكْرِهُونَ خَيْلَهُمْ وَيَقُولُونَ: **هَذِهِ المَكِيدَةُ مَا كَانَتْ العَرَبُ تَصْنَعُهَا وَلا تَكِيدُهَا.**

قَالُوا: إِنَّ مَعَهُ رَجُلًا فَارِسِيًّا، فَهُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِهَذَا.

قَالُوا: فَمَنْ هُنَاكَ إِذًا؟ فَعَبَرَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَنَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ، وَعَمْرُو بْنُ عَبْدٍ، وَقَامَ سَائِرُ المُشْرِكِينَ مِنْ وَرَاءِ الخَنْدَقِ لا يَعْبُرُونَ، وَقِيلَ لأَبِي سُفْيَانَ: أَلا تَعْبُرُ؟ قَالَ: قَدْ عَبَرْتُمْ فَإِنْ احْتَجْتُمْ إِلَيْنَا عَبَرْنَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٠].

بين فارس الإسلام وفارس الجاهلية:

وكان عمرو بن عبد ود العامري (وهو كبش الكتيبة) قد حضر معركة بدر الكبرى وذاق مرارة الهزيمة بعد أن جُرح في المعركة، فنذر أن لا يمس رأسه دهنًا حتى يقتل محمدًا، ولهذا كان أول الفرسان المقتحمين بخيلهم الخندق نحو المسلمين، فالتقى به علي بن أبي طالب ﷺ فبارزه حتى قتله.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ تَيَمَّمُوا (قصدوا) مَكَانًا ضَيِّقًا [١] مِنَ الخَنْدَقِ، فَضَرَبُوا خَيْلَهُمْ فَاقْتَحَمَتْ (اقتحم في الأمر رمي بنفسه فيه من غير رويّة) مِنْهُ، فَجَالَتْ بِهِمْ فِي السَّبْخَةِ (هي الأرض الملحة النازة) بَيْنَ الخَنْدَقِ وَسَلعٍ، وَخَرَجَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فِي نَفَرٍ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَخَذُوا عَلَيْهِمُ الثُّغْرَةَ (الثلمة وهي موضع المخافة من أطراف البلاد) الَّتِي أَقْحَمُوا مِنْهَا خَيْلَهُمْ، وَأَقْبَلَتْ الفُرْسَانُ تُعْنِقُ (نوع من سير الإبل والخيل وهو الوسط بين السريع والبطيء) نَحْوَهُمْ، وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ قَدْ قَاتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ الجِرَاحَةُ فَلَمْ يَشْهَدْ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الخَنْدَقِ خَرَجَ مُعْلِمًا (المعلم الذي يجعل له علامة يعرف بها) لِيُرَى مَكَانُهُ، فَلَمَّا وَقَفَ هُوَ وَخَيْلُهُ قَالَ: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَبَرَزَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فَقَالَ لَهُ: يَا عَمْرُو! إِنَّكَ قَدْ كُنْتَ عَاهَدْتَ اللهَ أَلَّا يَدْعُوكَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى إِحْدَى خَلَّتَيْنِ إِلَّا أَخَذْتَهَا مِنْهُ، قَالَ لَهُ: أَجَل، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ، وَإِلَى رَسُولِهِ، وَإِلَى الإِسْلَامِ، قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى النِّزَالِ، فَقَالَ لَهُ: لِمَ يَا ابْنَ أَخِي؟ فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: لَكِنِّي وَاللهِ أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، فَحَمِيَ عَمْرُو عِنْدَ ذَلِكَ، فَاقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ فَعَقَرَهُ وَضَرَبَ وَجْهَهُ [٢]، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ ﷺ، فَتَنَازَلَا وَتَجَاوَلَا، فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ.

وَخَرَجَتْ خَيْلُهُمْ مُنْهَزِمَةً حَتَّى اقْتَحَمَتْ مِنَ الخَنْدَقِ هَارِبَةً. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٤-٢٢٥].

قال السهيلي: «وَوَقَعَ فِي مَغَازِي ابْنِ إِسْحَاقَ مِنْ غَيْرِ رِوَايَةِ ابْنِ هِشَامٍ عَنِ البَكَّائِيِّ فِيهَا زِيَادَةٌ حَسَنَةٌ رَأَيْت أَنْ أُورِدَهَا هُنَا تَتْمِيمًا لِلْخَبَرِ. [رواه أيضًا الحافظ البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٤٣٨-٤٣٩].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّ عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ خَرَجَ فَنَادَى: هَل مِنْ مُبَارِزٍ؟ فَقَامَ عَلِيٌّ ﷺ، وَهُوَ مُقَنَّعٌ فِي الحَدِيدِ، فَقَالَ: أَنَا لَهُ يَا نَبِيَّ اللهِ، فَقَالَ: «إِنَّهُ عَمْرٌو اجْلِسْ»، وَنَادَى عَمْرٌو: أَلَا رَجُلٌ؟ وَهُوَ يُؤَنِّبُهُمْ وَيَقُولُ: أَيْنَ جَنَّتُكُمُ الَّتِي تَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ دَخَلَهَا؟ أَفَلَا تُبْرِزُونَ لِيَ رَجُلًا؟ فَقَامَ عَلِيٌّ ﷺ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «اجْلِسْ»، ثُمَّ نَادَى الثَّالِثَةَ فَقَالَ:

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّدَا ... ءِ بِجَمْعِكُمْ: هَلْ مِنْ مُبَارِزْ؟
وَوَقَفْتُ إِذْ جَبُنَ الْمُشَجّـ ... ـجَّعُ مَوْقِفَ القِرْنِ الْمُنَاجِزْ
وَلِـذَاكَ إِنِّي لَمْ أَزَلْ ... مُتَسَرِّعًا قَبْلَ الهَزَاهِزْ [٣]

---

(١) قال بعض المؤرخين: «إن هذا المكان أغفله المسلمون، ويمكن أن يقال: إنه لصعوبة المكان وصلابته؛ ولأن المنطقة كما هو معروف ـ أكثرها صخرية ـ كان هذا المكان ضيقًا، والله أعلم». مرويات غزوة الخندق ٢٩٢.

(٢) هذا من تقاليد العرب المرعية ـ حتى في الجاهلية ـ وهو أنه ـ وقت المبارزة ولكي يتم التكافؤ ـ لابد من أن ينزل الفارس من على فرسه ليبارز خصمه راجلًا مثله.

(٣) الهَزَاهِزْ: الفتن يهتز فيها الناس.

إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الفَتَى وَالجُودَ مِنْ خَيْرِ الغَرَائِزْ

فَقَامَ عَلِيٌّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَنَا لَهُ، فَقَالَ: «إِنَّهُ عَمْرٌو»، قَالَ: وَإِنْ كَانَ عَمْرًا، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَمَشَى إِلَيْهِ عَلِيٌّ ﷺ حَتَّى أَتَاهُ وَهُوَ يَقُولُ:

لَا تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أَتَا كَ مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرُ عَاجِزْ
ذُو نِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ وَالصِّدْقُ مَنْجَى كُلِّ فَائِزْ
إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أُقِيـ ـمَ عَلَيْكَ نَائِحَةَ الجَنَائِزْ
مِنْ ضَرْبَةٍ نَجْلَاءَ يَبْـ ـقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الهَزَاهِزْ

فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا عَلِيٌّ، قَالَ: ابْنُ عَبْدِ مَنَافٍ؟ فَقَالَ: أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: غَيْرُكَ يَا ابْنَ أَخِي، وَمِنْ أَعْمَامِكَ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ، فَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أُهَرِيقَ دَمَكَ، فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: لَكِنِّي وَالله لَا أَكْرَهُ أَنْ أُهَرِيقَ دَمَكَ، فَغَضِبَ، فَنَزَلَ وَسَلَّ سَيْفَهُ كَأَنَّهُ شُعْلَةُ نَارٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَ عَلِيٍّ مُغْضَبًا، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ عَلَى فَرَسِهِ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: كَيْفَ أُقَاتِلُكَ وَأَنْتَ عَلَى فَرَسِكَ؟ وَلَكِنِ انْزِلْ مَعِي، فَنَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَ عَلِيٍّ، وَاسْتَقْبَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ بِدَرَقَتِهِ، فَضَرَبَهُ عَمْرٌو فِيهَا فَقَدَّهَا وَأَثْبَتَ فِيهَا السَّيْفَ، وَأَصَابَ رَأْسَهُ فَشَجَّهُ، وَضَرَبَهُ عَلِيٌّ ﷺ عَلَى حَبْلِ العَاتِقِ فَسَقَطَ، وَثَارَ العَجَاجُ، وَسَمِعَ رَسُولُ الله ﷺ التَّكْبِيرَ، فَعَرَفَ أَنَّ عَلِيًّا قَدْ قَتَلَهُ، فَثَمَّ عَلِيٌّ ﷺ يَقُولُ:

أَعَلِيَّ تَقْتَحِمُ الفَوَارِسُ هَكَذَا عَنِّي وَعَنْهُ أَخَّرُوا أَصْحَابِي
اليَوْمَ تَمْنَعُنِي الفِرَارَ حَفِيظَتِي وَمُصَمِّمٌ فِي الرَّأْسِ لَيْسَ بِنَابِي
أَدَّى عُمَيْرٌ حِينَ أُخْلِصَ صَقْلُهُ صَافِي الحَدِيدَةِ يَسْتَفِيضُ ثَوَابِي
فَغَدَوْتُ أَلْتَمِسُ القِرَاعَ بِمُرْهَفٍ عَضْبٍ مَعَ البَتْرَاءِ فِي أَقْرَابِ
قَالَ ابْنُ عَبْدٍ حِينَ شَدَّ أَلِيَّةً وَحَلَفْتُ فَاسْتَمِعُوا مَنِ الكَذَّابِ
أَلَّا يَفِرَّ وَلَا يُهَلِّلَ فَالتَقَى رَجُلَانِ يَلْتَقِيَانِ كُلَّ ضِرَابِ

فَذَكَرَ أَبْيَاتًا آخِرُهُنَّ:

عَبَدَ الحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ عَقْلِهِ وَعَبَدْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِ

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلِيٌّ ﷺ نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُتَهَلِّلٌ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ: هَلَّا سَلَبْتَهُ دِرْعَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي العَرَبِ دِرْعٌ خَيْرٌ مِنْهَا، فَقَالَ: إِنِّي حِينَ ضَرَبْتُهُ اسْتَقْبَلَنِي بِسَوْأَتِهِ فَاسْتَحْيَيْتُ ابْنَ عَمِّي أَنْ أَسْتَلِبَهُ.

وَخَرَجَتْ خَيْلُهُمْ مُنْهَزِمَةً حَتَّى اقْتَحَمَتْ الخَنْدَقَ هَارِبَةً، فَمِنْ هُنَا لَمْ يَأْخُذْ عَلِيٌّ ﷺ سَلَبَهُ، وَقِيلَ: تَنَزَّهَ عَنْ أَخْذِهَا، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا قَتَلُوا القَتِيلَ لَا يَسْلُبُونَهُ ثِيَابَهُ. [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣١٦-٣١٩، والحاكم في المستدرك ٣/ ٣٢-٣٣ في المغازي والسرايا رقم ٤٣٢٩، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٣٠٨، ٩/ ١٣٢].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَجعَلَ عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ يَدْعُو إِلَى البِرَازِ، وَيَقُولُ:

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّدَا ءِ لِجَمْعِكُمْ هَل مِنْ مُبَارِزْ

وَعَمْرٌو يَوْمَئِذٍ ثَائِرٌ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا فَارْتُثَّ جَرِيحًا فَلَمْ يَشْهَدْ أُحُدًا، وَحَرَّمَ الدُّهْنَ حَتَّى يَثْأَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبِيرٌ ـ يُقَالُ: بَلَغَ تِسْعِينَ سَنَةً.

فَلَمَّا دَعَا إِلَى البِرَازِ، قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: أَنَا أُبَارِزُهُ يَا رَسُولَ الله! ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ الطَّيْرُ؛ لِمَكَانِ عَمْرٍو وَشَجَاعَتِهِ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ الله ﷺ سَيْفَهُ، وَعَمَّمَهُ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَعِنْهُ عَلَيْهِ**»، قَالَ: وَأَقْبَلَ عَمْرٌو يَوْمَئِذٍ وَهُوَ فَارِسٌ وَعَلِيٌّ ﷺ رَاجِلٌ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: إِنَّكَ كُنْتَ تَقُولُ فِي الجَاهِلِيَّةِ: لا يَدْعُونِي أَحَدٌ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْ ثَلاثٍ إِلَّا قَبِلْتُهَا، قَالَ: أَجَل.

قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُسْلِمَ لله رَبِّ العَالَمِينَ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، أَخِّرْ هَذَا عَنِّي، قَالَ: فَأُخْرَى، تَرْجِعُ إِلَى بِلادِكَ، فَإِنْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ صَادِقًا كُنْتَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ غَيْرَ ذَلِكَ كَانَ الَّذِي تُرِيدُ، قَالَ: هَذَا مَا لا تَتَحَدَّثُ بِهِ نِسَاءُ قُرَيْشٍ أَبَدًا، وَقَدْ نَذَرْتُ مَا نَذَرْتُ وَحَرَّمْتُ الدُّهْنَ، قَالَ: فَالثَّالِثَةُ؟ قَالَ: البِرَازُ، قَالَ: فَضَحِكَ عَمْرٌو، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الخَصْلَةُ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنَ العَرَبِ يُرَوِّمُنِي عَلَيْهَا، إِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ أَقْتُلَ مِثْلَكَ، وَكَانَ أَبُوكَ لِي نَدِيمًا، فَارْجِعْ فَأَنْتَ غُلامٌ حَدَثٌ، إِنَّمَا أَرَدْتُ شَيْخَيْ قُرَيْشٍ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ.

قَالَ: فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى الْمُبَارَزَةِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، فَأَسِفَ عَمْرٌو وَنَزَلَ وَعَقَلَ فَرَسَهُ.

فَكَانَ جَابِرٌ ﷺ يُحَدِّثُ يَقُولُ: فَدَنَا أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ وَثَارَتْ بَيْنَهُمَا غَبَرَةٌ فَمَا نَرَاهُمَا، فَسَمِعْنَا التَّكْبِيرَ تَحْتَهَا فَعَرَفْنَا أَنَّ عَلِيًّا قَتَلَهُ، فَانْكَشَفَ أَصْحَابُهُ الَّذِينَ فِي الخَنْدَقِ هَارِبِينَ وَطَفَرَتْ بِهِمْ خَيْلُهُمْ، إِلَّا أَنَّ نَوْفَلَ بْنَ عَبْدِ الله وَقَعَ بِهِ فَرَسُهُ فِي الخَنْدَقِ، فَرُمِيَ بِالحِجَارَةِ حَتَّى قُتِلَ، وَرَجَعُوا هَارِبِينَ وَخَرَجَ فِي أَثَرِهِمْ الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَنَاوَشُوهُمْ سَاعَةً. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٠-٤٧١].

قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: «وَقُتِلَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْخَنْدَقِ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، ثُمَّ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ حَسَلٍ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وَدِّ بْنِ نَصْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ حَسَلٍ، قَتَلَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ» .

[المستدرك على الصحيحين للحاكم في المغازي ٣/ ٣٦ رقم ٤٣٣١، وقال الشيخ الصوياني: حديثٌ حسنٌ وسنده ضعيف، لأنه مرسل ابن شهاب. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٢٦].

وقد ذَكَر المتقي الهندي خبر مبارزة علي ﷺ لعمرو، وذكر بأن المحاملي أورده في أماليه وفيه زيادةٌ هذا نصها: عن ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «سَمِعْتُ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ: جَاءَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وَدٍّ فَجَعَلَ يَجُولُ بفرسه حتى جاوز الخَنْدَقَ ... إلى أن قال ﷺ: «**اخْرُجْ يَا عَلِيُّ**»، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: مَنْ أَنْتَ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أَنَا

عَلِيٌّ، فَقَالَ: إِنَّ أَبَاكَ كَانَ نَدِيمًا لِي، لَا أُحِبُّ قِتَالَكَ... إلى أن قال عمرو: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَقْتَلَ حَمْزَةَ فَسَبَقَنِي إِلَيْهِ وَحْشِيٌّ، ثُمَّ إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَقْتَلَ مُحَمَّدًا، قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: «فَانْزِلْ»، فَنَزَلَ، فَاخْتَلَفَا فِي الضَّرْبَةِ، فَضَرَبَهُ عَلِيٌّ ﷺ فَقَتَلَهُ». [كنز العمال ١٠/ ٤٥٦-٤٥٧ رقم ٣٠١٠٦].

وذكروا أيضًا أن عليًّا ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الخندق: «**اللَّهُمَّ، إِنَّكَ أَخَذْتَ عُبَيْدَةَ بنَ الحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَحَمْزَةَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبَ يَوْمَ أُحُدٍ، وهَذَا عَلِيٌّ، فَلاَ تَذَرْنِي فَرْدًا، وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ**».

[كنز العمال ١٠/ ٤٥٦ رقم ٣٠١٠٥ وعزاه إلى الديلمي].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فِي ذَلِكَ:

نَصَرَ الحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ ... وَنَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِي

فَصَدَدْتُ حِينَ تَرَكْتُهُ مُتَجَدِّلًا ... كَالجِذْعِ بَيْنَ دَكَادِكٍ وَرَوَابِي

وَعَفَفْتُ عَنْ أَثْوَابِهِ وَلَوْ أَنَّنِي ... كُنْتُ المُقَطَّرَ بَزَّنِي أَثْوَابِي (١)

لَا تَحْسَبُنَّ اللهَ خَاذِلَ دِينِهِ ... وَنَبِيِّهِ يَا مَعْشَرَ الأَحْزَابِ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَأَكْثَرُ أَهْلِ العِلمِ بِالشِّعْرِ يَشُكُّ فِيهَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ. [السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٥].

قال الحاكم: سمعت الأصم، قال: سمعت العطاردي، قال: سمعت الحافظ يحيى بن آدم يقول: ما شبهت قتل علي عمرًا إلا بقوله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾[البقرة: ٢٥١].

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٣٥].

شعر حسان ﷺ في هرب عكرمة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَلْقَى عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ رُمْحَهُ يَوْمَئِذٍ وَهُوَ مُنْهَزِمٌ عَنْ عَمْرٍو، فَقَالَ حَسَّانُ ابْنُ ثَابِتٍ ﷺ فِي ذَلِكَ:

فَرَّ وَأَلْقَى لَنَا رُمْحَهُ ... لَعَلَّكَ عِكْرِمَ لَمْ تَفْعَلِ

وَوَلَّيْتَ تَعْدُو كَعَدْوِ الظَّلِيمِ (٢) ... مَا إِنْ تَجُورَ عَنْ المَعْدِلِ

وَلَمْ تَلْقَ ظَهْرَكَ مُسْتَأْنِسًا ... كَأَنَّ قَفَاكَ قَفَا فُرْعُلِ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الفُرْعُلُ صَغِيرُ الضِّبَاعِ، وَهَذِهِ الأَبْيَاتُ فِي أَبْيَاتٍ لَهُ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٦].

---

(١) **المقطر**: هو الذي يلقي على قطره ـ وتقطر ـ تهيأ للقتال ورمي بنفسه من علو. **وبزّني**: سلبني ثيابي أو أي شيء كان معي. القاموس المحيط ٢/ ١١٦، ١١٩.

(٢) **الظليم**: ذكر النعام.

انهزام الفرسان الفدائيين:

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن تم القضاء على فارس قريش قائد رعيل [١] الفدائيين من فرسانهم (عمرو بن عبد ود) فر باقي أفراد الرعيل القرشي وخرجت بهم خيلهم مسرعة تسابق الريح منهزمة نحو المضيق الذي اقتحموه من الخندق.

فطاردهم بعض فرسان المسلمين، ولحق الزبير بن العوام ﷺ بنوفل بن عبد الله فضربه بالسيف حتى شقه نصفين، ووصلت الضربة إلى كاهل الفرس. [غزوة الأحزاب لباشميل ١٨٩-١٩٠].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَيُقَالُ: حَمَلَ الزُّبَيْرُ عَلَى نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الـمُغِيرَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى شَقَّهُ بِاثْنَيْنِ وَقُطِعَ أَنْدُوجُ سَرْجِهِ ـ وَالأَنْدُوجُ اللَّبْدُ الَّذِي يَكُونُ تَحْتَ السَّرْجِ ـ وَيُقَالُ: إِلَى كَاهِلِ الفَرَسِ، فَقِيلَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا رَأَيْنَا سَيْفًا مِثْلَ سَيْفِكَ، فَيَقُولُ: وَاللهِ مَا هُوَ بِالسَّيْفِ وَلَكِنَّهَا السَّاعِدُ، وَهَرَبَ عِكْرِمَةُ وَهُبَيْرَةُ فَلَحِقَا بِأَبِي سُفْيَانَ وَحَمَلَ الزُّبَيْرُ عَلَى هُبَيْرَةَ فَضَرَبَ ثُفْرَ (السير في مؤخر السرج) فَرَسِهِ فَقَطَعَ ثُفْرَ فَرَسِهِ وَسَقَطَتْ دِرْعٌ كَانَ مُحْقِبَهَا الفَرَسَ، فَأَخَذَ الزُّبَيْرُ الدِّرْعَ وَفَرَّ عِكْرِمَةُ وَأَلْقَى رُمْحَهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٠-٤٧١، ٤٧٢].

وعَنْ عِكْرِمَةَ ﷺ قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الخَنْدَقِ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُمْ يَا زُبَيْرُ»، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَاحِدِي، فَقَالَ: قُمْ يَا زُبَيْرُ! فَقَامَ الزُّبَيْرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّهُمَا عَلَا صَاحِبُهُ قَتَلَهُ»، فَعَلَاهُ الزُّبَيْرُ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ بِسَلَبِهِ، فَنَفَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٧ في المغازي (٣٧٩٧٨)، وقال الشيخ عوامة: «الحديث مرسل، وقد رواه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والبيهقي ...»].

يقول أ/ باشميل: «كما أن الزبير ﷺ أيضًا طارد فارسًا آخر من رعيل الفدائيين القرشيين ـ وهو هبيرة بن أبي وهب ـ فضرب ثغر فرسه فقطعه ولكنه تمكن من الفرار.

وقد حاول فارسان فدائيان من فرسان قريش الفدائيين الانتقام لقائدهم ـ عمرو بن عبد ود ـ وهما ضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب، حاول هذان الفارسان الفتك بعلي بن أبي طالب ﷺ، ولكنه صمد لهما وقاتلها حتى هزمهما.

وهكذا انتهت المعركة الجانبية ـ التي نقلها الفدائيون القرشيون إلى حيث يرابط المسلمون وراء الخندق ـ انتهت هذه المعركة الجانبية بالقضاء على كل أفراد رعيل الفرسان بأفراسهم، وهم ضرار بن الخطاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وعكرمة بن أبي جهل المخزومي، الذي ألقى برمحه عندما فر من المعركة.

---

(١) الفصيل يطلق على مجموعة من المشاة (٣٠-٤٠)، ويطلق على مثلها من الفرسان: رعيل. محمود شيت خطاب.

أما المسلمون فلم يُصب أحد منهم أثناء هذه المعركة الجانبية اللهم إلا جرح بسيط أصاب علي بن أبي طالب ﷺ في رأسه، وذلك عند مبارزته لعمرو بن عبد ود العامري». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٩٠-١٩١].

قريش تطلب جثة فارسها:

وبعد انتهاء المعركة الجانبية بعث قادة قريش إلى النبي ﷺ، يعرضون عليه عشرة آلاف ثمنًا لجثة فارسهم (عمرو بن عبد ود) أو نوفل بن عبد الله، فأبى النبي ﷺ أن يأخذ الثمن.

روى الإمام أحمد والترمذي والبيهقي عن ابن عباس ﷺ قال: قتل المسلمون يوم الخندق رجلًا من المشركين، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا بجسده، ونعطيكم اثني عشر ألفًا، فقال رسول الله ﷺ: «**لا خَيْرَ فِي جِيفَتِهِ وَلَا فِي ثَمَنِهِ، ادْفَعُوه إِلَيْهِمْ فَإِنَّهُ خَبِيثُ الجِيفَةِ خَبِيثُ الدِّيَةِ**»، فلم يقبل منهم شيئًا.

وذكر ابن عقبة: أن المشركين لما بعثوا يطلبون جسد نوفل بن عبد الله المخزومي حين قُتل، وعرضوا عليه الدية، فقال: **إنه خَبِيثُ الدِّيَةِ، فَلَعَنَهُ اللهُ وَلَعَنَ دِيَتَهُ، فَلَا أَرَبَ لَنَا فِي دِيَتِهِ، وَلَسْنَا نَمْنَعُكُمْ أَنْ تَدْفِنُوهُ**».

[سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥٣٥-٥٣٦].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَرَادُوا أَنْ يَشْتَرُوا جَسَدَ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبِيعَهُمْ إِيَّاهُ. [الترمذي في الجهاد (١٧١٥)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد].

وروى البيهقي بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا، مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُتِلَ يَوْمَ الأَحْزَابِ، فَبَعَثَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِ ابْعَثْ إِلَيْنَا بِجَسَدِهِ، وَنُعْطِيهِمُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا خَيْرَ فِي جَسَدِهِ، وَلَا فِي ثَمَنِهِ**». [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٤٠].

وعَنْ عِكْرِمَةَ ﷺ أَنَّ نَوْفَلًا أَوِ ابْنَ نَوْفَلٍ تَرَدَّى بِهِ فَرَسُهُ يَوْمَ الخَنْدَقِ فَقُتِلَ، فَبَعَثَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِدِيَتِهِ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «**خُذُوهُ؛ فَإِنَّهُ خَبِيثُ الدِّيَةِ، خَبِيثُ الجِيفَةِ**».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٧-٣٨٨ في المغازي (٣٧٩٧٩)، وقال الشيخ عوامة: «هذا حديث مرسل رجال إسناده ثقات»].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَأَرْسَلَتْ بَنُو مَخْزُومٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَطْلُبُونَ جِيفَةَ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ يَشْتَرُونَهَا بِالدِّيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا هِيَ جِيفَةُ حِمَارٍ**»، وَكَرِهَ ثَمَنَهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٤].

وروى أبو نعيم: أن رجلا من آل المغيرة قال: لأقتلن محمدًا، فأوثب فرسه في الخندق، فوقع، فاندقت عنقه، فقالوا: يا محمد ادفعه إلينا نواره، وندفع إليك ديته، فقال: «**خُذُوهُ، فَإِنَّهُ خَبِيثُ الدِّيَةِ**».

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٣٦].

وقد حملت قريش جثة فارسها إلى معسكرها.

وبهذا فشل رعيل الفدائيين من فرسان مكة في مهمته وعاد يجر أذيال الخيبة والهزيمة بعد أن قتل المسلمون أكثر أفراد هذا الرعيل.

ويظهر أن قيادة الأحزاب قررت القيام بهذه المغامرة لاختبار مدى قوة المسلمين الحربية، ومعرفة ما إذا كان الحصار الخانق قد أثر على معنوياتهم أم لا؟

رد فعل الهزيمة في نفوس الأحزاب:

يقول أ/ باشميل: «وكانت تهدف قريش ـ على ما يظهر من وراء قيام فرسانها بهذه المغامرة، مواصلة القيام بمثل هذه الحركات الخاطفة ـ إذا ما نجحت التجربة التي قام بها الفرسان عبر الخندق ـ لأن قادة الأحزاب أدركوا أنه مع وجود الخندق حاجزًا بينهم وبين عدوهم يستحيل عليهم القيام بأي هجوم شامل على مواقع المسلمين وراء الخندق، وخاصة من ناحية المشاة الذين يشكلون الأغلبية الساحقة في جيوش الأحزاب؛ ولهذا قرر قادة الأحزاب الاعتماد على سلاح الفرسان ليكون هو السلاح الرئيس في المعركة التي كانوا ينوون نقلها إلى معسكر المسلمين ذاته، لا سيما وأنهم على موعد مع يهود بني قريظة ليضرب هؤلاء اليهود المسلمين من الخلف ساعة الصفر.

ولكن فشل رعيل الفرسان هذا في المغامرة التي قام بها رجاله، والتي انتهت بالقضاء على أكثرهم وفرار الباقين منهم، أكدت لقادة الأحزاب أن كل هذه الزلازل والمحن والبلايا التي أحاطت بالمسلمين (على قلتهم وكثرة عدوهم) لم يكن له أي تأثير على قوتهم المعنوية، وأن ذلك كله لم يزدهم إلا ثباتًا وضراوة وإيمانًا وتلهفًا للاستشهاد في سبيل الله.

توقف قريش عن مغامرات القفز بالخيل:

ولهذا كفت قيادة الأحزاب عن مغامراتها الحربية، فتوقفت عمليات قفز الفرسان الأشداء بخيلهم عبر الخندق، فلم يستطع فرسان الأحزاب القيام بأية مغامرة من هذا النوع ـ بعد تلك المغامرة الفاشلة التي قتل فيها المسلمون فارس قريش عمرو بن عبد ود ـ حتى انسحاب الأحزاب نهائيًّا.

ولكن الأحزاب، إذا كانوا قد أوقفوا عمليات المغامرة عن طريق قفز الخيل عبر الخندق، فإنهم من ناحية أخرى قد شددوا الحصار على المسلمين وضاعفوا من عمليات الضغط عليهم، فكأنهم أرادوا الاعتماد على حرب الأعصاب المرهقة عن طريق إرهاب المسلمين وإزعاجهم والجلب عليهم بالخيل والرجل وكل وسائل الإعنات والتخويف لعل ذلك يوهن من قوة المسلمين المعنوية التي هي السلاح الوحيد الرئيس الذي بقي في أيديهم أمام هذه الجيوش الهائلة الجبارة التي تطبق عليهم من كل مكان.

(وفعلًا) لقد تقاطرت البلايا (من جديد) وتضخمت متاعب الجيش الصغير القابع وراء خطوطه خلف الخندق وكأنه نقطة يابسة بيضاء وسط بحر محيط هائج أسود، وبلغ الكرب والضيق والشدة (من جديد) بالرسول ﷺ وصفوة أصحابه الأوفياء مبلغًا عظيمًا لم يكن ليصمد معه ويثبت إلا من كان على مستوى محمد ﷺ وصحبه الأبرار ﷺ إيمانًا وعزيمة وثقة بالله واطمئنانًا بوعده».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٩٢-١٩٣].

خالد بن الوليد والهجوم على مقر قيادة الرسول ﷺ:

قام أسيد بن حضير ﷺ في مائتين على شفير الخندق فكرت خيل المشركين يطلبون غرة (وعليها خالد بن الوليد) فناوشهم ساعة، فزرق وحشيٌّ (قاتل حمزة بن عبد المطلب) الطفيلَ بن النعمان بن خنساء الأنصاري، بمزراق، فقتله ـ كما قتل حمزة ﷺ بأحد.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَلَمَّا رَجَعُوا ـ بعد مقتل عمرو بن عبد ود ـ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: هَذَا يَوْمٌ لَمْ يَكُنْ لَنَا فِيهِ شَيْءٌ ارْجِعُوا، فَنَفَرَتْ قُرَيْشٌ فَرَجَعَتْ إِلَى العَقِيقِ، وَرَجَعَتْ غَطَفَانُ إِلَى مَنَازِلِهَا، وَاتَّعَدُوا يَغْدُونَ جَمِيعًا وَلا يَتَخَلَّفُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَبَاتَتْ قُرَيْشٌ يُعَبِّؤُونَ أَصْحَابَهُمْ، وَبَاتَتْ غَطَفَانُ يُعَبِّؤُونَ أَصْحَابَهُمْ وَوَافَوْا رَسُولَ الله ﷺ بِالخَنْدَقِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ.

وَعَبَّأَ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَهُ وَحَضَّهُمْ عَلَى القِتَالِ وَوَعَدَهُمُ النَّصْرَ إِنْ صَبَرُوا، وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ جَعَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي مِثْلِ الحِصْنِ مِنْ كَتَائِبِهِمْ فَأَخَذُوا بِكُلِّ وَجْهٍ مِنَ الخَنْدَقِ.

فَحَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ مِقْسَمٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: قَاتَلُونَا يَوْمَهُمْ وَفَرَّقُوا كَتَائِبَهُمْ وَنَحْوًا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ كَتِيبَةً غَلِيظَةً فِيهَا خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، فَقَاتَلَهُمْ يَوْمَهُ ذَلِكَ إِلَى هَوِيٍّ مِنَ اللَّيْلِ مَا يَقْدِرُ رَسُولُ الله ﷺ وَلا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَزُولُوا مِنْ مَوَاضِعِهِمْ، وَمَا يَقْدِرُ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى صَلاةِ الظُّهْرِ وَلا العَصْرِ وَلا المَغْرِبِ وَلا العِشَاءِ، فَجَعَلَ أَصْحَابُهُ يَقُولُونَ: يَا رَسُولَ الله مَا صَلَّيْنَا، فَيَقُولُ: «**وَلا أَنَا وَالله مَا صَلَّيْتُ**»، حَتَّى كَشَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى فَرَجَعُوا مُتَفَرِّقِينَ.

فَرَجَعَتْ قُرَيْشٌ إِلَى مَنْزِلِهَا، وَرَجَعَتْ غَطَفَانُ إِلَى مَنْزِلِهَا، وَانْصَرَفَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى قُبَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، وَأَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ عَلَى الخَنْدَقِ فِي مِائَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَهُمْ عَلَى شَفِيرِ الخَنْدَقِ إِذْ كَرَّتْ خَيْلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَطْلُبُونَ غِرَّةً، عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ؛ فَنَاوَشَهُمْ سَاعَةً، وَمَعَ الْمُشْرِكِينَ وَحْشِيٌّ، فَزَرَقَ الطُّفَيْلَ بْنَ النُّعْمَانِ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ بِمِزْرَاقِهِ فَقَتَلَهُ، فَكَانَ يَقُولُ: أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى حَمْزَةَ وَالطُّفَيْلَ بِحَرْبَتِي وَلَمْ يُهِنِّي بِأَيْدِيهِمَا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٢-٤٧٣].

شدة الحصار تمنع المسلمين من الصلاة:

وقد بلغت عملية الحراسة المتواصلة المضنية المرهقة التي يقوم بها النبي ﷺ وصفوة أصحابه القلائل في تلك الليالي الأخيرة المخيفة المرعبة، بلغت بهم من الجهد والإضناء والإشغال إلى درجة أن النبي ﷺ

وبعضًا من أصحابه (الذين كانوا يتولون مراقبة تحركات العدو وحراسة النقاط الإستراتيجية من الخندق) لم يتمكنوا من أداء صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء في أوقاتها.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يُصَلِّ يَوْمَ الخَنْدَقِ الظُّهْرَ وَالعَصْرَ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ.

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٢-٣٨٣ في المغازي (٣٧٩٧٠)، وقال الشيخ عوامة: «هذا من مراسيل سعيد بن المسيب، وهو معروف بالصحة، والإسناد إليه حسن»].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: حُبِسْنَا [شَغَلَنَا المُشْرِكُونَ] يَوْمَ الخَنْدَقِ [عَنِ الصَّلَاةِ] [عَنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ]، حَتَّى ذَهَبَ هَوِيٌّ مِنَ اللَّيْلِ [حَتَّى كَانَ بَعْدَ المَغْرِبِ بِهَوِيٍّ مِنَ اللَّيْلِ] [حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ]، حَتَّى كُفِينَا، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَالًا فَأَمَرَهُ فَأَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَأَحْسَنَ كَمَا كَانَ يُصَلِّيهَا فِي وَقْتِهَا، ثُمَّ أَقَامَ لِلعَصْرِ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، ثُمَّ أَقَامَ المَغْرِبَ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، ثُمَّ أَقَامَ العِشَاءَ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، [وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي القِتَالِ مَا نَزَلَ]، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي صَلَاةِ الخَوْفِ [وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي الْقِتَالِ مَا نَزَلَ].

قَالَ حَجَّاجٌ: فِي صَلَاةِ الخَوْفِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩].

[مسند أحمد ١٧/ ٢٩٣-٢٩٤ رقم ١١١٩٨، ١١١٩٩، ١٨/ ٤٥-٤٦، ١٨٧-١٨٨ رقم ١١٤٦٥، ١١٦٤٤، والنسائي في الأذان (٦٦١)، والدارمي في الصلاة (١٥٦٥)، وقال الشيوخ الأرناؤوط والألباني وأسد: إسناده صحيح].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «إِنَّ المُشْرِكِينَ شَغَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ يَوْمَ الخَنْدَقِ، حَتَّى ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى العَصْرَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى المَغْرِبَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى العِشَاءَ». [الترمذي في الصلاة (١٧٩)، وقال الترمذي: وَفِي البَابِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَجَابِرٍ، «حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ لَيْسَ بِإِسْنَادِهِ بَأْسٌ، إِلَّا أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عَبْدِ اللهِ»، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ فِي الفَوَائِتِ، أَنْ يُقِيمَ الرَّجُلُ لِكُلِّ صَلَاةٍ إِذَا قَضَاهَا، وَإِنْ لَمْ يُقِمْ أَجْزَأَهُ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ، وقال الشيخ الألباني: ضعيف، والنسائي في الأذان (٦٦٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح لغيره. ومسند أحمد ٦/ ١٧-١٨ رقم ٣٥٥٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا [فِي غَزْوَةٍ] مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَحُبِسْنَا [فَحَبَسَنَا المُشْرِكُونَ] عَنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِي سَبِيلِ اللهِ، [فَلَمَّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ] فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَالًا [مُنَادِيًا]، فَأَقَامَ [لِصَلَاةِ الظُّهْرِ] فَصَلَّى بِنَا الظُّهْرَ، ثُمَّ أَقَامَ [لِصَلَاةِ العَصْرِ] فَصَلَّى بِنَا الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقَامَ [لِصَلَاةِ المَغْرِبِ] فَصَلَّى بِنَا المَغْرِبَ، ثُمَّ أَقَامَ [لِصَلَاةِ العِشَاءِ] فَصَلَّى بِنَا الْعِشَاءَ، ثُمَّ طَافَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «مَا عَلَى الْأَرْضِ عِصَابَةٌ يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ غَيْرُكُمْ». [النسائي في المواقيت (٦٢٢)، وفي الأذان (٦٦٣)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف، ومسند أحمد ٧/ ١١٤ رقم ٤٠١٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه جَاءَ يَوْمَ الخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله! مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالله مَا صَلَّيْتُهَا»، فَنَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بُطْحَانَ، فَتَوَضَّأَ لِلصَّلاَةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا، فَصَلَّى العَصْرَ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا المَغْرِبَ.

[البخاري في المغازي (٤١١٢)، وفي مواقيت الصلاة (٥٩٦، ٥٩٨)، وفي الأذان (٦٤١)، وفي صلاة الخوف (٩٤٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٣١)، والترمذي في الصلاة (١٨٠)، و النسائي في السهو (١٣٦٦)].

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الـمُسَيَّبِ أَنَّهُ قَالَ: مَا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ الظُّهْرَ وَالعَصْرَ يَوْمَ الخَنْدَقِ حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ.

قَالَ مَالِك: وَحَدِيثُ القَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ صَالِحِ بْنِ خَوَّاتٍ أَحَبُّ مَا سَمِعْتُ إِلَيَّ فِي صَلاَةِ الخَوْفِ.

[موطأ مالك في النداء للصلاة (٤٤٣)].

دعاء النبي ﷺ على المشركين بسبب شغلهم عن الصلاة:

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ [الخَنْدَقِ] قَالَ رَسُولُ الله ﷺ [وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فُرْضَةٍ مِنْ فُرَضِ الخَنْدَقِ (هي المدخل من مداخله والمنفذ إليه)]: «مَلأَ اللهُ [اللَّهُمَّ امْلأْ] قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا كَمَا حَبَسُونَا وَشَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الوُسْطَى [صَلاَةِ الوُسْطَى] حَتَّى غَابَتْ [آبَتْ] الشَّمْسُ».

وَهِيَ صَلاَةُ العَصْرِ،، ثُمَّ صَلاَّهَا بَيْنَ العِشَاءَيْنِ، بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ.

[البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣١)، وفي المغازي (٤١١١)، وفي تفسير القرآن (٤٥٣٣)، وفي الدعوات (٦٣٩٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٢٧)، وأبو داود في الصلاة (٤٠٩)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٨٤)، والنسائي في الصلاة (٤٧٣)، وابن ماجه في الصلاة (٦٨٤)، والدارمي في الصلاة (١٢٣٢)، ومسند أحمد ٢/ ٢٩، ٥٤، ٢٤٠، ٢٨٧، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٩، ٣٩٢، ٤٠٤، ٤٢٩،٤٣٢، ٤٣٣، ٤٤٣ رقم ٥٩١، ٦١٧، ٩١١، ٩٩٤، ١١٣٢، ١١٣٤، ١١٥٠، ١١٥١، ١٢٢١، ١٢٤٦، ١٢٩٩، ١٣٠٦، ١٣٠٨، ١٣٢٧].

وعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: شَغَلُونَا يَوْمَ الأَحْزَابِ عَنْ صَلاَةِ العَصْرِ، حَتَّى سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «شَغَلُونَا عَنْ صَلاَةِ الوُسْطَى، صَلاَةِ العَصْرِ، مَلأَ اللهُ قُبُورَهُمْ، وَبُيُوتَهُمْ، وَأَجْوَافَهُمْ نَارًا».

[مسند أحمد ٢/ ٤٢٤، ٣٠٤ رقم ١٢٨٨، ١٠٣٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير شتير بن شكل فمن رجال مسلم].

وعَنْ عَبِيدَةَ [السَّلْمَانِيِّ] قَالَ: كُنَّا نَرَى أَنَّ صَلاَةَ الوُسْطَى صَلاَةُ الصُّبْحِ [الْفَجْرَ]، قَالَ: فَحَدَّثَنَا عَلِيٌّ رضي الله عنه أَنَّهُمْ يَوْمَ الأَحْزَابِ اقْتَتَلُوا وَحَبَسُونَا عَنْ صَلاَةِ العَصْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ امْلأْ قُبُورَهُمْ نَارًا أَوْ امْلأْ بُطُونَهُمْ نَارًا كَمَا حَبَسُونَا عَنْ صَلاَةِ الوُسْطَى»، قَالَ: فَعَرَفْنَا يَوْمَئِذٍ أَنَّ صَلاَةَ الوُسْطَى صَلاَةُ العَصْرِ. [مسند أحمد ٢/ ٢٨٤، ٤٣٦ رقم ٩٩٠، ١٣١٤، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: حَبَسَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ صَلَاةِ العَصْرِ حَتَّى احْمَرَّتْ الشَّمْسُ أَوْ اصْفَرَّتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ [صَلَاةِ] الوُسْطَى صَلَاةِ العَصْرِ [حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ]، مَلَأَ اللهُ أَجْوَافَهُمْ، وَقُبُورَهُمْ، [وَبُيُوتَهُمْ] نَارًا، أَوْ قَالَ: حَشَا اللهُ أَجْوَافَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا**». [مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٢٨)، وابن ماجه في الصلاة (٦٨٦)، ومسند أحمد ٦/ ٢٥٦، ٣٨٠ رقم ٣٧١٦، ٣٨٢٩، ٧/ ٣٧٥-٣٧٦ رقم ٤٣٦٥].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ العَصْرِ ـ وَلَمْ يُصَلِّهَا يَوْمَئِذٍ حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ ـ مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ نَارًا، أَوْ قُلُوبَهُمْ نَارًا، أَوْ بُيُوتَهُمْ نَارًا**». [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٣ رقم ١٠١٦١، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه أحمد ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات].

الجراحات بين كتيبتين مسلمتين:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَلَمَّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِتَالٌ جَمِيعًا حَتَّى انْصَرَفُوا، إِلَّا أَنَّهُمْ لا يَدْعُونَ يَبْعَثُونَ الطَّلَائِعَ بِاللَّيْلِ يَطْمَعُونَ فِي الغَارَةِ، وَخَرَجَتْ بَعْدَ ذَلِكَ طَلِيعَتَانِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلًا، فَالتَقَيَا وَلا يَشْعُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَلا يَظُنُّونَ إِلَّا أَنَّهُمْ العَدُوُّ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ جِرَاحَةٌ، وَقَتْلٌ، وَلَسْنَا نَعْرِفُ مَنْ قَتَلَ وَلَمْ يُسَمَّ لَنَا، ثُمَّ نَادَوْا بِشِعَارِ الإِسْلامِ وَكَفَّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَكَانَ شِعَارُهُمْ: «**حم لا يُنْصَرُونَ**».

فَجَاؤُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**جِرَاحُكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ**»، فَكَانُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا دَنَا الْمُسْلِمُونَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ نَادَوْا بِشِعَارِهِمْ لِأَنْ يَكُفَّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلا يَرْمُونَ بِنَبْلٍ وَلا بِحَجَرٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٤].

مصادرة قافلة للعدو:

وقد استولى جيش المدينة على عشرين بعيرًا كانت محملة تمرًا وشعيرًا وتبنًا، أرسلها اليهود لقريش مددًا وتقوية، فصادرها المسلمون وأتوا بها إلى الرسول ﷺ فخفف الله بها من ضائقة المجاعة التي كان المسلمون فيها.

وكان الذي استولى على هذه القافلة دورية مسلحة من الأنصار كان قد خرج رجالها ليدفنوا ميتًا منهم في المدينة فصادفوا هذه القافلة.

قال الصالحي: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنُ رِفَاعَةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ أَبِي مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَالَ لِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ: قَدْ نَفِدَتْ عِلَافَتُنَا فَهَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عَلَفٍ؟ فَقَالَ حَيَيٌّ: نَعَمْ، فَكَلَّمَ كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ، فَقَالَ: مَالُنَا مَالُكَ فَاصْنَعْ مَا رَأَيْتَ، مُرِ الْقَوْمَ يَأْتُوا بِحَمُولَةٍ فَيَحْمِلُوا مَا أَرَادُوا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ حَيَيٌّ أَنْ ابْعَثُوا بِحَمُولَتِكُمْ تَحْمِلُ الْعَلَفَ، فَأَرْسَلُوا عِشْرِينَ بَعِيرًا، فَحَمَّلُوهَا شَعِيرًا وَتَمْرًا وَتِبْنًا، وَخَرَجُوا بِهَا إِلَى قُرَيْشٍ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِصَفْنَةَ وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْلُكُوا الْعَقِيقَ جَاؤُوا جَمْعًا مِنْ بَنِي

عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَهُمْ يُرِيدُونَ مَنَازِلَهُمْ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ يَطْلُبُونَهُمْ، وَهُمْ عِشْرُونَ رَجُلًا، فَيَهِمْ أَبُو لُبَابَةَ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، وَعُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ، وَمَعْنُ بْنُ عَدِيٍّ، خَرَجُوا لَـهُمْ مَاتَ مِنْهُمْ فِي أُطُمِهِمْ لِيَدْفِنُوهُ، فَنَاهَضُوا الْحُمُولَةَ، وَقَاتَلَهُمْ الْقُرَشِيُّونَ سَاعَةً، وَكَانَ فِيهِمْ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَمَنَعَ الْحُمُولَةَ، ثُمَّ جُرِحَ وَجَرَحَ، ثُمَّ أَسْلَمُوهَا، وَكَثَّرَهُمْ الْمُسْلِمُونَ، وَانْصَرَفُوا بِهَا يَقُودُونَهَا، حَتَّى أَتَوْا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَدَفَنُوا مَيِّتَهُمْ، ثُمَّ سَارُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ بِهَا، فَكَانَ أَهْلُ الْخَنْدَقِ يَأْكُلُونَ مِنْهَا، فَتَوَسَّعُوا بِذَلِكَ، وَأَكَلُوهُ حَتَّى نَفِدَ، وَنَحَرُوا مِنْ تِلْكَ الْإِبِلِ أَبِعِرَةً فِي الْخَنْدَقِ، وَبَقِيَ مِنْهَا مَا بَقِيَ حَتَّى دَخَلُوا بِهِ الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا رَجَعَ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ أَخْبَرَهُمْ الْخَبَرَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: إِنَّ حُبَيًّا لَـمَشْؤُومٌ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَطَعَ بِنَا، مَا نَجِدُ مَا نَتَحَمَّلُ عَلَيْهِ إِذَا رَجَعْنَا. [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٣٩-٥٤٠].

أبو سفيان ونشاط خيل المشركين:

ولقد تزايد نشاط خيل المشركين، فكانت هذه الخيل تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح، فتخلفها أعداد أخرى طول النهار حتى الليل، وأصحابها يطمعون في أن يأخذوا المسلمين على حين غرة، مما جعل البلاء يشتد والجهد ينال منهم إلى قرب درجة الإعياء.

فقد أجبرهم في ليالي الخندق الأخيرة نشاط خيل المشركين المتزايد حول الخندق على السهر طول الليل حتى الصباح، وذلك للقيام بأعمال الدورية لحراسة مشارف الخندق خوفًا من أن تأخذهم خيل العدو على حين غرة.

وقد كان الرسول القائد ﷺ ـ عندما اشتد ضغط خيل الأحزاب ـ يقوم بنفسه ليلًا لحراسة أخطر نقطة في الخندق يخشى المسلمون أن يأتيهم المشركون عن طريقها.

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ بِالْخَنْدَقِ فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَتَعَاهَدُ ثُغْرَةً مِنَ الْجَبَلِ يَخَافُ مِنْهَا فَيَأْتِي فَيَضْطَجِعَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَسَمَّعُ، فَسَمِعَ حِسَّ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ الْحَدِيدُ، فَانْسَلَّ فِي الْجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ هَذَا؟»، قَالَ: **أَنَا سَعْدٌ، جِئْتُكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ**، فَأَمَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَبِيتَ فِي تِلْكَ الثُّغْرَةِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَنَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي حِجْرِي حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: **لا أَنْسَاهَا لِسَعْدٍ**. [مجمع الزوائد ٦/ ١٩٦-١٩٧ في المغازي والسير (١٠١٥٢)، وقال الهيثمي: رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف، وفي الصحيح طرف منه].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَكَانَتْ عَائِشَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ لَيْلَةً، وَنَحْنُ بِالْخَنْدَقِ لا أَزَالُ أُحِبُّهُ أَبَدًا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَخْتَلِفُ إِلَى ثُلْمَةٍ فِي الْخَنْدَقِ يَحْرُسُهَا، حَتَّى إِذَا آذَاهُ الْبَرْدُ جَاءَنِي فَأَدْفَأْتُه فِي حُضْنِي، فَإِذَا دَفِئَ خَرَجَ إِلَى تِلْكَ الثَّلْمَةِ يَحْرُسُهَا وَيَقُولُ: «**مَا أَخْشَى أَنْ يُؤْتَى النَّاسُ إِلَّا مِنْهَا**».

فَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي حُضْنِي قَدْ دَفِئَ وَهُوَ يَقُولُ: «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا يَحْرُسُنِي»، قَالَتْ: إِلَى أَنْ سَمِعْتُ صَوْتَ السِّلاحِ وَقَعْقَعَةَ الحَدِيدِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: «عَلَيْك بِهَذِهِ الثَّلْمَةِ فَاحْرُسْهَا».

قَالَتْ: وَنَامَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٣].

لقد اطمأن الرسول ﷺ إلى أن تلك النقطة الخطيرة الحساسة قد أصبحت تحت حراسة فارس يثق به، فنام، وكان متعبًا من شدة السهر، نومًا هادئًا فترة من الليل حتى غط في نومه ﷺ.

النبي ﷺ يقوم بأعمال الدورية:

وبعد أن أخذ النبي ﷺ قسطًا من النوم قام ـ قبل انقضاء الليل ـ وصلى ركعتين ثم خرج من خيمته، واتجه نحو مشارف الخندق ليشارك في القيام بأعمال الدورية، وترصد العدو الذي كان لا يكف عن الطواف بخيله حول الخندق طول الليل.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي الخَنْدَقِ فَلَمْ أُفَارِقْهُ مَقَامَهُ كُلَّهُ، وَكَانَ يَحْرُسُ بِنَفْسِهِ فِي الخَنْدَقِ، وَكُنَّا فِي قُرٍّ شَدِيدٍ فَإِنِّي لأَنْظُرُ إِلَيْهِ قَامَ فَصَلَّى مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي قُبَّتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَنَظَرَ سَاعَةً فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: «هَذِهِ خَيْلُ المُشْرِكِينَ تُطِيفُ بِالخَنْدَقِ مَنْ لَهُمْ؟» ثُمَّ نَادَى: «يَا عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ»، فَقَالَ عَبَّادٌ رضي الله عنه: لَبَّيْكَ، قَالَ: «أَمَعَكَ أَحَدٌ؟» قَالَ: نَعَمْ أَنَا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي كُنَّا حَوْلَ قُبَّتِكَ.

قَالَ: «فَانْطَلِقْ فِي أَصْحَابِكَ فَأَطِفْ بِالخَنْدَقِ فَهَذِهِ خَيْلٌ مِنْ خَيْلِهِمْ تُطِيفُ بِكُمْ يَطْمَعُونَ أَنْ يُصِيبُوا مِنْكُمْ غِرَّةً، اللَّهُمَّ ادْفَعْ عَنَّا شَرَّهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ، وَاغْلِبْهُمْ لا يَغْلِبُهُمْ غَيْرُكَ»، فَخَرَجَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فِي أَصْحَابِهِ، فَإِذَا بِأَبِي سُفْيَانَ فِي خَيْلٍ مِنَ المُشْرِكِينَ يُطِيفُونَ بِمَضِيقِ الخَنْدَقِ، وَقَدْ نَدَرَ بِهِمُ المُسْلِمُونَ فَرَمَوْهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ، فَوَقَفْنَا مَعَهُمْ فَرَمَيْنَاهُمْ حَتَّى أَذْلَقْنَاهُمْ (أضعفناهم) بِالرَّمْيِ فَانْكَشَفُوا رَاجِعِينَ إِلَى مَنْزِلِهِمْ، وَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَجِدُهُ يُصَلِّي فَأَخْبَرْتُهُ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: فَنَامَ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، فَمَا تَحَرَّكَ حَتَّى سَمِعْتُ بِلالًا يُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ وَبَيَاضِ الفَجْرِ فَخَرَجَ فَصَلَّى بِالْمُسْلِمِينَ، فَكَانَتْ تَقُولُ: يَرْحَمُ اللهُ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ، فَإِنَّهُ كَانَ أَلْزَمَ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ لِقُبَّةِ رَسُولِ الله ﷺ يَحْرُسُهَا أَبَدًا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٣-٤٦٤].

شدة أيام غزوة الأحزاب:

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها فِي قَوْلِهِ عز وجل: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، قَالَتْ: كَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الخَنْدَقِ.

[البخاري في المغازي (٤١٠٣)، ومسلم في التفسير (٣٠٢٠)].

وروى البيهقي بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[الأحزاب: ٩]، قَالَ: قَوْمُ أَبِي سُفْيَانَ يَوْمَ الأَحْزَابِ.

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾[الأحزاب]، قَالَ: هُمْ بَنُو حَارِثَةَ قَالُوا: بُيُوتُنَا مَخْلِيَّةٌ، نَخْشَى عَلَيْهَا السَّرِقَةَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ [الأحزاب: ٢٢]، قَالَ: ذَلِكَ أَنَّ اللهَ ﷻ قَالَ لَهُمْ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]، فَلَمَّا مَسَّهُمُ البَلَاءُ حَيْثُ رَابَطُوا الأَحْزَابَ فِي الخَنْدَقِ، وَتَأَوَّلَ المُؤْمِنُونَ ذَلِكَ وَلَمْ يَزِدْهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا.

وعَنْ قَتَادَةَ ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، قَالَ: أَنْزَلَ اللهُ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾، قَالَ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٣٣-٤٣٥].

وعن ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: خَفِيَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ إِلَّا عَلَى سِتَّةِ نَفَرٍ: أَرْبَعَةِ نَفَرٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ: طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعَلِيٍّ وَسَعْدٍ، وَمِنَ الأَنْصَارِ: أَبُو دُجَانَةَ وَالحَارِثُ بنُ الصِّمَّةِ. [مجمع الزوائد ٦/ ١٩٦ في المغازي والسير (١٠١٥١)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٢/ ٣٨١ رقم ١٣٤١٠] وفيه جماعة لم أعرفهم].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي قُدَامَةُ بْنُ مُوسَى، عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ قُدَامَةَ، عَنْ أَبِيهَا، قَالَ: بَعَثَنَا ابْنَ أُخْتِنَا ابْنَ عُمَرَ يَأْتِينَا بِطَعَامٍ وَخُفٍّ وَقَدْ بَلَغْنَا مِنَ الجُوعِ وَالبَرْدِ، فَخَرَجَ ابْنُ عُمَرَ حَتَّى إِذَا هَبَطَ مِنْ سَلعٍ ـ وَذَلِكَ لَيْلًا ـ غَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ حَتَّى أَصْبَحَ، فَاهْتَمَمْنَا بِهِ فَخَرَجْتُ أَطْلُبُهُ فَأَجِدُهُ نَائِمًا، وَالشَّمْسُ قَدْ ضَحَّتْهُ، فَقُلْتُ: الصَّلاةُ! أَصَلَّيْتَ اليَوْمَ؟ قَالَ: لا، قُلْتُ: فَصَلِّ، فَقَامَ سَرِيعًا إِلَى المَاءِ، وَذَهَبْتُ إِلَى مَنْزِلِنَا بِالمَدِينَةِ فَجِئْتُ بِتَمْرٍ وَلِحَافٍ وَاحِدٍ، فَكُنَّا نَلبَسُ ذَلِكَ اللِّحَافَ جَمِيعًا ـ مَنْ قَامَ مِنَّا فِي المَحْرَسِ ذَهَبَ مَقْرُورًا، ثُمَّ رَجَعَ حَتَّى يَدْخُلَ فِي اللِّحَافِ حَتَّى فَرَّجَ اللهُ ذَلِكَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٥-٤٧٦].

وروى ابن أبي شيبة عن عروة مرسلًا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ صَافَّ المُشْرِكِينَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، قَالَ: وَكَانَ يَوْمًا شَدِيدًا لَمْ يَلْقَ المُسْلِمُونَ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ: وَرَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ وَأَبُو بَكْرٍ مَعَهُ جَالِسٌ، وَذَلِكَ زَمَانُ طَلْعِ النَّخْلِ، قَالَ: وَكَانُوا يَفْرَحُونَ بِهِ إِذَا رَأَوْهُ فَرَحًا شَدِيدًا؛ لِأَنَّ عَيْشَهُمْ فِيهِ، قَالَ: فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ رَأْسَهُ فَبَصُرَ بِطَلْعَةٍ وَكَانَتْ أَوَّلَ طَلْعَةٍ رُئِيَتْ، فَقَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ: طَلْعَةٌ يَا رَسُولَ الله! مِنَ الفَرَحِ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ

الله ﷺ فَتَبَسَّمَ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَنْزِعْ مِنَّا صَالِحَ مَا أَعْطَيْتَنَا، أَوْ صَالِحًا أَعْطَيْتَنَا».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٩ في المغازي (٣٧٩٦٣)، وقال الشيخ عوامة: «الخبر من مراسيل عروة بإسناد صحيح»، كنز العمال للمتقي الهندي ١٠/ ٤٥٥ رقم ٣٠١٠١].

دعاء الرسول ﷺ وقت الشدة:

عندما تضافرت المحن وتحالفت البلايا عليه ﷺ وعلى أصحابه رضي الله عنهم، وعندما تطورت عمليات الحصار واشتد ضغطها في الليالي الأخيرة من الخندق، ورأى ﷺ شدة الخوف الذي عليه أصحابه دعا ربه، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ وَزَلْزِلْ بِهِمْ». [البخاري في التوحيد (٧٤٨٩)].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ عَلَى المُشْرِكِينَ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، [مُجْرِيَ السَّحَابِ]، اللَّهُمَّ اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ».

[البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٣)، وفي المغازي (٤١١٥)، وفي الدعوات (٦٣٩٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، والترمذي في الجهاد (١٦٧٨)، وابن ماجه في الجهاد(٢٧٩٦)، ومسند أحمد ٣١/ ٤٥٣ رقم ١٩١٠٧].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا [العَدُوَّ] انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، قَالَ: «[يَا] أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا [وَاسْأَلُوا] اللهَ [تَعَالَى] العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ».

[البخاري في الجهاد (٢٩٦٦) ومواضع أخرى، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١)، ومسند أحمد ٣١/ ٤٦٠ رقم ١٩١١٤].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى مَسْجِدَ ـ يَعْنِي الأَحْزَابَ ـ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ وَقَامَ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ مَدًّا يَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُصَلِّ، قَالَ: ثُمَّ جَاءَ وَدَعَا عَلَيْهِمْ وَصَلَّى.

[مسند أحمد ٢٣/ ٣٩٢ رقم ١٥٢٣٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف لإبهام الراوي عن جابر رضي الله عنه].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا فِي مَسْجِدِ الفَتْحِ ثَلَاثًا: يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَيَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، فَاسْتُجِيبَ لَهُ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ، فَعُرِفَ البِشْرُ فِي وَجْهِهِ.

قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: فَلَمْ يَنْزِلْ بِي أَمْرٌ مُهِمٌّ غَلِيظٌ إِلَّا تَوَخَّيْتُ تِلْكَ السَّاعَةَ فَأَدْعُو فِيهَا، فَأَعْرِفُ الإِجَابَةَ.

[مسند أحمد ٢٢/ ٤٢٥ رقم ١٤٥٦٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف، كثير بن زيد ليس بذاك القوي].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْنَا يَوْمَ الخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتْ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، قَالَ ﷺ: «نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا»، قَالَ: فَضَرَبَ اللهُ ﷻ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمْ اللهُ ﷻ بِالرِّيحِ. [مسند أحمد ١٧/ ٢٧ رقم ١٠٩٩٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف].

وهذا يدل على أن حالة المسلمين بلغت من التحرج ـ أمام محاولات الأحزاب الأخيرة المنظمة ـ أقصى الدرجات وأنهم صاروا في خوف شديد وكرب عظيم لا مثيل له أبدًا.

خالد بن الوليد واقتحام الخندق:

يقول أ/ باشميل: «وفي ليلة من ليالي الأحزاب العصيبة حاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحية ضيقه منه ويأخذهم على حين غرة.

ولكن دوريات المسلمين حالت بينه وبين ما يهدف إليه، فقد كان المسلمون أعرف من المشركين بالمناطق الضيقة من الخندق، والتي يتوقعون أن تقتحمها خيل الأحزاب في غلس الظلام.

ولهذا كانت هذه المناطق تحت حراسة دوريات المسلمين المستمرة اليقظة، فعندما حاول خالد ابن الوليد اقتحام ذلك المضيق من الخندق بخيله وجد نفسه أمام دورية مسلحة كبيرة من المسلمين بقيادة أسيد بن حضير الأنصاري الذي كان في مائتين من أصحابه، فتراجع خالد بن الوليد عن اقتحام المضيق.

إلا أن خيل خالد ناوشت المسلمين تلك الليلة، وكانت المناوشة طبعًا عبر الخندق بالنبال والحرب، وقد استشهد في تلك المناوشة الليلية، الطفيل بن النعمان، قتله وحشي الحبشي (قاتل حمزة يوم أحد) زرق الطفيل بحربة عبر الخندق فأصابت منه مقتلًا.

أبو سفيان يقود الخيل بنفسه:

وقد بلغ نشاط خيل المشركين في الليالي الأخيرة من الخندق حدًّا خطيرًا، أرهق المسلمين وأجهدهم، فقد تولى القائد العام لجيوش الأحزاب، أبو سفيان بنفسه، القيام بعمليات التطواف بالخيل حول الخندق ـ إذ قاد الفرسان بنفسه ـ وصار بالاشتراك مع خيل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص يتجول بخيل الأحزاب في أعداد كبيرة وفي استفزاز وعناد وإصرار حول مضايق الخندق.

ويظهر أن قيادة الأحزاب انتابها السأم والملل بعد أن ظلت جيوشها أكثر من عشرين يومًا حائرة لا تدري ماذا تصنع حيال هذه المكيدة الحربية العظيمة الخندق، الذي يسر للمسلمين مهمة الدفاع عن مدينتهم إلى أبعد الحدود، فقد بقيت طيلة هذه المدة عشرة آلاف مقاتل من جيوش الأحزاب معطلة الحركة غير قادرة على القيام بأي عمل عسكري يُذكر ضد المسلمين.

وليس أبعث على التذمر بين الجنود ـ وخاصة في ذلك العصر ـ من تجميدهم في معسكراتهم سيما إذا كانوا بعيدين عن أهليهم وأوطانهم.

المحاولة الأخيرة لاحتلال المدينة:

ويظهر أن قيادة الأحزاب لهذا كله قد قررت ـ بالرغم من فشل كل المحاولات التي قامت بها للعبور ناحية المسلمين ـ أن تقوم بمحاولة أخيرة لإجبار المسلمين على خوض معركة فاصلة، وكانت المحاولة

هذه المرة أكبر من كل المحاولات التي سبقتها، وكانت مسبوقة بتخطيط ودراسة اشترك فيها كبار قادة الأحزاب الذين كانوا كقادة جيوش مسؤولين يقدرون خطورة بقاء جيوشهم الجرارة تلك معطلة الحركة في معسكراتها بعيدة عن أوطانها وأهاليها، لا سيما وأن المحارب البدوي الذي هو عماد جيوش الأحزاب لم يتعود إلا على الحرب السريعة الخاطفة التي لا تزيد في أطول أوقاته على يوم واحد.

فقد جاء كل قادة الفرق من قريش بكل ما تحت يدهم من سلاح الفرسان إلى مشارف الخندق، ومن ورائهم كثير من المشاة وقفوا خلفهم كاحتياطي لدعوته عند اللزوم.

تفاصيل الخطة الجديدة:

وصار قادة هذه الفرق من الفرسان يجولون بخيلهم بانتظام وحسب تكتيك معين وفق خطة مرسومة، وكانوا يديمون الجولان والتحفز حول المضايق من الخندق، التي يتصورون أنه بإمكانهم السيطرة عليها من الجانبين عن طريق قفز الخندق بأعداد كبيرة من فرسانهم، في أماكن متقاربة، بحيث يمكنهم ـ إذا ما نجحوا في القفز بأعداد كبيرة من الخيل ـ أن يقيموا الجيش من فرسانهم نقطة ارتكاز قوية على مشارف الخندق في مناطق معينة من ناحية المدينة.

وبهذا يسيطر سلاح فرسانهم على مناطق إستراتيجية من الخندق تكون تحت حراستهم من الجانبين، ويقوم سلاح الفرسان الذي يتمكن من احتلال مناطق معينة ناحية المسلمين بالصمود في وجه المسلمين إذا ما أرادوا إجلاءهم عن هذه المناطق.

وبتنفيذ هذه الخطة يتمكن رجال الأحزاب ـ تحت حراسة سلاح الفرسان المتمركزين على مشارف الخندق من ناحية المدينة ـ من ردم مناطق ضيقة من الخندق قد حددت، وبردم هذه المناطق يتمكن مشاة الأحزاب ـ الذين يشكلون أكثرية جيوشهم ـ من عبور الخندق بسهولة إلى حيث يعسكر المسلمون.

وبهذا يتمكن قادة الأحزاب من التعجيل بالمعركة الفاصلة كما يريدون.

فقد كان لدى قادة الأحزاب ما يشبه اليقين بأن الغلبة ستكون لهم على المسلمين، وخاصة بعد انضمام يهود بني قريظة إليهم وتهديدها للمسلمين من الخلف، إذا ما التحمت جيوشهم الضخمة الهائلة مع جيش المدينة الصغير في معركة فاصلة شاملة، الأمر الذي كانت تتحاشاه قيادة المدينة وتعمل على تجنبه بكل معاني الكلمة، والذي ـ لكي لا يحدث ـ قامت قيادة المدينة الحازمة الواعية بحفر الخندق ليكون عازلًا طبيعيًّا منيعًا يفصل بينهم وبين جيوش الأحزاب.

ومن أجل تنفيذ هذا المخطط الجديد، تضاعف ضغط المشركين على موقع الجيش الإسلامي وراء الخندق بصفة عامة، وصار أبو سفيان القائد العام لجيوش الأحزاب ـ الذي كان يكتفي بإرسال فصائل من سلاح الفرسان لمناوشة المسلمين ـ يشرف بنفسه على عمليات هذا الضغط، ويقود بنفسه سلاح الفرسان الذي هو السلاح الرئيس في عملية الضغط والإرهاق هذه.

وهكذا ـ وبعد فترة من الجمود استمرت عدة أيام جَنَّد الأحزاب إمكانياتهم كمحاولة أخيرة لإجبار المسلمين على الاشتباك معهم في معركة فاصلة يستأصلون فيها شأفة المسلمين.

ونتيجة لهذه المحاولة الجبارة الأخيرة من قِبَل الأحزاب، بلغ الضغط على المسلمين الذروة، فاشتد البلاء عليهم أكثر من أي وقت مضى، وأخذ الضيق والكرب والخوف منهم كل مأخذ.

فقد أجهدتهم تنظيمات الحصار الجديدة إجهادًا شديدًا مع ما يعانون من شدة الجوع وقسوة البرد القارس والتخوف من أن يهجم عليهم اليهود من الخلف وهم بين براثن هذه المحنة الشديدة.

أشد ليالي الخندق:

ونتيجة لتلاحق عوامل البلاء ضد المسلمين انسحبت فئات أخرى من ضعاف الإيمان من صفوف الجيش الإسلامي، ولم يبق مع محمد ﷺ في ليالي المصير الحالكة تلك ـ صامدًا في وجه العاصفة ـ سوى قلة قليلة من صفوة أصحابه الذين قد ربطوا مصيرهم بمصيره، مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن معاذ وطلحة بن عبيد الله ومن على مستوى هؤلاء شجاعة ويقينًا وإيمانًا.

ولقد بلغ الضيق والجهد والكرب والخوف ـ حتى من هذه الصفوة لشدة ما حاق بهم ـ شأوًا بعيدًا إلى درجة أنهم في تلك اللحظات الأخيرة من محنة الغزو المرعب، جاؤوا إلى النبي القائد ﷺ وأفصحوا له بصراحة عما يعانونه من شدة الخوف والضيق والكرب.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قُلْنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتْ الْقُلُوبُ الحَنَاجِرَ، قَالَ ﷺ: «**نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**»، قَالَ: فَضَرَبَ اللهُ ﷻ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمْ اللهُ ﷻ بِالرِّيحِ. [مسند أحمد ١٧/ ٢٧ رقم ١٠٩٩٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف].

وفي تلك اللحظات التي تعاظم فيها البلاء على المسلمين جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فبشره بقرب انهزام الأحزاب، وأن الله سيرسل عليهم ريحًا وجنودًا من عنده.

وقد ذهب الرسول ﷺ ليطمئنهم وأخبرهم بما أخبره به جبريل عليه السلام من قرب نهاية الأحزاب، وصار ﷺ يرفع يديه نحو السماء قائلًا: «**شكرًا شكرًا**». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٩٧-٢٠٢].

درجة الانهيار:

يقول أ/ باشميل: «وبعد حوالي اثنتين وعشرين ليلة من الحصار الخانق الشديد بلغت حالة المسلمين المحصورين من الخطورة إلى درجة ليس بعدها إلا الانهيار.

فكل شيء كان ـ في تلك الساعات ـ يوحي بالانهيار الكلي داخل صفوف الجيش الصغير الغارق في خضم كتائب الأحزاب الهائجة التي تحيط به من كل جانب، ويشعر بأن المسلمين هم قاب قوسين أو أدنى من الفناء أو الاستسلام لعدوهم الجبار المحاصر بدون قيد ولا شرط، لولا الإيمان الذي حصنهم الله به وجعله أقوى سلاح يواجهون به عدوهم الذي يفوقهم في كل شيء مادي أضعافًا مضاعفة.

ليالي الرعب المخيفة:

فقد ارتفع ضغط عوامل البلاء والكرب ضد الجيش الصغير المحصور إلى درجة لم يكن لبشر أن يتحملها.

قريش وأحلافها بقواتهم العديدة الجبارة الغامرة المجهزة أحسن تجهيز تكاد ـ لكثرتها وقلتهم ـ يبتلعهم خضم جيشها الهائج المتحفز حولهم في كل مكان.

ويهود بني قريظة الغادرون الخونة يتحفزون ويستعدون ـ في نشوة وفرح ـ للانقضاض على جيش المدينة الصغير الرابض في خوف وقلق وراء استحكاماته الدفاعية خلف الخندق.

وعوامل الطبيعة التي أبى الله إلا أن تكون في تلك الليالي الفاصلة على هذا الجيش الصغير الممتحن قاسية مزعجة، البرد القارس الشديد والجوع المضني والنقص المخيف في الألبسة الواقية من البرد القاتل، والريح الهائجة ذات الصفير المزعج في الظلام الدامس، والمنافقون يتسللون لواذًا من صفوف الجيش المحصور الممتحن، ويثيرون بأراجيفهم الخوف والفزع في النفوس تاركين محمدًا ﷺ وصفوة أصحابه الأوفياء القلائل في مهب العاصفة.

إن الكرب والضيق والخوف قد بلغ بالمسلمين إلى درجة الاختناق ـ وبلغت القلوب الحناجر ـ وأن كل شيء مادي كان يوحي ـ على نحو ساحق ـ بأن المسلمين كانوا أمام ذلك الحصار الخانق الرهيب قاب قوسين أو أدنى من الفناء أو الاستسلام بدون قيد أو شرط لقوات الأحزاب الضاربة المحاصرة.

وأن الصفوة المختارة من صحابة محمد ﷺ ـ على متانة إيمانهم وشدة يقينهم ـ قد وقفوا ـ أمام تلك البلايا المتلاحقة والرزايا المتشابكة والزلازل المتواصلة ـ حائرين لا يدرون كيف المخرج من تلك الورطة القاتلة المستحكمة». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢١٠-٢١٦].

المبحث السادس

داهية الخندق نعيم بن مسعود ﷺ

التحول الخطير في الموقف:

يقول أ/ باشميل: «وهكذا وبينما وقف صفوة أصحاب محمد ﷺ بعد أكثر من عشرين ليلة كلها مشحونة بالمحن والبلايا والخطرات والرزايا، نعم بينما وقفت هذه الصفوة المختارة تنظر في قلق وخوف متزايد إلى ميزان المصير، وشوكته تهتز على الصفر تنذر بالميل نحو نهايتهم المفزعة؛ إذ برجل واحد يهديه الله للإسلام في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ الإسلام.

ثم يُسَخِّر الله مواهب هذا الرجل الألمعي في الذكاء والدهاء ليغير بخدعة سياسية بارعة مجرى الأحداث الخطيرة، فيقلب موازين القوى لصالح القلة المؤمنة الصابرة الثابتة في مهب العاصفة، فتحدث المعجزة، فيهزم الله الأحزاب ويكتب النصر المؤزر للمسلمين.

فقد فعل دهاء الرجل بقيادات الأحزاب وجيوشها أكثر مما تفعله الجيوش الجرارة.

فكان صنيع هذا الداهية العظيم من أكبر العوامل التي أدت إلى تشتيت قوى الأحزاب وعودة الغزاة خائبين متنافرين إلى ديارهم دون أن يحققوا شيئًا من أهدافهم.

فبمجهود هذا الرجل ومكره السياسي وإخلاصه لدينه الذي لم يمض في دخوله فيه أكثر من أربع وعشرين ساعة تمكن من إشاعة الفرقة بين فئات الأحزاب ويهود بني قريظة.

فبذر بمهارة فائقة بذور الشك والريبة في نفوس قادة الأحزاب واليهود بعضهم ضد بعض حتى انعدمت الثقة بين هؤلاء الزعماء والقادة، فتصدعت جبهاتهم، وتفتتت وحدتهم مما جعل قادة قريش وغطفان يحنقون على اليهود ويفكون الحصار عن المدينة، كل منهم عائد إلى بلاده، تاركين يهود بني قريظة الناكثين الغادرين لمصيرهم المحتوم الذي انتهى بإبادتهم.

الرجل الذي غيَّر مجرى الأحداث:

وهذا الرجل الذي شاء الله أن تتحطم على يديه وحدة الأحزاب الغازية المعتدية هو نعيم ابن مسعود ﷺ، وهو من قبيلة غطفان النجدية التي يمثل رجالها أكبر أجنحة الاتحاد القرشي الغطفاني اليهودي العسكري، الذي جاء لاحتلال المدينة وسحق المسلمين فيها.

فقد كان نعيم بن مسعود هذا من وجوه القوم والشخصيات البارزة المشهورة في المحيط العربي الوثني اليهودي الغازي.

ولكن لحكمة أرادها الله ـ في الليلة التي تلتها ليلة الأحزاب الأخيرة ـ فتح الله قلب هذا الرجل للإسلام وهو في معسكر الأحزاب.

نعيم بن مسعود ﷺ في المعسكر النبوي:

وعندما أشرق قلبه بنور الإسلام كتم الأمر في نفسه، ثم انسل من معسكر الأحزاب أمام الخندق واتجه على غلس الظلام نحو معسكر الرسول ﷺ حيث يرابط بجنده وراء الخندق.

وهناك تشرَّف بمقابلة الرسول الأعظم ﷺ في مقر قيادته وأبلغه ـ سرًّا ـ أن الله قد هداه للإسلام، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت تصرفه، وأنه على أتم الاستعداد للقيام بأي عمل يأمره به ﷺ».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٢١٦-٢١٨].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ فِيهَا وَصَفَ اللهُ مِنَ الخَوْفِ وَالشِّدَّةِ لِتَظَاهُرِ عَدُوِّهِمْ عَلَيْهِمْ وَإِتْيَانِهِمْ إِيَّاهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودِ بْنِ عَامِرِ بْنِ أُنَيْفِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ قُنْفُذِ بْنِ هِلَالِ بْنِ خَلَاوَةَ بْنِ أَشْجَعَ بْنِ رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ، أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله، إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّل عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**[1]. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٩].

داهية الخندق عند بني قريظة:

يقول أ/ باشميل: «كان نعيم بن مسعود من الشخصيات المألوفة المعروفة بين بني قريظة وكان نديمًا لهم في الجاهلية وصديقًا، وهو الذي تحدث في الجاهلية في حانة من حانات اليهود في المدينة (قبل تحريم الخمر) وهو سكران عن قافلة لكفار مكة سلكت طريق العراق إلى الشام، وكان في الحانة أحد الصحابة من استخبارات الجيش الإسلامي، فسارع بنقل الخبر إلى النبي القائد ﷺ فجهز حملة عسكرية أعطى قيادتها لزيد بن حارثة ﷺ، وأمره باعتراض هذه القافلة عند عودتها من الشام، وقد نجح زيد بن حارثة ﷺ في الاستيلاء علي هذه القافلة.[2]

كيف انخدعت قريظة بداهية الخندق:

ولما وصل نعيم بن مسعود إلى حصون بني قريظة ـ وهم لم يعلموا بإسلامه ـ بدأ في حياكة خيوط الخدعة الكبيرة التي أدى نجاحها إلى تشتيت شمل الأحزاب وانهزامهم وتخليص المسلمين من ذلك الكرب العظيم». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢١٨-٢١٩].

---

(١) وجاء في السيرة الحلبية ٢/ ١٠٩ أن نعيم بن مسعود قال: يا رسول الله إني أقول (أي ما يقتضيه الحال) وإن كان خلاف الواقع، قال: قل ما بدا لك فأنت في حل، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديمًا، قال: فلما رأوني رحبوا بي وعرضوا عليَّ الطعام والشراب، فقلت: إني لم آت لشيء من هذا، إنما جئتكم تخوفًا عليكم لأشير عليكم برأيي....ثم أورد الكلام الذي أوردناه في صلب هذا الكتاب.

(٢) ينظر تفاصيل هذه السَّرِيَّة في «سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى القُرْدة» ٣ هـ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ ـ وَكَانَ لَـهُمْ نَدِيمًا فِي الجَاهِلِيَّةِ ـ فَقَالَ: **يَا بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إِيَّاكُمْ وَخَاصَّةَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**، قَالُوا: **صَدَقْتَ، لَسْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ**، فَقَالَ لَـهُمْ: **إِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ، البَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَحَوَّلُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاؤُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ، وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بِغَيْرِهِ، فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ، فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً** (أي فرصة) **أَصَابُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلَادِهِمْ وَخَلُّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ بِبَلَدِكُمْ، وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ إِنْ خَلَا بِكُمْ، فَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ القَوْمِ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رُهُنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ، عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُنَاجِزُوهُ**، فَقَالُوا لَهُ: **لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ**. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٩-٢٣٠].

يقول أ/ باشميل: «ويظهر أن قريظة الغادرة قد بدأ الخوف والفزع ينتابها وبدأت تشعر بالحاجة الماسة إلى ضمانات تحميها من أن ينزل بها عقاب الخيانة الصارم الذي بدأ شبحه المخيف يقلق بالها.

ولهذا فقد وقع نعيم بن مسعود من نفوس زعماء بني قريظة موقع الرضا والقبول، فشكر اليهود لنعيم بن مسعود مسعاه عندما تقدم إليهم بتلك النصيحة قائلين: لقد أشرت بالرأي، وقرروا التمسك بما أشار به عليهم.

نعيم الداهية في مقر قيادة الأحزاب:

وبعد أن تأكد داهية الخندق نعيم بن مسعود من نجاح المرحلة الأولى من الخطة التي رسمها لنسف التحالف الوثني اليهودي، وتأكد لديه أن يهود بني قريظة قد انخدعوا بما قاله لهم، ولم يشكوا في أنه ناصح أمين لهم، توجه فورًا إلى القيادة المشتركة في معسكر الأحزاب أمام الخندق ليكمل المرحلة الأخيرة من الخطة التي رسمها لتفريق كلمة الأحزاب وإشاعة الفُرقة والتخاصم بينهم وبين يهود بني قريظة.

ولما وصل نعيم إلى مقر القيادة المشتركة للأحزاب، طلب الاجتماع أولًا وعلى انفراد بالقائد العام لجيوش الأحزاب أبي سفيان وهيئة أركان حربه من القرشيين.

وحينما اجتمع بهم ـ وهم طبعًا لا يعلمون إسلامه ـ أخبرهم بأنه ما جاء إلا لأمر جلل، يتعلق بسلامتهم وسلامة جيوشهم، وأن حبه لهم وحرصه على سلامتهم وسمعة جيوشهم رأى أنه لزامًا عليه أن يخبرهم بأمر خطير علِمه قِبَل حلفائهم يهود بني قريظة». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٢١].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، فَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ: **قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي لَكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمَّدًا، وَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْتُ عَلَيَّ حَقًّا أَنْ أُبَلِّغَكُمُوهُ نُصْحًا لَكُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي**، فَقَالُوا: **نَفْعَلُ**، قَالَ: **تَعْلَمُونَ أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ**

أَرْسَلُوا إِلَيْهِ أَنْ قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا، فَهَل يُرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنَ القَبِيلَتَيْنِ، مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيَكَهُمْ فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، ثُمَّ نَكُونَ مَعَكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ: أَنْ نَعَمْ، فَإِنْ بَعَثَتْ إِلَيْكُمْ يَهُودُ يَلتَمِسُونَ مِنْكُمْ رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلَا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٠].

انخداع الأحزاب بداهية الخندق:

وبعد أن ترك هذا الداهية العظيم ﷺ نفوس القادة القرشيين نهبًا لنوازع الشك والريبة والحقد على حلفائهم الجدد بني قريظة، توجه فورًا إلى قومه غطفان، وفي معسكر هذه القبيلة العظيمة طلب على انفراد بزعمائها وقادتها: عيينة بن حصن الفزاري، وطليحة بن خويلد الأسدي، والحارث بن عوف المري.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى غَطَفَانَ، فَقَالَ: **يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ، إِنَّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَلَا أَرَاكُمْ تَتَّهِمُونِي**، قَالُوا: **صَدَقْتَ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ**، قَالَ: **فَاكْتُمُوا عَنِّي**، قَالُوا: **نَفْعَلُ، فَمَا أَمْرُكَ؟** ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ، وَحَذَّرَهُمْ مَا حَذَّرَهُمْ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٠].

وهكذا نجح نعيم بن مسعود ﷺ في حبك خديعته الكبرى نجاحًا كاملًا.

وفد الأحزاب إلى بني قريظة:

يقول أ/ باشميل: «اهتم أركان القيادة المشتركة من الأحزاب (قريش وغطفان) لهذه الأنباء التي نقلها نعيم بن مسعود (الذي ما كانوا يشكون لحظة بأنه على دينهم) اهتمامًا بالغًا وانزعجوا لها كثيرًا، بعد أن وقع في نفوسهم صدق ما نقل إليهم نعيم بن مسعود، فباتوا بشر ليلة من القلق وقد امتلأوا حنقًا وغيظًا على بني قريظة.

وبهذا نجح هذا الداهية العظيم في وضع مواد التفجير في المواقع الحساسة من صرح التحالف بين الأحزاب وبين يهود بني قريظة حتى نسفه نسفًا كاملًا.

فبعد أن وصل الصحابي الألمعي نعيم بن مسعود ﷺ إلى هذه الدرجة من شحن نفوس الفريقين (اليهود والأحزاب) بما لا مزيد عليه من الشك والريبة وعدم الثقة في بعضهم البعض اتفقت قيادة الأحزاب المشتركة ـ وكان ذلك مساء يوم الجمعة ـ على أن تبعث إلى بني قريظة وفدًا من قادتها وزعمائها ليتصل ببني قريظة موضوع الأنباء التي نقلها نعيم بن مسعود ﷺ.

ولكي يصلوا إلى الحقيقة ويعرفوها ـ بطريق غير مباشر ـ كلفوا وفدهم بأن يطلب من اليهود الاستعداد للدخول في المعركة مع المسلمين وأن يبلغهم أن صباح يوم السبت هو الوقت المحدد للهجوم العام على المسلمين.

وفعلًا توجه وفد الأحزاب إلى منازل بني قريظة تلك الليلة في جنح الظلام، وقد تسلل رجال الوفد هذا سرًّا إلى منازل بني قريظة الواقعة خلف خطوط المسلمين، وذلك خوفًا من دوريات المسلمين التي كانت تطوف حول المدينة طول الليل». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٢٣-٢٢٤].

الأحزاب تطلب الهجوم وقريظة تطلب الرهائن:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ، وَكَانَ مِنْ صُنْعِ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ أَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَرُؤُوسُ غَطَفَانَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ: عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ، فَقَالُوا لَهُمْ: إِنَّا لَسْنَا بِدَارِ مُقَامٍ، قَدْ هَلَكَ الْخُفُّ وَالْحَافِرُ، فَاغْدُوا لِلْقِتَالِ حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، وَنَفْرُغَ مِمَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ: إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ وَهُوَ يَوْمٌ لَا نَعْمَلُ فِيهِ شَيْئًا، وَقَدْ كَانَ أَحْدَثَ فِيهِ بَعْضُنَا حَدَثًا، فَأَصَابَهُ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكُمْ، وَلَسْنَا مَعَ ذَلِكَ بِالَّذِينَ نُقَاتِلُ مَعَكُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُعْطُونَا رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ، يَكُونُونَ بِأَيْدِينَا ثِقَةً لَنَا حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَإِنَّا نَخْشَى إِنْ ضَرَّسَتْكُمْ (نالت منكم، كما يصيب ذو الأضراس بأضراسه) الْحَرْبُ، وَاشْتَدَّ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَنْ تَنْشَمِرُوا (تنقبضوا وتسرعوا إلى بلادكم) إِلَى بِلَادِكُمْ وَتَتْرُكُونَا، وَالرَّجُلُ فِي بَلَدِنَا، وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِذَلِكَ مِنْهُ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٠-٢٣١].

ظهور الخلاف بين الأحزاب واليهود:

وبعد أن سمع وفد قيادة الأحزاب هذا الجواب من حلفائهم اليهود لم يجر معهم أية مناقشة، بل عاد أدراجه إلى مقر القيادة المشتركة وأخبر قادة الأحزاب بما سمع من جواب من يهود بني قريظة.

وهنا لم يبق أي شك لدى هذه القيادة في صدق ما قاله لهم نعيم بن مسعود ﷺ من أن هؤلاء اليهود قد بيتوا الغدر بهم وأنهم لم يطلبوا الرهائن منهم إلا ليسلموهم للنبي ﷺ لضرب أعناقهم كدليل على ولائهم للمسلمين وتكفيرًا عن جريمة نقض العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ.

وهنا تحول الشك في نفوس الأحزاب إلى يقين بأن يهود بني قريظة قد غدروا بهم واتفقوا مع المسلمين عليهم وأنهم لا شك مسلموا رهائنهم للنبي ﷺ إذا استلموهم منهم.

الأحزاب يرفضون إعطاء الرهائن:

لذلك فاضت نفوس قادة الأحزاب بالغيظ والنقمة على اليهود فأرسلوا إليهم في الحال وفدًا آخر ليبلغهم رفض ما طلبوا من رهائن ويطلب منهم تنفيذ الاتفاقية بالهجوم على المسلمين، إن أرادوا.

وقد أسرع الوفد بالذهاب ثانيًا إلى ديار بني قريظة، وأبلغهم باسم قيادة الأحزاب المشتركة رفض ما طلبوا من تسليم الرهائن ـ وأن هذا الطلب هو دليل عدم الثقة وطعن في شرف كلمة قيادة الأحزاب التي أعطوها لليهود.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ الرُّسُلُ بِمَا قَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، قَالَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ: وَاللهِ إِنَّ الَّذِي حَدَّثَكُمْ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ، فَأَرْسِلُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ: **إِنَّا وَاللهِ لَا نَدْفَعُ إِلَيْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ رِجَالِنَا، فَإِنْ**

كُنْتُمْ تُرِيدُونَ القِتَالَ فَاخْرُجُوا فَقَاتِلُوا، فَقَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، حِينَ انْتَهَتْ الرُّسُلُ إِلَيْهِمْ بِهَذَا: إِنَّ الَّذِي ذَكَرَ لَكُمْ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ، مَا يُرِيدُ القَوْمُ إِلَّا أَنْ يُقَاتِلُوا، فَإِنْ رَأَوْا فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ انْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ، وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ فِي بَلَدِكُمْ، فَأَرْسَلُوا إِلَى قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ: إِنَّا وَاللهِ لَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُعْطُونَا رُهُنًا، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ.

وَخَذَّلَ اللهُ بَيْنَهُمْ، وَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ الرِّيحَ فِي لَيَالٍ شَاتِيَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ البَرْدِ، فَجَعَلَتْ تَكْفَأُ قُدُورَهُمْ وَتَطْرَحُ أَبْنِيَتَهُمْ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٠-٢٣١].

شيطان بني النضير يحاول رأب الصدع:

ولقد حاول زعيم يهود بني النضير ورأس الفتنة (حيي بن أخطب) إنقاذ الموقف المتدهور بين الأحزاب وبني قريظة، فذهب إلى يهود بني قريظة محاولًا إقناعهم بالاشتراك في الهجوم على المسلمين، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل، فقد أصر بنو قريظة على موقفهم المتشدد قائلين لحيي ابن أخطب: «والله لا نقاتل معهم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلًا من قريش وغطفان رهنًا عندنا».

وبهذا تم إحكام آخر فصل من فصول الخدعة الكبرى التي نسج خيوطها الداهية العظيم نعيم بن مسعود ﷺ، فاستحكمت حلقات الأزمة بين اليهود وقيادات الأحزاب وأصبح من المستحيل التوفيق بينهما، وبدأ المسلمون يتنفسون الصعداء.

تصوير الواقدي لدور نعيم بن مسعود ﷺ:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَاصِمٍ الأَشْجَعِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: كَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَهْلَ شَرَفٍ وَأَمْوَالٍ وَكُنَّا قَوْمًا عَرَبًا، لا نَخْلَ لَنَا وَلا كَرْمَ وَإِنَّمَا نَحْنُ أَهْلُ شَاةٍ وَبَعِيرٍ، فَكُنْتُ أَقْدُمُ عَلَى كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، فَأُقِيمُ عِنْدَهُمْ الأَيَّامَ أَشْرَبُ مِنْ شَرَابِهِمْ وَآكُلُ مِنْ طَعَامِهِمْ، ثُمَّ يُحَمِّلُونَنِي تَمْرًا عَلَى رِكَابِي مَا كَانَتْ، فَأَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي، فَلَمَّا سَارَتْ الأَحْزَابُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سِرْتُ مَعَ قَوْمِي، وَأَنَا عَلَى دِينِي، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَارِفًا، فَأَقَامَتْ الأَحْزَابُ مَا أَقَامَتْ حَتَّى أَجْدَبَ الجَنَابُ وَهَلَكَ الخُفُّ وَالكُرَاعُ، وَقَذَفَ اللهُ ﷻ فِي قَلْبِي الإِسْلامَ، وَكَتَمْتُ قَوْمِي إِسْلامِي، فَأَخْرُجُ حَتَّى آتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ وَأَجِدُهُ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَآنِي جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ يَا نُعَيْمُ؟» قُلْتُ: إِنِّي جِئْتُ أُصَدِّقُكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَوَاللهِ لَا تَأْمُرُنِي بِأَمْرٍ إِلَّا مَضَيْتُ لَهُ، قَوْمِي لَا يَعْلَمُونَ بِإِسْلَامِي وَلَا غَيْرُهُمْ.

قَالَ: «مَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تُخَذِّلَ النَّاسَ فَخَذِّلْ»، قَالَ: قُلْتُ: أَفْعَلُ، وَلَكِنْ يَا رَسُولَ اللهِ، أَقُولُ فَأْذَنْ لِي، قَالَ: «قُلْ مَا بَدَا لَكَ، فَأَنْتَ فِي حِلٍّ».

قَالَ: فَذَهَبْتُ حَتَّى جِئْتُ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَلَمَّا رَأَوْنِي رَحَّبُوا وَأَكْرَمُوا وَحَيَّوْا، وَعَرَضُوا عَلَيَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، فَقُلْتُ: إِنِّي لَمْ آتِ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا، إِنَّمَا جِئْتُكُمْ نَصَبًا بِأَمْرِكُمْ وَتَخَوُّفًا عَلَيْكُمْ لأُشِيرَ عَلَيْكُمْ بِرَأْيِي،

وَقَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إِيَّاكُمْ وَخَاصَّةَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، فَقَالُوا: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ، وَأَنْتَ عِنْدَنَا عَلَى مَا تُحِبُّ مِنَ الصِّدْقِ وَالبِرِّ.

قَالَ: فَاكْتُمُوا عَنِّي، قَالُوا: نَفْعَلُ، قَالَ: إِنَّ أَمْرَ هَذَا الرَّجُلِ بَلاءٌ - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - صَنَعَ مَا قَدْ رَأَيْتُمْ بِبَنِي قَيْنُقَاعَ وَبَنِي النَّضِيرِ وَأَجْلاهُمْ عَنْ بِلادِهِمْ بَعْدَ قَبْضِ الأَمْوَالِ، وَكَانَ ابْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ قَدْ سَارَ فِينَا فَاجْتَمَعْنَا مَعَهُ لِنَصْرِكُمْ، وَأَرَى الأَمْرَ قَدْ تَطَاوَلَ كَمَا تَرَوْنَ، وَإِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَنْتُمْ وَقُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ مِنْ مُحَمَّدٍ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، أَمَّا قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ فَهُمْ قَوْمٌ جَاؤُوا سَيَّارَةً حَتَّى نَزَلُوا حَيْثُ رَأَيْتُمْ، فَإِنْ وَجَدُوا فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا، وَإِنْ كَانَتْ الْحَرْبُ أَوْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ انْشَمَرُوا إِلَى بِلادِهِمْ، وَأَنْتُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، وَقَدْ غَلُظَ عَلَيْهِمْ جَانِبُ مُحَمَّدٍ، أَجْلَبُوا عَلَيْهِ أَمْسِ إِلَى اللَّيْلِ فَقَتَلَ رَأْسَهُمْ عَمْرَو بْنَ عَبْدٍ، وَهَرَبُوا مِنْهُ مُجَرَّحِينَ، وَهُمْ لا غَنَاءَ بِهِمْ عَنْكُمْ لِمَا تَعْرِفُونَ عِنْدَكُمْ، فَلا تُقَاتِلُوا مَعَ قُرَيْشٍ وَلا غَطَفَانَ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رَهْنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ؛ تَسْتَوْثِقُونَ بِهِ مِنْهُمْ إِلَّا يُنَاجِزُوا مُحَمَّدًا.

قَالُوا: أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ عَلَيْنَا وَالنُّصْحِ، وَدَعَوْا لَهُ وَتَشَكَّرُوا، وَقَالُوا: نَحْنُ فَاعِلُونَ.

قَالَ: وَلَكِنْ اكْتُمُوا عَنِّي، قَالُوا: نَعَمْ نَفْعَلُ.

ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا سُفْيَانَ قَدْ جِئْتُكَ بِنَصِيحَةٍ فَاكْتُمْ عَنِّي، قَالَ: أَفْعَلُ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ قُرَيْظَةَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَأَرَادُوا إِصْلاحَهُ وَمُرَاجَعَتَهُ، أَرْسَلُوا إِلَيْهِ وَأَنَا عِنْدَهُمْ إِنَّا سَنَأْخُذُ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا نُسَلِّمُهُمْ إِلَيْكَ تَضْرِبُ أَعْنَاقَهُمْ وَتَرُدَّ جَنَاحَنَا الَّذِي كَسَرْتَ إِلَى دِيَارِهِمْ - يَعْنُونَ بَنِي النَّضِيرِ - وَنَكُونُ مَعَكَ عَلَى قُرَيْشٍ حَتَّى نَرُدَّهُمْ عَنْكَ، فَإِنْ بَعَثُوا إِلَيْكُمْ يَسْأَلُونَكُمْ رَهْنًا فَلا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَحَدًا، وَاحْذَرُوهُمْ عَلَى أَشْرَافِكُمْ، وَلَكِنْ اكْتُمُوا عَنِّي وَلا تَذْكُرُوا مِنْ هَذَا حَرْفًا، قَالُوا: لا نَذْكُرُهُ.

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى غَطَفَانَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ، إِنِّي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي، وَاعْلَمُوا أَنَّ قُرَيْظَةَ بَعَثُوا إِلَى مُحَمَّدٍ - وَقَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ - فَاحْذَرُوا أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَحَدًا مِنْ رِجَالِكُمْ، وَكَانَ رَجُلًا مِنْهُمْ فَصَدَّقُوهُ.

وَأَرْسَلَتْ الْيَهُودُ غَزَّالَ بْنَ سَمَوْأَلٍ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ: إِنَّ ثَوَاءَكُمْ قَدْ طَالَ، وَلَمْ تَصْنَعُوا شَيْئًا وَلَيْسَ الَّذِي تَصْنَعُونَ بِرَأْيٍ، إِنَّكُمْ لَوْ وَعَدْتُمُونَا يَوْمًا تَزْحَفُونَ فِيهِ إِلَى مُحَمَّدٍ فَتَأْتُونَ مِنْ وَجْهٍ، وَتَأْتِي غَطَفَانُ مِنْ وَجْهٍ، وَنَخْرُجُ نَحْنُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ لَمْ يُفْلِتْ مِنْ بَعْضِنَا، وَلَكِنْ لا نَخْرُجُ مَعَكُمْ حَتَّى تُرْسِلُوا إِلَيْنَا بِرِهَانٍ مِنْ أَشْرَافِكُمْ يَكُونُونَ عِنْدَنَا، فَإِنَّا نَخَافُ إِنْ مَسَّتْكُمْ الْحَرْبُ وَأَصَابَكُمْ مَا تَكْرَهُونَ شَمَّرْتُمْ وَتَرَكْتُمُونَا فِي عُقْرِ دَارِنَا، وَقَدْ نَابَذْنَا مُحَمَّدًا بِالعَدَاوَةِ.

فَانْصَرَفَ الرَّسُولُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِمْ شَيْئًا، وَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: هَذَا مَا قَالَ نُعَيْمٌ.

فَخَرَجَ نُعَيْمٌ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ! أَنَا عِنْدَ أَبِي سُفْيَانَ حَتَّى جَاءَ رَسُولُكُمْ إِلَيْهِ يَطْلُبُ مِنْهُ الرِّهَانَ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: لَوْ طَلَبُوا مِنِّي عَنَاقًا مَا رَهَنْتُهَا، أَنَا أَرْهَنُهُمْ سَرَاةَ أَصْحَابِي يَدْفَعُونَهُمْ إِلَى مُحَمَّدٍ يَقْتُلُهُمْ، فَارْتَؤوْا آرَاءَكُمْ حَتَّى تَأْخُذُوا الرَّهْنَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُقَاتِلُوا مُحَمَّدًا وَانْصَرَفَ أَبُو سُفْيَانَ تَكُونُوا عَلَى مُوَاعَدَتِكُمْ الأُولَى.

قَالُوا: تَرْجُو ذَلِكَ يَا نُعَيْمُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ: فَإِنَّا لا نُقَاتِلُهُ، وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ لِهَذَا كَارِهًا وَلَكِنَّ حُيَيًّا رَجُلٌ مَشْؤومٌ.

قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَاطَا: إِنْ انْكَشَفَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ عَنْ مُحَمَّدٍ لَمْ يُقْبَلْ مِنَّا إِلَّا السَّيْفُ.

قَالَ نُعَيْمٌ: لا تَخْشَ ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ الزُّبَيْرُ: بَلَى وَالتَّوْرَاةِ، وَلَوْ أَصَابَتْ اليَهُودُ رَأْيَهَا وَلَحَمَ الأَمْرُ لَتَخْرُجَنَّ إِلَى مُحَمَّدٍ وَلا يَطْلُبُونَ مِنْ قُرَيْشٍ رَهْنًا، فَإِنَّ قُرَيْشًا لا تُعْطِينَا رَهْنًا أَبَدًا، وَعَلَى أَيِّ وَجْهٍ تُعْطِينَا قُرَيْشٌ الرَّهْنَ وَعَدَدُهُمْ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِنَا، وَمَعَهُمْ كُرَاعٌ وَلا كُرَاعَ مَعَنَا، وَهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى الهَرَبِ وَنَحْنُ لا نَقْدِرُ عَلَيْهِ؟ وَهَذِهِ غَطَفَانُ تَطْلُبُ إِلَى مُحَمَّدٍ أَنْ يُعْطِيَهَا بَعْضَ تَمْرِ الأَوْسِ وَتَنْصَرِفُ فَأَبَى مُحَمَّدٌ إِلَّا السَّيْفَ، فَهُمْ يَنْصَرِفُونَ بِغَيْرِ شَيْءٍ.

فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةُ السَّبْتِ كَانَ مِمَّا صَنَعَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ أَنْ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنَّ الجَنَابَ قَدْ أَجْدَبَ، وَهَلَكَ الكُرَاعُ وَالخُفُّ، وَغَدَرَتْ اليَهُودُ وَكَذَبَتْ، وَلَيْسَ هَذَا بِحَيْنِ مُقَامٍ فَانْصَرِفُوا، قَالَتْ قُرَيْشٌ: فَاعْلَمْ عِلمَ اليَهُودِ وَاسْتَيْقِنْ خَبَرَهُمْ.

فَبَعَثُوا عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ حَتَّى جَاءَ بَنِي قُرَيْظَةَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ مَسَاءَ لَيْلَةِ السَّبْتِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ، إِنَّهُ قَدْ طَالَ المُكْثُ، وَجَهَدَ الخُفُّ وَالكُرَاعُ، وَأَجْدَبَ الجَنَابُ، وَإِنَّا لَسْنَا بِدَارِ مُقَامَةٍ، اُخْرُجُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ حَتَّى نُنَاجِزَهُ بِالغَدَاةِ.

قَالُوا: غَدًا السَّبْتُ لا نُقَاتِلُ وَلا نَعْمَلُ فِيهِ عَمَلًا، وَإِنَّا مَعَ ذَلِكَ لا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ إِذَا انْقَضَى سَبْتُنَا حَتَّى تُعْطُونَا رِهَانًا مِنْ رِجَالِكُمْ يَكُونُونَ مَعَنَا لِئَلَّا تَبْرَحُوا حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَإِنَّا نَخْشَى إِنْ أَصَابَتْكُمْ الحَرْبُ أَنْ تُشَمِّرُوا إِلَى بِلادِكُمْ وَتَدَعُونَا وَإِيَّاهُ فِي بِلادِنَا، وَلا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، مَعَنَا الذَّرَارِيُّ وَالنِّسَاءُ وَالأَمْوَالُ.

فَرَجَعَ عِكْرِمَةُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ، فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: أَحْلِفُ بِاللهِ إِنَّ الخَبَرَ الَّذِي جَاءَ بِهِ نُعَيْمٌ حَقٌّ، لَقَدْ غَدَرَ أَعْدَاءُ اللهِ.

وَأَرْسَلَتْ غَطَفَانُ إِلَيْهِمْ مَسْعُودَ بْنَ رُخَيْلَةَ فِي رِجَالٍ مِنْهُمْ بِمِثْلِ رِسَالَةِ أَبِي سُفْيَانَ فَأَجَابُوهُمْ بِمِثْلِ جَوَابِ أَبِي سُفْيَانَ، وَقَالَتِ اليَهُودُ حَيْثُ رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنْهُمْ: نَحْلِفُ بِاللهِ إِنَّ الخَبَرَ الَّذِي قَالَ نُعَيْمٌ لَحَقٌّ، وَعَرَفُوا أَنَّ قُرَيْشًا لا تُقِيمُ فَسْطِطَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَكَرَّ أَبُو سُفْيَانَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: إِنَّا وَاللهِ لا نَفْعَلُ، إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ القِتَالَ فَاخْرُجُوا فَقَاتِلُوا، فَقَالَتْ اليَهُودُ مِثْلَ قَوْلِهِمُ الأَوَّلِ، وَجَعَلَتْ اليَهُودُ تَقُولُ: الخَبَرُ مَا قَالَ نُعَيْمٌ.

وَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ تَقُولُ: الْخَبَرُ مَا قَالَ نُعَيْمٌ، وَيَئِسَ هَؤُلاءِ مِنْ نَصْرِ هَؤُلاءِ، وَيَئِسَ هَؤُلاءِ مِنْ نَصْرِ هَؤُلاءِ، وَاخْتَلَفَ أَمْرُهُمْ فَكَانَ نُعَيْمٌ يَقُولُ: أَنَا خَذَّلْتُ بَيْنَ الأَحْزَابِ حَتَّى تَفَرَّقُوا فِي كُلِّ وَجْهٍ، وَأَنَا أَمِينُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى سِرِّهِ، فَكَانَ صَحِيحَ الإِسْلامِ بَعْدُ.

فَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا قَالَتْ قُرَيْظَةُ لِعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ مَا قَالَتْ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ لِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ: أَيْنَ مَا وَعَدْتَنَا مِنْ نَصْرِ قَوْمِكَ؟ قَدْ خَلَّوْنَا وَهُمْ يُرِيدُونَ الْغَدْرَ بِنَا، قَالَ حُيَيٌّ: كَلَّا وَالتَّوْرَاةِ، وَلَكِنَّ السَّبْتَ قَدْ حَضَرَ، وَنَحْنُ لا نَكْسِرُ السَّبْتَ، فَكَيْفَ نُنْصَرُ عَلَى مُحَمَّدٍ إِذَا كَسَرْنَا السَّبْتَ؟ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الأَحَدِ أُغْدُوا عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ بِمِثْلِ حَرْقِ النَّارِ.

وَخَرَجَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَقَالَ: فِدَاءَكُمْ أَبِي وَأُمِّي، إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ اتَّهَمَتْكُمْ بِالْغَدْرِ وَاتَّهَمُونِي مَعَكُمْ، وَمَا السَّبْتُ لَوْ كَسَرْتُمُوهُ لِمَا قَدْ حَضَرَ مِنْ أَمْرِ عَدُوِّكُمْ؟

قَالَ: فَغَضِبَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ، ثُمَّ قَالَ: لَوْ قَتَلَهُمْ مُحَمَّدٌ حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ مَا كَسَرْنَا سَبْتَنَا.

فَرَجَعَ حُيَيٌّ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، فَقَالَ: أَلَمْ أُخْبِرْكَ يَا يَهُودِيُّ أَنَّ قَوْمَكَ يُرِيدُونَ الْغَدْرَ؟

قَالَ حُيَيٌّ: لا وَاللهِ مَا يُرِيدُونَ الْغَدْرَ، وَلَكِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ يَوْمَ الأَحَدِ.

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَمَا السَّبْتُ؟ قَالَ: يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِهِمْ يُعَظِّمُونَ الْقِتَالَ فِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّ سَبْطًا مِنَّا أَكَلُوا الْحِيتَانَ يَوْمَ السَّبْتِ فَمَسَخَهُمُ اللهُ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لا أَرَانِي أَسْتَنْصِرُ بِإِخْوَةِ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: قَدْ بَعَثْتُ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ وَأَصْحَابَهُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: لا نُقَاتِلُ حَتَّى تَبْعَثُوا لَنَا بِالرِّهَانِ مِنْ أَشْرَافِكُمْ، وَقَبْلَ ذَلِكَ مَا جَاءَنَا غَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلٍ بِرِسَالَتِهِمْ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَحْلِفُ بِاللاتِ إِنْ هُوَ إِلَّا غَدْرُكُمْ، وَإِنِّي لأَحْسَبُ أَنَّكَ قَدْ دَخَلْتَ فِي غَدْرِ الْقَوْمِ.

قَالَ حُيَيٌّ: وَالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سَيْنَاءَ مَا غَدَرْتُ، وَلَقَدْ جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ قَوْمٍ هُمْ أَعْدَى النَّاسِ لِمُحَمَّدٍ وَأَحْرَصُهُمْ عَلَى قِتَالِهِ، وَلَكِنْ مَا مُقَامُ يَوْمٍ وَاحِدٍ حَتَّى يَخْرُجُوا مَعَكَ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لا وَاللهِ وَلا سَاعَةً، لا أُقِيمُ بِالنَّاسِ انْتِظَارَ غَدْرِكُمْ، حَتَّى خَافَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ، فَخَرَجَ مَعَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ حَتَّى بَلَغَ الرَّوْحَاءَ، فَمَا رَجَعَ إِلَّا مُتَسَرِّقًا لِمَا أَعْطَى كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ مِنْ نَفْسِهِ لَيَرْجِعَنَّ إِلَيْهِ، فَدَخَلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ حِصْنَهُمْ لَيْلًا، وَبَجِدُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ زَحَفَ إِلَيْهِمْ سَاعَةَ وَلَّتِ الأَحْزَابُ.

فَحَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِي كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: كَانَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ حِينَ جَاءَهُ وَجَعَلَ كَعْبٌ يَأْبَى، فَقَالَ حُيَيٌّ: لا تُقَاتِلْ حَتَّى تَأْخُذَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِهَانًا عِنْدَكُمْ، وَذَلِكَ مِنْ حُيَيٍّ خَدِيعَةً لِكَعْبٍ حَتَّى يَنْقُضَ الْعَهْدَ، وَعَرَفَ أَنَّهُ إِذَا نَقَضَ الْعَهْدَ لَحَمَ الأَمْرُ.

وَلَمْ يُخْبِرْ حُيَيٌّ قُرَيْشًا بِالَّذِي قَالَ لِبَنِي قُرَيْظَةَ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ عِكْرِمَةُ يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ السَّبْتَ قَالُوا: **لا نَكْسِرُ السَّبْتَ، وَلَكِنْ يَوْمَ الأَحَدِ، وَلا نَخْرُجُ حَتَّى تُعْطُونَا الرُّهَانَ**، فَقَالَ عِكْرِمَةُ: **أَيُّ رِهَانٍ؟**، قَالَ كَعْبٌ: **الَّذِي شَرَطْتُمْ لَنَا**، قَالَ: **وَمَنْ شَرَطَهَا لَكُمْ؟** قَالُوا: **حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ**، فَأَخْبَرَ أَبَا سُفْيَانَ ذَلِكَ، فَقَالَ لِحُيَيٍّ: **يَا يَهُودِيُّ، نَحْنُ قُلْنَا لَكَ كَذَا وَكَذَا؟** قَالَ: **لا وَالتَّوْرَاةِ، مَا قُلْتُ ذَلِكَ**، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **بَلْ هُوَ الْغَدْرُ مِنْ حُيَيٍّ**، فَجَعَلَ حُيَيٌّ يَحْلِفُ بِالتَّوْرَاةِ مَا قَالَ ذَلِكَ.

حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ يَعْقُوبَ، عَنْ عَمِّهِ قَالَ: قَالَ كَعْبٌ: **يَا حُيَيُّ، لا نَخْرُجُ حَتَّى نَأْخُذَ مِنْ كُلِّ أَصْحَابِكَ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ سَبْعِينَ رَجُلًا رَهْنًا فِي أَيْدِينَا**، فَذَكَرَ ذَلِكَ حُيَيٌّ لِقُرَيْشٍ وَلِغَطَفَانَ وَقَيْسٍ، فَفَعَلُوا وَعَقَدُوا بَيْنَهُمْ عَقْدًا بِذَلِكَ حَتَّى شَقَّ كَعْبٌ الكِتَابَ، فَلَمَّا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ تَسْتَنْصِرُهُ، قَالَ: **الرَّهْنُ**، فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ وَاخْتَلَفُوا لِمَا أَرَادَ اللهُ ﷻ.

وَحَدَّثَنِي مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: أَرْسَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ أَنْ ائْتُوا، فَإِنَّا سَنُغِيرُ عَلَى بَيْضَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ، فَسَمِعَ ذَلِكَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ وَكَانَ مُوَادِعًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ عِنْدَ عُيَيْنَةَ حِينَ أَرْسَلَتْ بِذَلِكَ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ، فَأَقْبَلَ نُعَيْمٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهَا وَمَا أَرْسَلَتْ بِهِ قُرَيْظَةُ إِلَى الأَحْزَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلَعَلَّنَا أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ**»، فَقَامَ نُعَيْمٌ بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِلْكَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ: وَكَانَ نُعَيْمٌ رَجُلًا لا يَكْتُمُ الحَدِيثَ، فَلَمَّا وَلَّى مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاهِبًا إِلَى غَطَفَانَ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ: **يَا رَسُولَ اللهِ مَا هَذَا الَّذِي قُلْتَ؟ إِنْ كَانَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى فَامْضِهِ، وَإِنْ كَانَ هَذَا رَأْيًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ فَإِنَّ شَأْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ هُوَ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا يُؤْثَرُ عَنْكَ**، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَلْ هُوَ رَأْيٌ رَأَيْتُهُ، الحَرْبُ خُدْعَةٌ**»، ثُمَّ أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَثَرِ نُعَيْمٍ، فَدَعَاهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرَأَيْتَ الَّذِي سَمِعْتَنِي قُلْتُ آنِفًا؟ اسْكُتْ عَنْهُ فَلا تَذْكُرْهُ**»، فَانْصَرَفَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى جَاءَ عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، وَمَنْ مَعَهُ مِنْ غَطَفَانَ، فَقَالَ لَهُمْ: **هَلْ عَلِمْتُمْ مُحَمَّدًا قَالَ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا كَانَ حَقًّا؟** قَالُوا: لا، قَالَ: **فَإِنَّهُ قَالَ لِي فِيمَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ: «فَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ»، ثُمَّ نَهَانِي أَذْكُرُهُ لَكُمْ**.

فَانْطَلَقَ عُيَيْنَةُ حَتَّى لَقِيَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَ نُعَيْمٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: **إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي مَكْرِ بَنِي قُرَيْظَةَ**، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **نُرْسِلُ إِلَيْهِمُ الآنَ فَنَسْأَلُهُمُ الرَّهْنَ فَإِنْ دَفَعُوا الرَّهْنَ إِلَيْنَا فَقَدْ صَدَقُونَا، وَإِنْ أَبَوْا ذَلِكَ فَنَحْنُ مِنْهُمْ فِي مَكْرٍ**، فَجَاءَهُمْ رَسُولُ أَبِي سُفْيَانَ فَسَأَلَهُمُ الرَّهْنَ لَيْلَةَ السَّبْتِ، فَقَالُوا: **هَذِهِ لَيْلَةُ السَّبْتِ وَلَسْنَا نَقْضِي فِيهَا وَلا فِي يَوْمِهَا أَمْرًا، فَأَمْهِلْ حَتَّى يَذْهَبَ السَّبْتُ**، فَخَرَجَ الرَّسُولُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ وَرُؤُوسُ الأَحْزَابِ مَعَهُ: **هَذَا مَكْرٌ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَارْتَحِلُوا فَقَدْ طَالَتْ**

إِقَامَتُكُمْ، فَآذَنُوا بِالرَّحِيلِ، وَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ الرِّيحَ حَتَّى مَا يَكَادُ أَحَدُهُمْ يَهْتَدِي لِمَوْضِعِ رَحْلِهِ، فَارْتَحَلُوا فَوَلَّوْا مُنْهَزِمِينَ.

وَيُقَالُ: إِنَّ حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ، قَالَ لأَبِي سُفْيَانَ: **أَنَا آخُذُ لَكَ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ سَبْعِينَ رَجُلًا رَهْنًا عِنْدَكَ حَتَّى يَخْرُجُوا فَيُقَاتِلُوا، فَهُمْ أَعْرَفُ بِقِتَالِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ**، فَكَانَ هَذَا الَّذِي قَالَ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ طَلَبَ الرَّهْنَ.

قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: وَأَثْبَتُ الأَشْيَاءِ عِنْدَنَا قَوْلُ نُعَيْمٍ الأَوَّلِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٨٠-٤٨٧].

وقال ابن إسحاق: حَدَّثني يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂: «أَنَّ نُعَيْمًا كَانَ رَجُلًا نَمُومًا، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «**إِنَّ اليَهُودَ بَعَثَتْ إِلَيَّ إِنْ كَانَ يُرْضِيكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رُهُنًا نَدْفَعُهُمْ إِلَيْكَ فَتَقْتُلُهُمْ فَعَلْنَا**»، فَرَجَعَ نُعَيْمٌ مُسْرِعًا إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ، فَقَالُوا: **وَاللهِ مَا كَذَّبَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّهُمْ لَأَهْلُ غَدْرٍ**. وَكَذَلِكَ قَالَ لِقُرَيْشٍ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ خِذْلَانِهِمْ وَرَحِيلِهِمْ».

[فتح الباري ٧/ ٤٦٥، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٠].

انهيار الاتحاد الوثني اليهودي:

يقول أ/ باشميل: «إن الشقاق قد حصل بين الأحزاب وحلفائهم الجدد (يهود بني قريظة) وظن بعضهم ببعض سوءًا، ووصل الخلاف والتنافر بين الفريقين (اليهود والأحزاب) إلى درجة أصبح الحلف العسكري المعقود بينهما في حكم المنتهي، وصار كل منهما يُحَمِّل الآخر مسؤولية انفصام عرى هذا الحلف.

وعندما وصل الخلاف والتنافر إلى هذه الدرجة، فَكَّرت القيادة المشتركة للأحزاب في إنهاء الحصار المضروب على المدينة والرجوع بجيوشها كل إلى بلاده، وترك اليهود وشأنهم، ليلقوا مصيرهم الرهيب، لا سيما وأن التذمر والاستياء أخذ يظهر في معسكر الأحزاب الذي ظل جنوده (وهم أكثر من عشرة آلاف) قرابة ثلاثين يومًا معوقين مجمدين أمام الخندق لا يستطيعون القيام بأي عمل عسكري حاسم ضد المسلمين، وهذا مما يبعث السأم والضيق في نفوس هؤلاء القوم الذين لم يألفوا طيلة حياتهم (في الحروب) التجميد والمرابطة أمام المدن، وإنما ألفوا الحروب الخاطفة والغارات السريعة التي لا تستغرق عملية القيام بها سوى يوم أو بعض يوم.

يضاف إليها أنه في الوقت الذي استحكم الخلاف فيه بين اليهود والأحزاب هبت على المنطقة التي يعسكر فيها الأحزاب رياح هوج كانت لقوتها تقتلع الخيام وتهدم الأبنية وتكفأ القدور ولا تترك نارًا تشتعل». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٢٩-٢٣٠].

المبحث السابع
ليالي الخندق الأخيرة

الليالي الحاسمة:

يقول أ/ باشميل: «حقًّا، لقد كانت تلك الليالي الأخيرة الحاسمة من ليالي الأحزاب الرهيبة مختبرًا صهر الله في بوتقة محنها وبلاياها أمة محمد ﷺ مرة أخرى ليعلم ـ وهو الأعلم بعباده ـ الصادق من الكاذب ويميز الخبيث من الطيب.

وفعلًا لم يثبت مع نبيه ﷺ في خضم تلك البلايا المتلاحقة والمحن المتحالفة التي أخذ بعضها برقاب بعض، إلا ذوو الإيمان الراسخ رسوخ شوامخ الجبال، والذي لا يزعزعه شيء مهما عظم، حتى إن بعض المؤرخين ذكر أنه لم يبق في الليالي الأخيرة من ليالي الخندق الحاسمة مع النبي القائد ﷺ إلا حوالي ثلاثمائة مقاتل فقط، وماذا عسى أن يفعل ثلاثمائة رجل ينقصهم كل شيء مادي إلا الإيمان أمام أحد عشر ألف مقاتل يفوقونهم في كل شيء مادي؟». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢١٢].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: بَعَثَنِي خَالِي عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ لِآتِيَهُ بِلِحَافٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَاسْتَأْذَنْتُهُ وَهُوَ بِالْخَنْدَقِ، فَأَذِنَ لِي، وَقَالَ: «**مَنْ لَقِيتَ مِنْهُمْ فَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا**»، وَكَانَ ذَلِكَ فِي بَرْدٍ شَدِيدٍ، فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ النَّاسَ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا، قَالَ: فَلَا وَاللهِ مَا عَطَفَ عَلَيَّ مِنْهُمُ اثْنَانِ، أَوْ وَاحِدٌ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٦ رقم ١٠١٥٠، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير [١٢/ ٣٦٨ رقم ١٣٣٦٩]، والأوسط [٥/ ٢٧٤ رقم ٥٢٩٩]، ورجاله رجال الصحيح. وصحح الحافظ ابن حجر إسناد. فتح الباري لابن حجر ٧/ ٤٠٢ حديث رقم ٤١٠٥، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٣].

ورواه الطبري بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: أَرْسَلَنِي خَالِي عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ لَيْلَةَ الْخَنْدَقِ فِي بَرْدٍ شَدِيدٍ وَرِيحٍ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: ائْتِنَا بِطَعَامٍ وَلِحَافٍ، قَالَ: فَاسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَذِنَ لِي، وَقَالَ: «**مَنْ لَقِيتَ مِنْ أَصْحَابِي فَمُرْهُمْ يَرْجِعُوا**»، قَالَ: فَذَهَبْتُ وَالرِّيحُ تَسْفِي كُلَّ شَيْءٍ، فَجَعَلْتُ لَا أَلْقَى أَحَدًا إِلَّا أَمَرْتُهُ بِالرُّجُوعِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: فَمَا يَلْوِي أَحَدٌ مِنْهُمْ عُنُقَهُ.

قَالَ: وَكَانَ مَعِي تُرْسٌ لِي فَكَانَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُهُ عَلَيَّ، وَكَانَ فِيهِ حَدِيدٌ، قَالَ: فَضَرَبَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى وَقَعَ بَعْضُ ذَلِكَ الْحَدِيدِ عَلَى كَفِّي، فَأَنْفَذَهَا إِلَى الْأَرْضِ. [تفسير الطبري ١٩/ ٢٦، وتفسير ابن كثير ٦/ ٣٨٥].

استطلاع حذيفة رضي الله عنه الأخبار يوم الخندق:

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رضي الله عنهما: **يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَصَحِبْتُمُوهُ؟** قَالَ: **نَعَمْ، يَا بْنَ أَخِي**، قَالَ: **فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟** قَالَ: **وَاللهِ لَقَدْ كُنَّا**

نَجْهَدُ، قَالَ: وَاللهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَلَجَعَلْنَاهُ [وَلَحَمَلْنَاهُ] عَلَى أَعْنَاقِنَا، قَالَ: فَقَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: يَا بْنَ أَخِي، وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالخَنْدَقِ وَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ هَوِيًّا ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ القَوْمُ يَشْتَرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ»، فَمَا قَامَ رَجُلٌ [مِنَ القَوْمِ، ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ القَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ»، فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ مَعَ شِدَّةِ الخَوْفِ وَشِدَّةِ الجُوعِ وَشِدَّةِ البَرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ القِيَامِ حِينَ دَعَانِي، فَقَالَ: «يَا حُذَيْفَةُ، فَاذْهَبْ فَادْخُلْ فِي القَوْمِ، فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا»، قَالَ: فَذَهَبْتُ، فَدَخَلْتُ فِي القَوْمِ وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لَا تَقِرُّ لَهُمْ قِدْرٌ وَلَا نَارٌ وَلَا بِنَاءٌ، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ، لَقَدْ هَلَكَ الكُرَاعُ [وَالخُفُّ]، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ بَلَغَنَا مِنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلَاثٍ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي، وَلَوْ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ.

قَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ [مَرَاجِلَ] [قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: المَرَاجِلُ ضَرْبٌ مِنْ وَشْيِ اليَمَنِ]، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ [رِجْلَيْهِ] وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ المِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنَّهُ لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الخَبَرَ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ وَانْشَمَرُوا [رَاجِعِينَ] إِلَى بِلَادِهِمْ. [البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٦)، ومسند أحمد ٣٨/ ٣٥٩ عن حذيفة ﷺ رقم ٢٣٣٣٤، وما بين المعكوفتين زيادة من السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣١-٢٣٣].

وروى البيهقي بسنده عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا، قَالَ لِحُذَيْفَةَ: يَا حُذَيْفَةُ، نَشْكُو إِلَى اللهِ صُحْبَتَكُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأَنَّكُمْ أَدْرَكْتُمُوهُ وَلَمْ نُدْرِكْهُ، وَرَأَيْتُمُوهُ وَلَمْ نَرَهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: وَنَحْنُ نَشْكُو إِلَى اللهِ ﷻ إِيمَانَكُمْ بِهِ وَلَمْ تَرَوْهُ، وَاللهِ مَا نَدْرِي يَا بْنَ أَخِي لَوْ أَدْرَكْتَهُ كَيْفَ كُنْتَ تَكُونُ، لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الخَنْدَقِ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ مَطِيرَةٍ، وَقَدْ نَزَلَ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ بِالعَرْصَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ رَجُلٌ يَذْهَبُ فَيَعْلَمُ لَنَا عِلْمَ القَوْمِ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ؟»، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَذْهَبُ فَيَعْلَمُ لَنَا عِلْمَ القَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ رَفِيقَ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟» فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَذْهَبُ فَيَعْلَمُ لَنَا عِلْمَ القَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ رَفِيقِي يَوْمَ القِيَامَةِ؟» فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنَّا أَحَدٌ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ الله، ابْعَثْ حُذَيْفَةَ، فَقُلْتُ: دُونَكَ وَالله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا حُذَيْفَةُ»، فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَقَالَ: «هَل أَنْتَ ذَاهِبٌ؟» فَقُلْتُ: وَالله مَا بِي أَنْ أُقْتَلَ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ أُؤْسَرَ، فَقَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تُؤْسَرَ»، فَقُلْتُ: مُرْنِي يَا رَسُولَ الله بِمَا شِئْتَ، فَقَالَ ﷺ: «اذْهَبْ حَتَّى تَدْخُلَ بَيْنَ ظَهْرَيِ القَوْمِ، فَأْتِ قُرَيْشًا فَقُل: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ قُرَيْشٌ؟ أَيْنَ قَادَةُ النَّاسِ؟ أَيْنَ رُؤُوسُ النَّاسِ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا القِتَالَ، فَيَكُونُ القَتْلُ فِيكُمْ، ثُمَّ ائْتِ بَنِي كِنَانَةَ فَقُل: يَا مَعْشَرَ بَنِي كِنَانَةَ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ بَنُو كِنَانَةَ؟ أَيْنَ رُمَاةُ الحَدَقِ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا القِتَالَ، فَيَكُونُ القَتْلُ فِيكُمْ، ثُمَّ ائْتِ قَيْسًا فَقُل: يَا مَعْشَرَ قَيْسٍ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ قَيْسٌ؟ أَيْنَ أَحْلَاسُ الخَيْلِ؟ أَيْنَ الفُرْسَانُ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا القِتَالَ، فَيَكُونُ القَتْلُ فِيكُمْ»، وَقَالَ لِي: «لَا تُحْدِثُ فِي سِلَاحِكَ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي فَتَرَانِي»، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى دَخَلْتُ بَيْنَ ظَهْرَيِ القَوْمِ، فَجَعَلْتُ أَصْطَلِي مَعَهُمْ عَلَى نِيرَانِهِمْ، وَجَعَلْتُ أَبُثُّ ذَلِكَ الحَدِيثَ الَّذِي أَمَرَنِي بِهِ رَسُولُ الله ﷺ، حَتَّى إِذَا كَانَ وِجَاهَ السَّحَرِ قَامَ أَبُو سُفْيَانَ فَدَعَا اللَّاتَ وَالعُزَّى وَأَشْرَكَ، ثُمَّ قَالَ: لِيَنْظُرْ رَجُلٌ مَنْ جَلِيسُهُ، وَمَعِي رَجُلٌ مِنْهُمْ يَصْطَلِي عَلَى النَّارِ، فَوَثَبْتُ عَلَيْهِ، فَآخُذُ بِيَدِهِ مَخَافَةَ أَنْ يَأْخُذَنِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَقُلْتُ: أَوْلَى.

فَلَمَّا دَنَا الصُّبْحُ نَادَى: أَيْنَ قُرَيْشٌ؟ أَيْنَ رُؤُوسُ النَّاسِ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ البَارِحَةَ، أَيْنَ بَنُو كِنَانَةَ؟ وَأَيْنَ الرُّمَاةُ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ البَارِحَةَ، أَيْنَ قَيْسٌ؟ أَيْنَ أَحْلَاسُ الخَيْلِ؟ أَيْنَ الفُرْسَانُ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ البَارِحَةَ، فَتَخَاذَلُوا، وَبَعَثَ الله عَلَيْهِمْ تِلكَ الرِّيحَ، فَمَا تَرَكَتْ لَهُمْ بِنَاءً إِلَّا هَدَّمَتْهُ، وَلَا إِنَاءً إِلَّا أَكْفَأَتْهُ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ وَثَبَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ مَعْقُولٍ، فَجَعَلَ يَسْتَحِثُّهُ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ، وَلَوْلَا مَا أَمَرَنِي بِهِ رَسُولُ الله ﷺ فِي سِلَاحِي لَرَمَيْتُهُ أَدْنَى مِنْ تِلكَ، فَجِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَجَعَلْتُ أُخْبِرُهُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَعَلَ يَضْحَكُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى جَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى أَنْيَابِهِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥٤-٤٥٥، وأخرجه أبو نعيم في الدلائل ٤٣٣، وابن عساكر، وابن إسحاق، وذكره ابن هشام في السيرة ٣/ ١٨٦-١٨٧، وابن مردويه، السيرة الشامية ٤/ ٥٤٧-٥٤٩].

وروى البيهقي بسنده عَنْ عَبْدِ العَزِيزِ ابْنِ أَخِي حُذَيْفَةَ قَالَ: ذَكَرَ حُذَيْفَةُ مَشَاهِدَهُمْ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ جُلَسَاؤُهُ: أَمَا وَالله لَوْ كُنَّا شَهِدْنَا ذَلِكَ لَفَعَلْنَا وَفَعَلْنَا (هذا كلام من لم يعايش المحنة والابتلاء فهو يتكلم من مكان آمن)، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: لَا تَمَنَّوْا ذَلِكَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا لَيْلَةَ الأَحْزَابِ وَنَحْنُ صَافُّونَ قُعُودٌ، أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الأَحْزَابِ فَوْقَنَا، وَقُرَيْظَةُ اليَهُودِ أَسْفَلَ مِنَّا، نَخَافُهُمْ عَلَى ذَرَارِيِّنَا، وَمَا أَتَتْ عَلَيْنَا لَيْلَةٌ قَطُّ أَشَدَّ ظُلْمَةً وَلَا أَشَدَّ رِيحًا، فِي أَصْوَاتِ رِيحِهَا أَمْثَالُ الصَّوَاعِقِ وَهِيَ ظُلْمَةٌ، مَا يَرَى أَحَدٌ مِنَّا إِصْبَعَهُ، فَجَعَلَ

الْمُنَافِقُونَ يَسْتَأْذِنُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَيَقُولُونَ: إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ، فَمَا يَسْتَأْذِنُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَذِنَ لَهُ، فَيَأْذَنُ لَهُمْ، فَيَتَسَلَّلُونَ، وَنَحْنُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ إِذِ اسْتَقْبَلَنَا (أي استعرضنا واحدًا كأنه يتخير) رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا رَجُلًا حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ، وَمَا عَلَيَّ جُنَّةٌ (السترة والوقاية ومنه حديث: والصوم جنة) مِنَ الْعَدُوِّ، وَلَا مِنَ الْبَرْدِ، إِلَّا مِرْطٌ (الكساء، ويكون من صوف، وربما كان من الخزِّ أو غيره) لِامْرَأَتِي مَا يُجَاوِزُ رُكْبَتَيَّ، قَالَ: فَأَتَانِي وَأَنَا جَاثٍ عَلَى رُكْبَتَيَّ، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقُلْتُ: حُذَيْفَةُ، فَقَالَ: «حُذَيْفَةُ؟»، قَالَ: فَتَقَاصَرْتُ بِالْأَرْضِ، فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، كَرَاهِيَةَ أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «قُمْ»، فَقُمْتُ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ كَائِنٌ فِي الْقَوْمِ خَبَرٌ، فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ**»، قَالَ: وَأَنَا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ فَزَعًا، وَأَشَدِّهِمْ قُرًّا، فَخَرَجْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ فَوْقِهِ، وَمِنْ تَحْتِهِ**»، قَالَ: فَوَاللهِ مَا خَلَقَ اللهُ فَزَعًا وَلَا قُرًّا فِي جَوْفِي إِلَّا خَرَجَ مِنْ جَوْفِي، فَمَا أَجِدُ مِنْهُ شَيْئًا، قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ قَالَ: «**يَا حُذَيْفَةُ، لَا تُحْدِثَنَّ فِي الْقَوْمِ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي**».

فَخَرَجْتُ حَتَّى إِذَا دَنَوْتُ مِنْ عَسْكَرِ الْقَوْمِ نَظَرْتُ فِي ضَوْءِ نَارٍ لَهُمْ تَوَقَّدُ، وَإِذَا رَجُلٌ أَدْهَمُ ضَخْمٌ يَقُولُ بِيَدِهِ عَلَى النَّارِ، وَيَمْسَحُ خَاصِرَتَهُ وَيَقُولُ: الرَّحِيلَ الرَّحِيلَ، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَبَا سُفْيَانَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَانْتَزَعْتُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي أَبْيَضَ الرِّيشِ، فَأَضَعُهُ عَلَى كَبِدِ قَوْسِي (مقبضها وكبد كل شيء وسطه) لِأَرْمِيَهُ فِي ضَوْءِ النَّارِ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**لَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي**»، فَأَمْسَكْتُ وَرَدَدْتُ سَهْمِي فِي كِنَانَتِي، ثُمَّ إِنِّي شَجَّعْتُ نَفْسِي حَتَّى دَخَلْتُ الْمُعَسْكَرَ، فَإِذَا أَدْنَى النَّاسِ مِنِّي بَنُو عَامِرٍ يَقُولُونَ: يَا آلَ عَامِرٍ، الرَّحِيلَ الرَّحِيلَ، لَا مُقَامَ لَكُمْ، وَإِذَا الرِّيحُ فِي عَسْكَرِهِمْ، مَا تُجَاوِزُ عَسْكَرَهُمْ شِبْرًا، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتَ الْحِجَارَةِ فِي رِحَالِهِمْ، وَفَرَسَتْهُمُ الرِّيحُ تَضْرِبُهُمْ بِهَا.

ثُمَّ خَرَجْتُ نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا انْتَصَفَ بِيَ الطَّرِيقُ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، إِذَا أَنَا بِنَحْوٍ مِنْ عِشْرِينَ فَارِسًا أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مُعْتَمِّينَ (يشير بذلك إلى الملائكة وقد أرسلهم الله للتضييق على الكفار)، فَقَالُوا: «**أَخْبِرْ صَاحِبَكَ أَنَّ اللهَ كَفَاهُ الْقَوْمَ**»، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ فِي شَمْلَةٍ يُصَلِّي، فَوَاللهِ مَا عَدَا أَنْ رَجَعْتُ رَاجَعَنِي الْقُرُّ، وَجَعَلْتُ أُقَرْقِفُ (أرعد من البرد)، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَأَسْبَلَ عَلَيَّ شَمْلَتَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ [1] أَمْرٌ صَلَّى، فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَ الْقَوْمِ، وَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي تَرَكْتُهُمْ يَتَرَحَّلُونَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ الآية [الأحزاب: ٩].

---

(١) أي إذا نزل به أمر مهم، وقد روى هذا الإمام أحمد ٥/ ٣٨٨، والنسائي ١/ ٢٨٩ وحزبه كلمة واحدة وليست مركبة من (حز) و(به) كما يتوهم البعض. مرويات غزوة الخندق ٤٠٣.

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ سَرِيعٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﷺ، فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا، وَذَكَرَ فِيهِ دُعَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالحِفْظِ، وَذَكَرَ أَنَّ عَلْقَمَةَ بْنَ عُلَاثَةَ نَادَى: يَا عَامِرُ، إِنَّ الرِّيحَ قَاتِلَتِي وَأَنَا عَلَى ظَهْرٍ، وَأَخَذَتْهُمْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَصَاحَ أَصْحَابُهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ أَمَرَهُمْ فَتَحَمَّلُوا، وَلَقَدْ تَحَمَّلُوا وَإِنَّ الرِّيحَ لَتَغْلِبُهُمْ عَلَى بَعْضِ أَمْتِعَتِهِمْ.

فَقَالَ عَلْقَمَةُ بْنُ مَرْثَدٍ: عَنْ عَطِيَّةَ الكَاهِلِيِّ قَالَ: قَدْ كَانَ فِي الحَدِيثِ: إِنَّهُ لَمَّا رَجَعَ حُذَيْفَةُ مَرَّ بِخَيْلٍ عَلَى طَرِيقِهِ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ المُشْرِكِينَ، فَخَرَجَ لَهُ فَارِسَانِ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَالَا: **ارْجِعْ إِلَى صَاحِبِكَ فَأَخْبِرْهُ أَنَّ اللهَ قَدْ كَفَاهُ إِيَّاهُمْ بِالجُنُودِ وَالرِّيحِ**، وَتَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

هَكَذَا أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ، فِيمَا أَدَّى مِنَ الحَدِيثِ بِالبَاءِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥١-٤٥٤].

وروى البيهقي بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﷺ أَنَّ النَّاسَ، تَفَرَّقُوا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَأَتَى [فَأَتَانِي] رَسُولُ الله ﷺ وَأَنَا جَاثٍ مِنَ البَرْدِ، قَالَ: «**يَا ابْنَ اليَمَانِ، قُمْ فَانْطَلِقْ إِلَى عَسْكَرِ الأَحْزَابِ، فَانْظُرْ إِلَى حَالِهِمْ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا قُمْتُ إِلَيْكَ إِلَّا حَيَاءً مِنْكَ مِنَ البَرْدِ، قَالَ: «**فَانْطَلِقْ يَا ابْنَ اليَمَانِ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْكَ مِنْ حَرٍّ وَلَا بَرْدٍ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيَّ**»، قَالَ: فَانْطَلَقْتُ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، فَوَجَدْتُ أَبَا سُفْيَانَ يُوقِدُ النَّارَ فِي عُصْبَةٍ حَوْلَهُ، قَدْ تَفَرَّقَ الأَحْزَابُ عَنْهُ، قَالَ: حَتَّى إِذَا جَلَسْتُ فِيهِمْ، قَالَ: فَحَسَّ أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ دَخَلَ فِيهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، قَالَ: يَأْخُذُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِيَدِ جَلِيسِهِ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي عَلَى الَّذِي عَنْ يَمِينِي فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، ثُمَّ ضَرَبْتُ بِيَدِي عَلَى الَّذِي عَنْ يَسَارِي فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَكُنْتُ فِيهِمْ هُنَيَّةً، ثُمَّ قُمْتُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِيَدِهِ أَنِ ادْنُ، فَدَنَوْتُ، ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَيَّ أَيْضًا: «ادْنُ»، فَدَنَوْتُ حَتَّى أَسْبَلَ عَلَيَّ مِنَ الثَّوْبِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي [لِيُدَفِّئَنِي]، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: «**ابْنَ اليَمَانِ! اقْعُدْ، مَا الخَبَرُ [خَبَرُ النَّاسِ]؟**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فِي عُصْبَةٍ يُوقِدُ النَّارَ، قَدْ صَبَّ اللهُ عَلَيْهِ [عَلَيْهِمْ] مِنَ البَرْدِ مِثْلَ الَّذِي صَبَّ عَلَيْنَا، وَلَكِنَّا نَرْجُو مِنَ الله مَا لَا يَرْجُو [يَرْجُونَ].

[دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥٠-٤٥١، والمستدرك للحاكم ٣/ ٣١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، مجمع الزوائد ٦/ ١٩٧-١٩٨ في المغازي والسير (١٠١٥٤)، وقال الهيثمي: رواه البزار ورجاله ثقات. وفي الصحيح لحذيفة ﷺ حديث بغير هذا السياق].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: وَكَانَ حِصَارُ الخَنْدَقِ فِي قُرٍّ شَدِيدٍ وَجُوعٍ، فَكَانَ حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمَانِ ﷺ يَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا فِي الخَنْدَقِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ البَرْدِ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْنَا البَرْدُ وَالجُوعُ وَالخَوْفُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ القَوْمُ جَعَلَهُ اللهُ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ**»، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: **يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ**

الله ﷺ **الجَنَّةَ وَالرُّجُوعَ**، فَمَا قَامَ مِنَّا رَجُلٌ، ثُمَّ عَادَ يَقُولُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وَمَا قَامَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ وَالقُرِّ وَالخَوْفِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ الله ﷺ ذَلِكَ لا يَقُومُ أَحَدٌ، دَعَانِي، فَقَالَ: «**يَا حُذَيْفَةُ**»، قَالَ: فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ القِيَامِ حِينَ قَوَّهُ بِاسْمِي، فَجِئْتُهُ وَلِقَلبِي وَجَبَانٌ فِي صَدْرِي، فَقَالَ: «**تَسْمَعُ كَلامِي مُنْذُ اللَّيْلَةَ وَلا تَقُومُ؟**» فَقُلْتُ: لا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنْ قَدَرْتُ عَلَى مَا بِي مِنَ الجُوعِ وَالبَرْدِ، فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَانْظُرْ مَا فَعَلَ القَوْمُ، وَلا تَرْمِينَ بِسَهْمٍ وَلا بِحَجَرٍ وَلا تَطْعَنُ بِرُمْحٍ وَلا تَضْرِبَنَّ بِسَيْفٍ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيَّ**».

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا بِي يَقْتُلُونِي وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ يُمَثِّلُوا بِي، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ**»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لا بَأْسَ عَلَيَّ مَعَ كَلامِ رَسُولِ الله ﷺ الأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ: «**اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي القَوْمِ فَانْظُرْ مَاذَا يَقُولُونَ**»، فَلَمَّا وَلَّى حُذَيْفَةُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ**»، فَدَخَلَ عَسْكَرَهُمْ فَإِذَا هُمْ يَصْطَلُونَ عَلَى نِيرَانِهِمْ، وَإِنَّ الرِّيحَ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ لا تُقِرُّ لَهُمْ قَرَارًا وَلا بِنَاءً، فَأَقْبَلْتُ فَجَلَسْتُ عَلَى نَارٍ مَعَ قَوْمٍ فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: احْذَرُوا الجَوَاسِيسَ وَالعُيُونَ، وَلْيَنْظُرْ كُلُّ رَجُلٍ جَلِيسَهُ، قَالَ: فَالتَفَتُّ إِلَى عَمْرِو بْنِ العَاصِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ وَهُوَ عَنْ يَمِينِي، فَقَالَ: عَمْرُو بْنُ العَاصِ، وَالتَفَتُّ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ.

ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: إِنَّكُمْ وَالله لَسْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الخُفُّ وَالكُرَاعُ وَأَجْدَبَ الجَنَابُ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَالله مَا يَثْبُتُ لَنَا بِنَاءٌ وَلا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، وَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ وَجَلَسَ عَلَى بَعِيرِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلاثِ قَوَائِمَ، فَمَا أُطْلِقَ عِقَالُهُ إِلَّا بَعْدَ مَا قَامَ، وَلَوْلا عَهْدُ رَسُولِ الله ﷺ إِلَيَّ: لا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَ، ثُمَّ شِئْتُ، لَقَتَلْتُهُ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٨٨-٤٩٠].

قُمْ يَا نَوْمَانُ:

عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ (أي بالغت في نصرته كأنه أراد الزيادة على نصرة الصحابة ﷺ)، فَقَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ (استفهام إنكاري أي فعلنا ما نستطيع وهو ما لا تقدر عليه) لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ [برد شديد]، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَلا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «**قُمْ يَا حُذَيْفَةُ! فَأْتِنَا بِخَبَرِ القَوْمِ**»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ،

قَالَ ﷺ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ القَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ** (أي لا تفزعهم عليَّ ولا تحركهم عليَّ، وقيل: معناه لا تنفرهم، والمراد: لا تحركهم عليك فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضررًا علي لأنك رسولي وصاحبي (من صحيح مسلم) ٣/ ١٤١٤ هامش الصفحة. مرويات غزوة الخندق ٣٩٦)»، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ (أي أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس) حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ (يدفئه) بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ القَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ القَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ (بردت)، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ ﷺ: «**قُمْ يَا نَوْمَانُ**». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٨)].

المبحث الثامن
نهاية المعركة

فك الحصار عن المدينة نهائيًّا:

يقول الشيخ الغزالي: «ضاق الأعراب النازلون بالعراء ذرعًا لهذا المقام الغريب، لقد خيَّموا حول أطراف يثرب أيامًا لا تؤذن بدايتها بانتهاء، وهم لم يجيؤوا ليستنفدوا أقواتهم أمام خندق صعب الاجتياز، وجبال رابَط المسلمون أمامها، واستقتلوا دون أن يقترب أحد منها.

ثم إن الجو اغبرت أرجاؤه، وترادفت أنواؤه، وهبت الرياح نكباء موحشة الصفير، تكاد في هبوبها تطوي الخيام المبعثرة وتطير بها في الآفاق!

والصلة بين أولئك الحلفاء لا تغري بدوام الثقة، إن غطفان وقبائل نجد أقبلت يحدوها السَّلب والنهب، وهي قد قبلت العودة من حيث أتت عندما أُغريت ببعض ثمار المدينة لولا أن المسلمين كبر عليهم أن يطعموهم منها رهبًا.

وماذا صنعت قريظة؟

نقضت الموثق ونكصت عن الهجوم منتظرة من العرب أن يقوموا هم به!

وفي ليلة شاتية عاتية لفحت سبراتها الوجوه والجلود، وأقعدت الرجال في أماكنهم ينشدون الدفء، ويفرون من القر المتساقط على الصخور والرمال، اتجهت نيات القوم إلى اتخاذ قرار حاسم في هذا القتال الفاشل؟

وكأنما كان زئير الرياح الهوج سوطًا يلهب المهاجمين حتى لا يتوانوا في الخلاص من هذا الموقف، ونظر رسول الله ﷺ من وراء أسوار المدينة، وحوله أصحابه جاثمون في مكامنهم يرمقون الأفق بحذر، ويرقبون الغيب بأمل، والظلام البارد الثقيل يرين على كل شيء في الصحراء المترامية».

[فقه السيرة للغزالي ٣١٥-٣١٦، ٣١٨].

قال ابن سعد: أَخْبَرَنَا أَبُو الْوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: كَانَ يَوْمُ الْخَنْدَقِ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ كِنَانَةَ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ غَطَفَانَ، وَطُلَيْحَةُ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، وَأَبُو الأَعْوَرِ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَقُرَيْظَةُ كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ، فَنَقَضُوا ذَلِكَ وَظَاهَرُوا الْمُشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، فَأَتَى جِبرِيلُ عليه السلام ومَعَهُ الرِّيحُ، فَقَالَ ﷺ حِينَ رَأَى جِبرِيلَ عليه السلام: «**أَلاَ أَبْشِرُوا**»، ثَلاَثًا، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ فَهَتَكَتِ الْقِبَابَ، وَكَفَأَتِ

الْقُدُورَ، وَدَفَنَتِ الرِّحَالَ (جمع رحل وهو مركب يوضع على ظهر البعير. القاموس ٣/ ٣٨٣)، وَقَطَعَتِ الأَوْتَادَ، فَانْطَلَقُوا لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[الأحزاب: ٩]... [الطبقات لابن سعد ٢/ ٦٧رقم ١٦٧٤].

وقال البيهقي: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَسَنِ الْقَاضِي، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا وَرْقَاءُ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، قَالَ: يَعْنِي رِيحَ الصَّبَا، أُرْسِلَتْ عَلَى أَحْزَابِ يَوْمِ الْخَنْدَقِ، حَتَّى كَفَأَتْ قُدُورَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهَا، وَنَزَعَتْ فَسَاطِيطَهُمْ حَتَّى أَظْعَنَتْهُمْ، ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، يَعْنِي: الْمَلَائِكَةَ، قَالَ: وَلَمْ تُقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَئِذٍ. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٤٨].

وقال السيوطي: وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾[الأحزاب:١٠]، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، وَقَدْ حُصِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهْرًا، فَخَنْدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ بِقُرَيْشٍ وَمَنْ مَعَه مِنَ النَّاسِ حَتَّى نَزَلُوا بِعَقْوَةٍ (العَقْوَة: الساحة وما حول الدار والمحلة. اللسان ع ق و) رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَقْبَلَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ أَخُو بَنِي بَدْرٍ بِغَطَفَانَ وَمَنْ تَبِعَهُ حَتَّى نَزَلُوا بِعَقْوَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَاتَبَتِ الْيَهُودُ أَبَا سُفْيَانَ فَظَاهَرُوهُ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمُ الرُّعْبَ وَالرِّيحَ، فَذُكِرَ أَنَّهُمْ كَانُوا كُلَّمَا بَنَوْا بِنَاءً قَطَعَ اللهُ أَطْنَابَهُ، وَكُلَّمَا رَبَطُوا دَابَّةً قَطَعَ اللهُ رِبَاطَهَا، وَكُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا أَطْفَأَهَا اللهُ، حَتَّى لَقَدْ ذُكِرَ لَنَا: أَنَّ سَيِّدَ كُلِّ حَيٍّ يَقُولُ: يَا بَنِي فُلَانٍ هَلُمَّ إِلَيَّ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا عِنْدَهُ قَالَ: **النَّجَاةَ، النَّجَاةَ، أُتِيتُمْ؛** لِمَا بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الرُّعْبِ. [الدر المنثور في التفسير بالمأثور ١١/ ٧٤٧-٧٤٨].

وقال البلاذري: ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى نَصَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ بِالرِّيحِ، وَكَانَتْ رِيحًا صَفْرَاءَ فَمَلَأَتْ عُيُونَهُمْ، فَدَاخَلَهُمُ الْفَشَلُ وَالْوَهَنُ وَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ، وَانْصَرَفُوا إِلَى مُعَسْكَرِهِمْ، وَدَامَتْ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ، وَغَشِيَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ تَطْمُسُ أَبْصَارَهُمْ، فَانْصَرَفُوا ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[الأحزاب].

قَالَ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ دِحْيَةَ: هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ بَعَثَهَا اللهُ تَعَالَى فَنَفَثَتْ فِي رَوْعِهِمُ الرُّعْبَ وَالْفَشَلَ، وَفِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ الْقُوَّةَ وَالْأَمَلَ، وَقِيلَ: إِنَّمَا بَعَثَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ تَزْجُرُ خَيْلَ الْعَدُوِّ وَإِبِلَهُمْ، فَقَطَعُوا مُدَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَارِّينَ مُنْهَزِمِينَ. [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٤٥-٥٤٦].

هنا أصدر أبو سفيان القائد العام لجيوش المشركين أمره بالارتحال، كما رأينا في حديث حذيفة ﷺ السابق.

الأحزاب تنظم انسحابها:

وعندما عزم الأحزاب على الانسحاب وإنهاء الحصار، قرر القائد العام أبو سفيان أن يكون الانسحاب منظمًا لا فوضى فيه ولا اضطراب، وأن يكون في حماية قوات مسلحة منظمة تتولى الإشراف عليه.

ولذلك أصدر أبو سفيان إلى قائد سلاح الفرسان في الجيش القرشي ـ خالد بن الوليد ومساعده عمرو بن العاص ـ أمرهما بأن يتوليا الإشراف على تنظيم هذا الانسحاب، ويقوما بحماية مؤخرة الجيش المنسحبة من أن يقوم المسلمون بضربها ساعة الانسحاب.

فامتثل عمرو، وخالد، أمر القائد العام وسارعا إلى انتخاب مائتين من الخيالة، ثم تمركز هؤلاء الخيالة في المنطقة الواقعة بين مؤخرة معسكر الأحزاب وبين المسلمين، وصاروا يضربون بخيلهم في تلك المنطقة، ويماشون الجيش المنسحب وهو على تعبئة واستعداد، لحمايته من أي غارة يقوم بها عسكر الإسلام، وظلت كتيبة الفرسان القرشية هكذا حتى اكتمل انسحاب جيوش الأحزاب من مواقعها أمام الخندق تمامًا، وابتعدت عن منطقة الخطر.

ومن حديث حذيفة ﷺ السابق قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ وَجَلَسَ عَلَى بَعِيرِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلاثِ قَوَائِمَ فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا بَعْدَ مَا قَامَ، وَلَوْلا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَيَّ لا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَ، ثُمَّ شِئْتُ، لَقَتَلْتُهُ، فَنَادَاهُ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ إِنَّكَ رَأْسُ القَوْمِ وَقَائِدُهُمْ تَقْشَعُ وَتَتْرُكُ النَّاسَ؟ فَاسْتَحْيَى أَبُو سُفْيَانَ، فَأَنَاخَ جَمَلَهُ وَنَزَلَ عَنْهُ وَأَخَذَ بِزِمَامِهِ وَهُوَ يَقُودُهُ، وَقَالَ: ارْحَلُوا، قَالَ: فَجَعَلَ النَّاسُ يَرْتَحِلُونَ وَهُوَ قَائِمٌ حَتَّى خَفَّ العَسْكَرُ، ثُمَّ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ العَاصِ: **يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لا بُدَّ لِي وَلَكَ أَنْ نُقِيمَ فِي جَرِيدَةٍ مِنْ خَيْلٍ بِإِزَاءِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، فَإِنَّا لا نَأْمَنُ أَنْ نُطْلَبَ حَتَّى يَنْفُذَ العَسْكَرُ.**

فَقَالَ عَمْرٌو: أَنَا أُقِيمُ، وَقَالَ لِخَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ: مَا تَرَى يَا أَبَا سُلَيْمَانَ؟ فَقَالَ: أَنَا أَيْضًا أُقِيمُ، فَأَقَامَ عَمْرٌو وَخَالِدٌ فِي مِائَتَيْ فَارِسٍ، وَسَارَ العَسْكَرُ إِلَّا هَذِهِ الجَرِيدَةُ عَلَى مُتُونِ الخَيْلِ.

قَالُوا: وَذَهَبَ حُذَيْفَةُ إِلَى غَطَفَانَ فَوَجَدَهُمْ قَدْ ارْتَحَلُوا، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ.

وَأَقَامَتْ الخَيْلُ حَتَّى كَانَ السَّحَرُ ثُمَّ مَضَوْا فَلَحِقُوا الأَثْقَالَ وَالعَسْكَرَ مَعَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ بِمَلَلَ فَغَدَوَا إِلَى السَّيَّالَةِ.

وَكَانَتْ غَطَفَانُ لَمَّا ارْتَحَلَتْ وَقَفَ مَسْعُودُ بْنُ رُخَيْلَةَ فِي خَيْلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَوَقَفَ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ فِي خَيْلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَوَقَفَ فُرْسَانٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ فِي أَصْحَابِهِمْ، ثُمَّ تَحَمَّلُوا جَمِيعًا فِي طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ وَكَرِهُوا أَنْ يَتَفَرَّقُوا حَتَّى أَتَوْا عَلَى المِرَاضِ، ثُمَّ تَفَرَّقَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ إِلَى مَحَالِّهَا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٠-٤٩١].

«وهكذا أفلح المسلمون في فصم عُرَى التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم، فما مضت أسابيع ثلاثة على ذلك الحصار المضروب حتى دب القنوط والتخاذل في صفوف المهاجمين، على حين بقيت جبهة المدافعين سليمة لم تثلم». [فقه السيرة للغزالي ٣١٨].

«وهكذا انقشعت الغمة، وخلص الله المسلمين من براثن المحنة، وقطف المؤمنون الصادقون ثمار صدقهم وصبرهم وثباتهم مع نبيهم الحبيب في تلك الليالي الرهيبة المرعبة التي زاغت فيها الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، فقد أخذت جيوش الأحزاب في فك الحصار عن المدينة، وأخذت كتائبهم تولي الأدبار تجر أذيال الخيبة والخسران، لم تجن من غزوها الكبير هذا سوى التعب والنصب».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٢٣٣].

مدة حصار الأحزاب:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: كَانَ مُحَاصَرَةُ الْمُشْرِكِينَ رَسُولَ الله ﷺ فِي الخَنْدَقِ بِضْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا.

وَحَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ مِقْسَمٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، قَالَ: عِشْرِينَ يَوْمًا، وَيُقَالُ: خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَهَذَا أَثْبَتُ ذَلِكَ عِنْدَنَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩١].

وقال الصالحي: اختلف في مدة إقامة المشركين على الخندق، فقال سعيد بن المسيب في رواية يحيى بن سعيد: أقاموا أربعًا وعشرين ليلة، وقال في رواية الزهري: بضع عشرة ليلة.

وروى محمد بن عمر عن جابر بن عبد الله: أنها كانت عشرين يومًا.

وقال محمد بن عمر: أثبت الأقاويل أنها كانت خمسة عشر يومًا، وجزم به ابن سعد والبلاذري والنووي في الروضة والقطب.

وقال في زاد المعاد: شهرًا، وقال ابن إسحاق: بضعًا وعشرين ليلة قريبًا من شهر.

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٦٢].

أبو سفيان يكتب إلى النبي ﷺ عند الانسحاب:

ويقول المؤرخون: إن قائد عام جيش الأحزاب (أبا سفيان) قبل انسحابه، كتب إلى النبي ﷺ خطابًا يعيب فيه عليه الاحتماء بالخندق، ويذكر له أنه لولا مكيدة الخندق لما بقي للمسلمين من وجود، وقد بعث أبو سفيان هذا الخطاب مع أبي سلمة الخشني.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِي وَجْزَةَ، قَالَ: لَمَّا مَلَّتْ قُرَيْشٌ الْمُقَامَ وَأَجْدَبَ الجَنَابُ، وَضَاقُوا بِالخَنْدَقِ وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ عَلَى طَمَعٍ أَنْ يُغِيرَ عَلَى بَيْضَةِ الْمَدِينَةِ، كَتَبَ كِتَابًا فِيهِ: بِاسْمِكَ

اللَّهُمَّ، فَإِنِّي أَحْلِفُ بِاللَّاتِ وَالعُزَّى، لَقَدْ سِرْتُ إِلَيْكَ فِي جَمْعِنَا، وَإِنَّا نُرِيدُ أَلَّا نَعُودَ إِلَيْكَ أَبَدًا حَتَّى نَسْتَأْصِلَكَ، فَرَأَيْتُكَ قَدْ كَرِهْتَ لِقَاءَنَا، وَجَعَلتَ مَضَايِقَ وَخَنَادِقَ، فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا؟ فَإِنْ نَرْجِعْ عَنْكُمْ فَلَكُمْ مِنَّا يَوْمٌ كَيَوْمِ أُحُدٍ، تُبْقَرُ فِيهِ النِّسَاءُ.

وَبَعَثَ بِالكِتَابِ مَعَ أَبِي أُسَامَةَ الجُشَمِيِّ، فَلَمَّا أَتَى بِالكِتَابِ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ ﷺ، فَدَخَلَ مَعَهُ قُبَّتَهُ فَقَرَأَ عَلَيْهِ كِتَابَ أَبِي سُفْيَانَ.

وَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ.

أَمَا بَعْدُ: فَقَدِيمًا غَرَّكَ بِاللهِ الغَرُورُ، أَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ سِرْتَ إِلَيْنَا فِي جَمْعِكُمْ وَأَنَّكَ لا تُرِيدُ أَنْ تَعُودَ حَتَّى تَسْتَأْصِلَنَا، فَذَلِكَ أَمْرٌ اللهُ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَيَجْعَلُ لَنَا العَاقِبَةَ حَتَّى لا تَذْكُرَ اللَّاتَ وَالعُزَّى، وَأَمَّا قَوْلُكَ: مَنْ عَلَّمَكَ الَّذِي صَنَعْنَا مِنَ الخَنْدَقِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَلْهَمَنِي ذَلِكَ لِمَا أَرَادَ مِنْ غَيْظِكَ بِهِ وَغَيْظِ أَصْحَابِكَ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ تُدَافِعُنِي بِالرَّاحِ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ أَكْسِرُ فِيهِ اللَّاتَ، وَالعُزَّى، وَإِسَافَ وَنَائِلَةَ وَهُبَلَ حَتَّى أُذَكِّرَكَ ذَلِكَ».

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَعْفَرٍ، فَقَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّ فِي الكِتَابِ: وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي لَقِيتُ أَصْحَابَكَ بِأَحْيَاءَ، وَأَنَا فِي عِيرٍ لِقُرَيْشٍ فَمَا حَصَرَ أَصْحَابُكَ مِنَّا شَعْرَةً وَرَضُوا بِمُدَافَعَتِنَا بِالرَّاحِ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ فِي عِيرِ قُرَيْشٍ حَتَّى لَقِيتُ قَوْمِي، فَلَمْ تَلقَنَا، فَأَوْقَعْت بِقَوْمِي وَلَمْ أَشْهَدْهَا مِنْ وَقْعَةٍ، ثُمَّ غَزَوْتُكُمْ فِي عُقْرِ دَارِكُمْ فَقَتَلتُ وَحَرَقْتُ ـ يَعْنِي غَزْوَةَ السَّوِيقِ ـ ثُمَّ غَزَوْتُكَ فِي جَمْعِنَا يَوْمَ أُحُدٍ، فَكَانَتْ وَقْعَتُنَا فِيكُمْ مِثْلَ وَقْعَتِكُمْ بِنَا بِبَدْرٍ، ثُمَّ سِرْنَا إِلَيْكُمْ فِي جَمْعِنَا وَمَنْ تَأَلَّبَ إِلَيْنَا يَوْمَ الخَنْدَقِ، فَلَزِمْتُمُ الصَّيَاصِيَ وَخَنْدَقْتُمُ الخَنَادِقَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٢-٤٩٣].

«الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلا يَغْزُونَنَا»:

وهكذا، وبعد حصار خانق شديد دام حوالي شهر بلغت فيه حالة المسلمين من الضيق والتعب والإرهاق حد الإعياء والزلزلة، هزم الله الأحزاب وكبت الخونة الغادرين من يهود بني قريظة، وكتب النصر للمؤمنين الصابرين، وكان نصرًا ساحقًا عظيمًا دون أن يتكبد المسلمون في سبيله خسارة من الرجال تذكر، وهذا الذي عناه الله تعالى بقوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وبعد أن تمت عملية انسحاب جيوش الأحزاب من معسكراتها حول المدينة، أصدر النبي ﷺ أمره إلى جيشه بالعودة إلى المدينة، فأخذ هذا الجيش في ترك مواقعه واتجه نحو المدينة، بعد أن تنفس الصعداء وتخلص من ذلك الكرب العظيم الذي لم يشهد مثله في تاريخه.

ورجعت الطمأنينة إلى النفوس، وظهرت خيبة الأحزاب بعدما أقبلت من كل فج لتجتاح يثرب، وظهرت صلابة المسلمين في مواجهة الأزمات المرهقة؛ ولقد أبلغ النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم (وهم يتركون مواقعهم خلف الخندق) بأن هذه الغزوة التي قام بها الأحزاب ستكون آخر عملية عسكرية يقوم بها الأعداء ضد المسلمين، وأن الجيش الإسلامي سيكون (بعد هذه الغزوة) هو الغازي دائمًا.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابَ عَنْهُ [لَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ]: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا [يَغْزُونَنَا]، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٤٥/ ١٨٤ رقم ٢٧٢٠٦].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ الأَحْزَابِ وَقَدْ جَمَعُوا لَهُ جُمُوعًا كَثِيرَةً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا يَغْزُوكُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَكِنْ تَغْزُوهُمْ**». [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٢ في المغازي والسير (١٠١٥٧)، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/ ٣٣٦ رقم ١٨١٠]، ورجاله ثقات. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٤٦٨: إسناده حسن. صحيح السيرة النبوية للعلي ص ٢٧٩].

قال ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمَّا انْصَرَفَ أَهْلُ الخَنْدَقِ عَنِ الخَنْدَقِ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِيمَا بَلَغَنِي: «**لَنْ تَغْزُوكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّكُمْ تَغْزُوهُمْ**»، فَلَمْ تَغْزُهُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ هُوَ الَّذِي يَغْزُوهَا، حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٤].

وفعلًا، فإن المسلمين ـ بعد غزوة الأحزاب ـ لم يتعرضوا لأي غزو من قبل العدو، وإنما كانوا هم الذين يقومون بغزو الأعداء، حتى تمت لهم السيطرة الكاملة على جزيرة العرب، وهكذا فإن محمدًا ﷺ، لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم] صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

فشل الأحزاب واندحارهم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**». [البخاري في المغازي (٤١١٤)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٢٤)، ومسند أحمد ١٣/ ٤٢٨ رقم ٨٠٦٧، ١٤/ ١٨٩ رقم ٨٤٩٠، ١٦/ ٢٥٦ رقم ١٠٤٠٦].

النصر بالصَّبَا:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**».

[البخاري في الاستسقاء (١٠٣٥)، وفي بدء الخلق (٣٢٠٥)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٣٤٣)، وفي المغازي (٤١٠٥)، ومسلم في الاستسقاء (٩٠٠)، ومجمع الزوائد ٦/ ٨٣ في المغازي والسير (٩٩٣٢)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله ثقات، وعن ابن عباس رضي الله عنهما رقم ٩٩٣٣ وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين رجال أحدهما ثقات. وغير ذلك كثير من كتب السنة].

وروى البيهقي بسنده عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، قَالَ: يَعْنِي رِيحَ الصَّبَا، أُرْسِلَتْ عَلَى أَحْزَابِ يَوْمِ الخَنْدَقِ، حَتَّى كَفَأَتْ قُدُورَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهَا، وَنَزَعَتْ فَسَاطِيطَهُمْ حَتَّى أَظْعَنَتْهُمْ، ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ يَعْنِي: الـمَلَائِكَةَ، قَالَ: وَلَمْ تُقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَئِذٍ. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٤٨].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: أَتَتِ الصَّبَا (ريح ومهبها المستوى أن تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار. **الدبور**: الريح التي تقابل الصبا، وقال النووي: هي الريح الغربية) الشَّمَالَ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، فَقَالَ: مُرِّي حَتَّى نَنْصُرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ الشَّمَالُ: إِنَّ الحُرَّةَ لا تَسْرِي بِلَيْلٍ، فَكَانَتِ الرِّيحُ الَّتِي نُصِرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّبَا. [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٢-٢٠٣ في المغازي والسير (١٠١٥٨)، وقال الهيثمي: رواه البزار [مسند البزار ١١/ ٣٩ رقم ٤٧٢١] ورجاله رجال الصحيح. وكشف الأستار البزار ٢/ ٣٣٦ رقم ١٨١١، وقال البزار: رواه جماعة عن داود عن عكرمة مرسلًا، ولا نعلم أحدًا وصله إلا حفص ورجل من أهل البصرة وكان ثقة يقال له: خلف بن عمرو].

وقال الصالحي: وروى ابن أبي حاتم وأبو نعيم والبزار برجال الصحيح، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الأَحْزَابِ جَاءَتْ الشَّمَالُ إِلَى الجَنُوبِ فَقَالَتْ: انْطَلِقِي فَانْصُرِي اللهَ وَرَسُولَهِ، فَقَالَتْ الجَنُوبُ: إِنَّ الحُرَّةَ لا تَسْرِي بِاللَّيْلِ، فَغَضِبَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا فَجَعَلَهَا عَقِيمًا، وَأَرْسَلَ الصَّبَا، فَأَطْفَأَتْ نِيرَانَهُمْ وَقَطَعَتْ أَطْنَابَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**».

[سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥٤٥].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ يَقُولُ: جَاءَتِ الجَنُوبُ إِلَى الشَّمَالِ، فَقَالَتْ: انْطَلِقِي بِنَصْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَتْ الشَّمَالُ: إِنَّ الحُرَّةَ لا تَسْرِي بِلَيْلٍ، فَبَعَثَ اللهُ ﷻ الصَّبَا، فَأَطْفَأَتْ نِيرَانَهُمْ وَقَطَعَتْ أَطْنَابَ فَسَاطِيطَهُمْ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٦].

جرح سعد بن معاذ ﷺ يوم الخندق:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي أَبُو لَيْلَى عَبْدُ اللهِ بْنُ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلٍ الأَنْصَارِيُّ، أَخُو بَنِي حَارِثَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ كَانَتْ فِي حِصْنِ بَنِي حَارِثَةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَكَانَ مِنْ أَحْرَزِ حُصُونِ الْمَدِينَةِ. قَالَ: وَكَانَتْ أُمُّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ مَعَهَا فِي الحِصْنِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْنَا الحِجَابُ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ مُقَلَّصَةٌ (قصيرة)، قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا ذِرَاعُهُ كُلُّهَا، وَفِي يَدِهِ حَرْبَتُهُ يَرْفُلُ بِهَا وَيَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يَشْهَدْ الـهَيْجَا حَمَلْ لَا بَأْسَ بِالـمَوْتِ إِذَا حَانَ الأَجَلْ

قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: **الحَقْ أَيْ بُنَيَّ، فَقَدْ وَاللهِ أَخَّرْتَ**؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّ سَعْدٍ وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ دِرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أَسْبَغَ (أكمل وأطول) مِمَّا هِيَ، قَالَتْ: وَخِفْتُ عَلَيْهِ حَيْثُ أَصَابَ السَّهْمُ مِنْهُ، فَرُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ بِسَهْمٍ فَقَطَعَ مِنْهُ الأَكْحَلَ (عرق في الذراع ويسمى عرق الحياة وهو في وسط الذراع ويقال أن في

كل عضو منه شعبة فهو في اليد الأكحل وفي الظهر الأبهر وفي الفخذ النساء إذا قطع لم يرقأ الدم. ينظر: النهاية في غريب الحديث ٤/ ١٥٤، فتح الباري ٧/ ٤١٣. مرويات غزوة الخندق ٣٥١)، رَمَاهُ ـ كَمَا حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ ـ حِبَّانُ بْنُ قَيْسِ بْنِ العَرِقَةِ أَحَدُ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَلَمَّا أَصَابَهُ قَالَ: خُذْهَا مِنِّي وَأَنَا ابْنُ العَرِقَةِ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: **عَرَّقَ اللهُ وَجْهَكَ فِي النَّارِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا، فَإِنَّهُ لَا قَوْمَ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ مِنْ قَوْمٍ آذَوْا رَسُولَكَ وَكَذَّبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهُ لِي شَهَادَةً، وَلَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنَيَّ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ.**

مَنْ قَاتِلُ سَعْدٍ ﷺ؟:

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا أَصَابَ سَعْدًا يَوْمَئِذٍ إِلَّا أَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ، حَلِيفُ بَنِي مَخْزُومٍ.

قَالَ أَبُو أُسَامَةَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا لِعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ:

أَعِكْرِمَ هَلَّا لُمْتَنِي إِذْ تَقُولُ لِي ... فِدَاكَ بِآطَامِ المَدِينَةِ خَالِدُ

أَلَسْتَ الَّذِي أَلْزَمْتَ سَعْدًا مُرِشَّةً ... لَهَا بَيْنَ أَثْنَاءِ المَرَافِقِ عَانِدُ (١)

قَضَى نَحْبَهُ مِنْهَا سُعَيْدٌ فَأَعْوَلَتْ ... عَلَيْهِ مَعَ الشُّمْطِ العَذَارَى النَّوَاهِدُ (٢)

وَأَنْتَ الَّذِي دَافَعْتَ عَنْهُ وَقَدْ دَعَا ... عُبَيْدَةُ جَمْعًا مِنْهُمْ إِذْ يُكَابِدُ

عَلَى حِينِ مَا هُمْ جَائِرٌ عَنْ طَرِيقِهِ ... وَآخَرُ مَرْعُوبٌ عَنِ القَصْدِ قَاصِدُ

وَاللهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: إِنَّ الَّذِي رَمَى سَعْدًا ﷺ خَفَاجَةُ بْنُ عَاصِمِ بْنِ حِبَّانَ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٦-٢٢٨].

وعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: خَرَجْتُ يَوْمَ الخَنْدَقِ أَقْفُو آثَارَ النَّاسِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ وَئِيدَ الأَرْضِ وَرَائِي ـ يَعْنِي حِسَّ الأَرْضِ ـ قَالَتْ: فَالتَفَتُّ فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ الحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ يَحْمِلُ مِجَنَّهُ (ترس)، قَالَتْ: فَجَلَسْتُ إِلَى الأَرْضِ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا أَطْرَافُهُ، فَأَنَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أَطْرَافِ سَعْدٍ، قَالَتْ: وَكَانَ سَعْدٌ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ، قَالَتْ: فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يَشْهَدْ الـهَيْجَا حَمَل ... مَا أَحْسَنَ الـمَوْتَ إِذَا حَانَ الأَجَل

قَالَتْ: فَقُمْتُ فَاقْتَحَمْتُ حَدِيقَةً، فَإِذَا فِيهَا نَفَرٌ مِنَ الـمُسْلِمِينَ، وَإِذَا فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ سَبْغَةٌ [تَسْبِغَةٌ] لَهُ ـ يَعْنِي مِغْفَرًا (هو ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد) ـ فَقَالَ عُمَرُ ﷺ:

---

(١) **مرشة**: يعني رمية أصابته فأطارت رشاش الدم منه. **العاند**: العرق الذي لا ينقطع منه الدم.

(٢) **الشمط**: هي التي خالط شعرها الشيب. **العذارى**: الأبكار. **النواهد**: جمع ناهد، وهي التي ظهر نهدها.

[وَيْحَكِ] مَا جَاءَ بِكِ؟ لَعَمْرِي وَاللهِ إِنَّكِ لَجَرِيئَةٌ، وَمَا يُؤْمِنُكِ أَنْ يَكُونَ بَلَاءٌ أَوْ يَكُونَ تَحَوُّزٌ (الحرب أو الأسر)؟ قَالَتْ: فَمَا زَالَ يَلُومُنِي حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنَّ الأَرْضَ انْشَقَّتْ لِي سَاعَتَئِذٍ فَدَخَلْتُ فِيهَا.

قَالَتْ: فَرَفَعَ الرَّجُلُ السَّبْغَةَ [تَسْبِغَةٌ] عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ، فَقَالَ: يَا عُمَرُ، وَيْحَكَ! إِنَّكَ قَدْ أَكْثَرْتَ مُنْذُ اليَوْمَ، وَأَيْنَ التَّحَوُّزُ أَوْ الفِرَارُ إِلَّا إِلَى اللهِ ﷻ.

قَالَتْ: وَيَرْمِي سَعْدًا رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ [حِبَّانُ] ابْنُ العَرِقَةِ بِسَهْمٍ لَهُ فَقَالَ لَهُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ العَرِقَةِ، فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَطَعَهُ، فَدَعَا اللهَ ﷻ سَعْدٌ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ قُرَيْظَةَ**»، قَالَتْ: وَكَانُوا حُلَفَاءَهُ وَمَوَالِيَهُ فِي الجَاهِلِيَّةِ، قَالَتْ: فَرَقِيَ [فَرَقَأَ] كَلْمُهُ...

[مسند أحمد ٤٢/ ٢٦ رقم ٢٥٠٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: بعضه صحيح، وجزء منه حسن، وهذا إسناد فيه ضعف، عمرو بن علقمة لم يرو عنه غير ابنه محمد، ومجمع الزوائد ٦/ ١٩٩-٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٥)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه، رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات. وقال الشيخ الصوياني: حسن. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٠].

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ قَالَ: لَمَّا أُصِيبَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ بِالرَّمْيَةِ يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَجَعَلَ دَمُهُ يَسِيلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَجَعَلَ يَقُولُ: **وَانْقِطَاعَ ظَهْرَاهُ**، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَهْ يَا أَبَا بَكْرٍ**»، فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: «**إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٩ في المغازي (٣٧٩٦٤)، وقال الشيخ عوامة: «رواه أحمد في فضائل الصحابة ﷺ رقم ١٥٠٢ عن يحيى القطان عن شعبة، به، وهذا إسناد جيد، وعمرو بن شرحبيل من أجلاء المخضرمين، وإرساله لا يضر عند بعض الأئمة». وقال محقق فضائل الصحابة: «مرسل رجاله ثقات»].

علاج سعد ﷺ وأمنيته:

وعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: أُصِيبَ سَعْدٌ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ، رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ: حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ، وَهُوَ حِبَّانُ بْنُ قَيْسٍ مِنْ بَنِي مَعِيصِ بْنِ عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، رَمَاهُ فِي الأَكْحَلِ، [فَحَوَّلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ]، فَضَرَبَ [عَلَيْهِ] النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ... [البخاري في المغازي (٤١٢٢)، وفي الصلاة (٤٦٣)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٩)، وأبو داود في الجنائز (٣١٠١)، والنسائي في المساجد (٧١٠)، ومسند أحمد ٤٠/ ٣٣٦ رقم ٢٤٢٩٤، والمصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٨ في المغازي (٣٧٩٦١)].

وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ فِي أَكْحَلِهِ، قَالَ: فَحَسَمَهُ (أي كواه ليقطع دمه، وأصل الحسم القطع) النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ بِمِشْقَصٍ (أي حديد طويل غير عريض كنصل السهم)، ثُمَّ وَرِمَتْ، فَحَسَمَهُ الثَّانِيَةَ.

[مسلم في السلام (٢٢٠٨)، ومسند أحمد ٢٢/ ٢٤٦ رقم ١٤٣٤٣، ٢٣/ ٣٤٣ رقم ١٥١٤٤].

وعَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: رُمِيَ يَوْمَ الأَحْزَابِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ، فَقَطَعُوا أَكْحَلَهُ أَوْ أَبْجَلَهُ (عرق في باطن الذراع، وقيل: هو عرق غليظ في الرجل فيما بين العصب والعظم. **وأكحله**: مثلها)، فَحَسَمَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّارِ فَانْتَفَخَتْ يَدُهُ، فَتَرَكَهُ فَنَزَفَهُ الدَّمُ، فَحَسَمَهُ أُخْرَى فَانْتَفَخَتْ يَدُهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا تُخْرِجْ نَفْسِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي** (تفرحني وتسرني) **مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَاسْتَمْسَكَ عِرْقُهُ، فَمَا قَطَرَ قَطْرَةً حَتَّى نَزَلُوا عَلَى

حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ... [الترمذي في السير (١٥٨٢)، والدارمي في السير (٢٥٥١)، ومسند أحمد ٢٣/ ٩٠ رقم ١٤٧٧٣، وقال الشيوخ الألباني والدارني والأرناؤوط: صحيح].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ يَوْمَ **قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ**، فَقُطِعَ أَكْحَلُهُ، فَحَسَمَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَتَغَيَّرَ [فَتَعَفَّرَ] وَانْتَقَضَ، فَحَسَمَهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ سَعْدٌ ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَا تَنْزِعْ نَفْسِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ**». [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٣ في المغازي والسير (١٠١٥٩)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٦/ ٧ رقم ٥٣٢٦]، وفيه عبد الكريم أبو أمية، وهو ضعيف].

وعَنْ عُرْوَةَ ـ يعني ابن الزبير ـ أَنَّ سَعْدَ بن مُعَاذٍ ﷺ رُمِيَ يَوْمَ الخَنْدَقِ رَمْيَةً، فَقَطَعَتِ الأَكْحَلَ مِنْ عَضُدِهِ، فَزَعَمُوا أَنَّهُ رَمَاهُ حِبَّانُ بن قَيْسٍ، أَحَدُ بني عَامِرِ بن لُؤَيٍّ، ثُمَّ أَحَدُ بني العَرِقَةِ، وَيَقُولُ آخَرُونَ: رَمَاهُ أَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ.

فَقَالَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ ﷺ: **رَبِّ اشْفِنِي مِنْ بني قُرَيْظَةَ قَبْلَ المَمَاتِ**، فَرَقَأَ الكَلْمُ (التأم) بَعْدَمَا قَدِ انْفَجَرَ.

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٦)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه عن عائشة متصل الإسناد، رواه الطبراني [في الكبير ٦/ ٧ رقم ٥٣٢٧] مرسلًا وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف. وقال محقق المعجم الكبير: قلت: وهذا من الضعيف].

جنُّ المدينة:

عَنْ أَبِي السَّائِبِ مَوْلَى هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ، فَسَمِعْتُ تَحْرِيكًا تَحْتَ سَرِيرٍ فِي بَيْتِهِ فَإِذَا حَيَّةٌ، فَقُمْتُ لِأَقْتُلَهَا، فَأَشَارَ أَبُو سَعِيدٍ ﷺ أَنْ اجْلِسْ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَشَارَ إِلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ فَقَالَ: أَتَرَى هَذَا البَيْتَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهِ فَتًى حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ، فَخَرَجَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ، فَبَيْنَا هُوَ بِهِ إِذْ أَتَاهُ الفَتَى يَسْتَأْذِنُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، ائْذَنْ لِي أُحْدِثُ بِأَهْلِي عَهْدًا، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَقَالَ: «**خُذْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَانْطَلَقَ الفَتَى إِلَى أَهْلِهِ، فَوَجَدَ امْرَأَتَهُ قَائِمَةً بَيْنَ البَابَيْنِ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ لِيَطْعُنَهَا، وَأَدْرَكَتْهُ غَيْرَةٌ، فَقَالَتْ: لَا تَعْجَلْ حَتَّى تَدْخُلَ وَتَنْظُرَ مَا فِي بَيْتِكَ، فَدَخَلَ فَإِذَا هُوَ بِحَيَّةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى فِرَاشِهِ، فَرَكَزَ فِيهَا رُمْحَهُ، ثُمَّ خَرَجَ بِهَا فَنَصَبَهُ فِي الدَّارِ، فَاضْطَرَبَتْ الحَيَّةُ فِي رَأْسِ الرُّمْحِ، وَخَرَّ الفَتَى مَيِّتًا، فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا: الفَتَى أَمِ الحَيَّةُ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: «**إِنَّ بِالمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا فَآذِنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ**». [موطأ مالك في الجامع (١٨٢٨)، والمغازي للواقدي ٢/ ٤٧٤-٤٧٥].

رجوع النبي ﷺ إلى المدينة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاق: «وَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ انْصَرَفَ عَنِ الخَنْدَقِ رَاجِعًا إِلَى المَدِينَةِ وَالمُسْلِمُونَ وَوَضَعُوا السِّلَاحَ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٣].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ بِالخَنْدَقِ أَصْبَحَ وَلَيْسَ بِحَضْرَتِهِ أَحَدٌ مِنَ العَسَاكِرِ قَدْ هَرَبُوا وَذَهَبُوا، وَجَاءَ رَسُولَ الله ﷺ الثَّبَتُ أَنَّهُمْ انْقَشَعُوا إِلَى بِلادِهِمْ، وَلَمَّا أَصْبَحُوا أَذِنَ رَسُولُ الله ﷺ لِلمُسْلِمِينَ فِي الانْصِرَافِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، فَخَرَجُوا مُبَادِرِينَ مَسْرُورِينَ بِذَلِكَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩١].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: بَعَثَنِي خَالِي عُثْمَانُ بن مَظْعُونٍ لآتِيَهُ بِلِحَافٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَاسْتَأْذَنْتُهُ وَهُوَ بِالخَنْدَقِ، فَأَذِنَ لِي، وَقَالَ: «**مَنْ لَقِيتَ مِنْهُمْ قُلْ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا**»، وَكَانَ ذَلِكَ فِي بَرْدٍ شَدِيدٍ، فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ النَّاسَ، فَقُلْتُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا، قَالَ: فَلا وَالله مَا عَطَفَ عَلَيَّ مِنْهُمُ اثْنَانِ أَوْ وَاحِدٌ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٦ في المغازي والسير (١٠١٥٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير [١٢/ ٣٦٨ رقم ١٣٣٦٩]، والأوسط [٥/ ٢٧٤ رقم ٥٢٩٩]، ورجاله رجال الصحيح. وقال أ/ حوى: «الظاهر أن الناس لم يلتفتوا لكلمة ابن عمر لصغره؛ ولأن الإذن كان قد حصل مباشرة قبل ذلك، والبرد شديد». الأساس في السنة ـ السيرة ٢/ ٦٨٩].

وعَنْ نَافِعٍ قَالَ: قِيلَ لابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَيْنَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي يَوْمَ الأَحْزَابِ؟ قَالَ: كَانَ يُصَلِّي فِي بَطْنِ الشِّعْبِ عِنْدَ خَرِبَةٍ هُنَاكَ، وَلَقَدْ أَذِنَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الانْصِرَافِ لِلنَّاسِ، ثُمَّ أَمَرَنِي أَنْ أَدْعُوَهُمْ، فَدَعَوْتُهُمْ. [مجمع الزوائد ٦/ ١٩٥-١٩٦ في المغازي والسير (١٠١٤٩)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٢/ ٣٦٩ رقم ١٣٣٧٠] ورجاله ثقات. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٢].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَكَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تَعْلَمَ بَنُو قُرَيْظَةَ رَجْعَتَهُمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، فَأَمَرَ بِرَدِّهِمْ وَبَعَثَ مَنْ يُنَادِي فِي أَثَرِهِمْ، فَمَا رَجَعَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَكَانَ مِمَّنْ يَرُدُّهُمْ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، أَمَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ عَبْدُ الله: فَجَعَلْتُ أَصِيحُ فِي أَثَرِهِمْ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ: إِنَّ رَسُولَ الله أَمَرَكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا، فَمَا رَجَعَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مِنَ القُرِّ وَالجُوعِ، فَكَانَ يَقُولُ: كَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ يَرَى سُرْعَتَهُمْ، وَكَرِهَ أَنْ يَكُونَ لِقُرَيْشٍ عُيُونٌ.

قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله رضي الله عنهما: أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَرُدَّهُمْ فَجَعَلْتُ أَصِيحُ بِهِمْ فَمَا يَرْجِعُ أَحَدٌ، فَانْطَلَقْتُ فِي أَثَرِ بَنِي حَارِثَةَ، فَوَالله مَا أَدْرَكْتُهُمْ حَتَّى دَخَلُوا بُيُوتَهُمْ وَلَقَدْ صِحْتُ، فَمَا يَخْرُجُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنْ جَهْدِ الجُوعِ، وَالقُرِّ، فَرَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَلْقَاهُ فِي بَنِي حَرَامٍ مُنْصَرِفًا، فَأَخْبَرْتُهُ فَضَحِكَ ﷺ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٩١-٤٩٢].

وعَنْ كَعْبِ بن مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ طَلَبِ الأَحْزَابِ، فَنَزَلَ المَدِينَةَ، نَزَعَ [وَضَعَ] لأْمَتَهُ، وَاغْتَسَلَ، وَاسْتَجْمَرَ. [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٤ في المغازي والسير (١٠١٦٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط [٨/ ١٣٥] ورجاله ثقات، ورقم ١٠١٦٤ وقال الهيثمي: رواه الطبراني [في المعجم الكبير ١٩/ ٨٠] ورجاله رجال الصحيح غير ابن أبي الهذيل وهو ثقة، والمطالب العالية لابن حجر ١٧/ ٣٨٣ في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ (٤٢٧٢)، ونسبه لإسحاق بن راهويه، وقال ابن حجر: إسناده حسن].

فيمن استشهد يوم الخندق:

عن ابن شهاب قال: استشهد يوم الخندق من الأنصار: أنس بن معاذ بن أوس بن عبد عمرو، ومن الأنصار ثم من بني سلمة: ثعلبة بن عتمة. [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٦ في المغازي والسير (١٠١٧٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [في المعجم الكبير ١/ ٢٦٥ رقم ٧٧٠] ورجاله رجال الصحيح، وقد تقدم حديث سعد بن معاذ ﷺ والقرينين].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ إِلَّا سِتَّةُ نَفَرٍ:

١ ـ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ [رَمَاهُ حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ فَمَاتَ، وَيُقَالُ: رَمَاهُ أَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ].

٢ ـ وَأَنَسُ بْنُ أَوْسِ بْنِ عَتِيكِ بْنِ عَمْرٍو [بْنِ عَبْدِ الأَعْلَمِ بْنِ زَعُورَاءَ بْنِ جُشَمِ بْنِ عَبْدِ الأَشْهَلِ قَتَلَهُ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، رَمَاهُ بِسَهْمٍ].

٣ ـ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ سَهْلٍ [الأَشْهَلِيُّ، رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عُوَيْفٍ فَقَتَلَهُ]. ثَلَاثَةُ نَفَرٍ.

٤ ـ وَمِنْ بَنِي جُشَمَ بْنِ الخَزْرَجِ، ثُمَّ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ الطُّفَيْلُ بْنُ النُّعْمَانِ [قَتَلَهُ وَحْشِيٌّ، وَكَانَ وَحْشِيٌّ يَقُولُ: أَكْرَمَ اللهُ بِحَرْبَتِي حَمْزَةَ وَالطُّفَيْلَ].

٥ ـ وَثَعْلَبَةُ بْنُ غَنَمَةَ [بْنِ عَدِيِّ بْنِ نَابِي، قَتَلَهُ هُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ المَخْزُومِيُّ]. رَجُلَانِ.

٦ ـ وَمِنْ بَنِي النَّجَّارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي دِينَارٍ: كَعْبُ بْنُ زَيْدٍ أَصَابَهُ سَهْمُ غَرْبٍ فَقَتَلَهُ [وَكَانَ قَدْ أُرْتُثَّ يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ فَصَحَّ حَتَّى قُتِلَ فِي الخَنْدَقِ، قَتَلَهُ ضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ. فَجَمِيعُ مَنْ اُسْتُشْهِدَ مِنَ الـمُسْلِمِينَ سِتَّةُ نَفَرٍ].

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٢-٢٥٣، وما بين المعكوفتين زيادات من المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٥-٤٩٦].

ويقول أ/ باشميل: «كان كل شهداء المسلمين في هذه المعركة (ثمانية فقط)، وكلهم من الأنصار، إذ لم يُقتل أحد من المهاجرين في هذه المعركة، هؤلاء الشهداء الستة الذين ذكرهم ابن إسحاق والواقدي، وهناك شهيدان لم يذكرهما ابن إسحاق والواقدي، قُتلا وهم يقومان بأعمال الاستكشاف لمعرفة تحركات جيوش العدو، قتلتهما دورية لجيوش الأحزاب، كانت تقوم بأعمال الاستطلاع بالقرب من المدينة.

عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ وَهْبٍ الْخُزَاعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ سَلِيطًا، وَسُفْيَانَ بْنَ عَوْفٍ الْأَسْلَمِيَّ ﷺ طَلِيعَةً (الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو أو مقدمة الجيش) يَوْمَ الْأَحْزَابِ، فَخَرَجَا حَتَّى إِذَا كَانَا بِالْبَيْدَاءِ (الصحراء) الْتَفَّتْ عَلَيْهِمْ خَيْلٌ لِأَبِي سُفْيَانَ، فَقَاتَلَا حَتَّى قُتِلَا، فَأُتِيَ بِهِمَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَدُفِنَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ، فَهُمَا الشَّهِيدَانِ الْقَرِيبَانِ [الْقَرِينَانِ].

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٥ في المغازي والسير (١٠١٤٨)، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار ٢/ ٣٣٢ رقم ١٨٠٥]، وفيه جماعة لم أعرفهم].

وقد ذكر هذين الشهيدين ـ أيضًا ـ ابن برهان الدين في كتابه (السيرة الحلبية ٢/ ١٠١)، ولم يذكر ابن برهان الدين في كتابه هل هذان الشهيدان من المهاجرين أم من الأنصار، والأقرب إلى الصواب أنهما من

الأنصار؛ لأنه يستبعد (جدًّا) أن يرسل النبي ﷺ من يستطلع له أخبار العدو، في أرض هو ليس من أهلها؛ لأن الأنصار أدرى بتلك المناطق من المهاجرين، فمن المستبعد أن يرسل النبي ﷺ مهاجريًّا للقيام بالاستكشاف في تلك المناطق.

وقد بحثت عن ترجمة لهذين الشهيدين في «الإصابة»، و«الاستيعاب»، و«طبقات ابن سعد الكبرى» فلم أجد لهما شيئًا. [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٣٨-٢٣٩].

قتلى لم يُعرف عددهم:

يقول أ/ باشميل: «وعلاوة على هؤلاء الثمانية الذين استشهدوا من المسلمين فإن هناك قتلى وجرحى آخرين من المسلمين، أصيبوا (خطأ) في ليلة من ليالي الخندق.

فقد ذكر المؤرخون أن دوريتين للمسلمين خرجتا (ليلًا) لحراسة مشارف الخندق، فالتقتا ـ ولا يشعر بعضهم ببعض ـ فظنت كل دورية أن الأخرى من العدو، فاصطدموا، وكانت بينهم جراحة وقتل، ثم نادوا بشعار الإسلام «حم لا ينصرون» فكف بعضهم عن بعض، ولما بلغ الخبر رسول الله ﷺ قال: «**جِرَاحُكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ**».

[سبق تفصيل ذلك في المبحث السادس بعنوان «الجراحات بين كتيبتين مسلمتين»].

إلا أن أحدًا من المؤرخين لم يذكر عدد وأسماء القتلى أو الجرحى الذين أصيبوا في هذه الحادثة، والله أعلم». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٤٠].

قتلى المشركين:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ:

١ ـ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ: مُنَبِّهُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ السَّبَّاقِ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ، أَصَابَهُ سَهْمٌ فَمَاتَ مِنْهُ بِمَكَّةَ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: هُوَ عُثْمَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ مُنَبِّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ السَّبَّاقِ.

٢ ـ وَمِنْ بَنِي مَخْزُومِ بْنِ يَقَظَةَ نَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، [قَتَلَهُ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَيُقَالُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ] سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَبِيعَهُمْ جَسَدَهُ وَكَانَ اقْتَحَمَ الْخَنْدَقَ، فَتَوَرَّطَ فِيهِ فَقُتِلَ فَغَلَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى جَسَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا حَاجَةَ لَنَا فِي جَسَدِهِ وَلَا بِثَمَنِهِ**»، فَخَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَعْطَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِجَسَدِهِ عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ فِيمَا بَلَغَنِي عَنِ الزُّهْرِيِّ.

٣ ـ وَمِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، ثُمَّ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ حِسْلِ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ، قَتَلَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَحَدَّثَنِي الثِّقَةُ أَنَّهُ حُدِّثَ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: قَتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ وَابْنَهُ حِسْلَ بْنَ عَمْرٍو.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ، وَيُقَالُ: عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٣-٢٥٤، وما بين المعكوفتين زيادات من المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٦].

المبحث التاسع

سياق قصة الخندق من مغازي ابن عقبة رحمه الله

جاء في دلائل النبوة للحافظ البيهقي: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الحَافِظُ ، قَالَ: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الفَضْلِ بْنِ مُحَمَّدٍ الشَّعْرَانِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا جَدِّي، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ الحِزَامِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ ابْنُ فُلَيْحٍ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، ح وَأَخْبَرَنَا أَبُو الحُسَيْنِ بْنُ الفَضْلِ القَطَّانُ، بِبَغْدَادَ، وَاللَّفْظُ لَهُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَتَّابٍ العَبْدِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا القَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ الْمُغِيرَةِ ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ عَمِّهِ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ قَالَ: خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ وَقُرَيْشٌ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي العَرَبِ، مَعَهُمْ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَاسْتَمَدُّوا عُيَيْنَةَ ابْنَ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ، فَأَقْبَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ غَطَفَانَ، وَبَنُو أَبِي الحُقَيْقِ كِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الحُقَيْقِ سَعَى فِي غَطَفَانَ وَحَضَّهُمْ عَلَى القِتَالِ عَلَى أَنَّ لَـهُمْ نِصْفَ ثَمَرِ خَيْبَرَ، فَزَعَمُوا أَنَّ الحَارِثَ بْنَ عَوْفٍ أَخَا بَنِي مُرَّةَ قَالَ لِعُيَيْنَةَ بْنَ بَدْرٍ وَغَطَفَانَ: **يَا قَوْمِ أَطِيعُونِي وَدَعُوا قِتَالَ هَذَا الرَّجُلِ، وَخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ مِنَ العَرَبِ**، فَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ وَقَطَعَ أَعْنَاقَهُمُ الطَّمَعُ، فَانْقَادُوا لِأَمْرِ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ عَلَى قِتَالِ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَتَبُوا إِلَى حُلَفَائِهِمْ مِنْ أَسَدٍ، فَأَقْبَلَ طُلَيْحَةُ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَهُمَا حَلِيفَانِ: أَسَدٌ وَغَطَفَانُ، وَكَتَبَتْ قُرَيْشٌ إِلَى رِجَالٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ أَشْرَافٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ، فَأَقْبَلَ أَبُو الأَعْوَرِ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ مَدَدًا لِقُرَيْشٍ، فَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ فِي آخِرِ السَّنَتَيْنِ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ قَبَائِلِ العَرَبِ، وَأَبُو الأَعْوَرِ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ، فَهُمُ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ الأَحْزَابَ.

فَلَـمَّا بَلَغَ خُرُوجُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ فِي حَفْرِ الخَنْدَقِ، وَخَرَجَ مَعَهُ الـمُسْلِمُونَ، فَوَضَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَهُ فِي العَمَلِ مَعَهُمْ، فَعَمِلُوا مُسْتَعْجِلِينَ يُبَادِرُونَ قُدُومَ العَدُوِّ، وَرَأَى الـمُسْلِمُونَ إِنَّمَا بَطَشَ رَسُولُ الله ﷺ مَعَهُمْ فِي العَمَلِ لِيَكُونَ أَجَدَّ لَـهُمْ وَأَقْوَى لَـهُمْ بِإِذْنِ الله ﷻ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَضْحَكُ مِنْ صَاحِبِهِ إِذَا رَأَى مِنْهُ فَتْرَةً (ضعفًا)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَغْضَبِ اليَوْمَ أَحَدٌ مِنْ شَيْءٍ ارْتُجِزَ بِهِ مَا لَمْ يَقُلْ قَوْلَ كَعْبٍ أَوْ حَسَّانَ، فَإِنَّهُمَا يَجِدَانِ مِنْ ذَلِكَ قَوْلًا كَثِيرًا**»، وَنَهَاهُمَا أَنْ يَقُولَا شَيْئًا يُحْفِظَانِ (يغضبان) بِهِ أَحَدًا.

فَذَكَرُوا أَنَّهُ عَرَضَ لَـهُمْ حَجَرٌ فِي مَحْفَرِهِمْ، فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ مِعْوَلًا مِنْ أَحَدِهِمْ فَضَرَبَهُ بِهِ ثَلَاثًا، فَكُسِرَ الحَجَرُ فِي الثَّالِثَةِ، فَزَعَمُوا أَنَّ سَلْمَانَ الخَيْرَ الفَارِسِيَّ ﷺ أَبْصَرَ عِنْدَ كُلِّ ضَرْبَةٍ بُرْقَةً ذَهَبَتْ فِي ثَلَاثِ وُجُوهٍ، كُلَّ مَرَّةٍ يُتْبِعُهَا سَلْمَانُ بَصَرَهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَلْمَانُ لِرَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: **رَأَيْتُ كَهَيْئَةِ البَرْقِ، أَوْ مَوْجِ المَاءِ، عَنْ ضَرْبَةٍ ضَرَبْتَهَا يَا رَسُولَ الله ذَهَبَتْ إِحْدَاهُنَّ نَحْوَ المَشْرِقِ، وَالأُخْرَى نَحْوَ الشَّامِ، وَالأُخْرَى نَحْوَ اليَمَنِ**، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَقَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ

الله ﷺ: «فَإِنَّهُ أُبِيضَ لِي فِي إِحْدَاهِنَّ مَدَائِنُ كِسْرَى وَمَدَائِنُ مِنْ تِلكَ البِلَادِ، وَفِي الأُخْرَى مَدِينَةُ الرُّومِ وَالشَّامِ، وَفِي الأُخْرَى مَدِينَةُ اليَمَنِ وَقُصُورُهَا، وَالَّذِي رَأَيْتُ النَّصْرُ يَبْلُغُهُنَّ إِنْ شَاءَ اللهُ»، وَكَانَ سَلْمَانُ ﷺ يَذْكُرُ ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ: وَكَانَ سَلْمَانُ ﷺ رَجُلًا قَوِيًّا، فَلَمَّا وَكَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكُلِّ جَانِبٍ مِنَ الخَنْدَقِ، قَالَ الـمُهَاجِرُونَ: يَا سَلْمَانُ، احْفُرْ مَعَنَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: لَا أَحَدَ أَحَقُّ بِهِ مِنَّا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ».

[أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٩٨، وقال الذهبي: سنده ضعيف].

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: لَـمَّا قَتَلَ الأَسْوَدَ العَنْسِيَّ كَذَّابَ صَنْعَاءَ فَيْرُوزُ الدَّيْلَمِيُّ، وَقَدِمَ قَادِمُهُمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدْ أَسْلَمُوا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ نَحْنُ؟ قَالَ: أَنْتُمْ إِلَيْنَا أَهْلَ البَيْتِ وَمِنَّا.

فَلَـمَّا قَضَوْا حَفْرَ خَنْدَقِهِمْ، وَذَلِكَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ، وَهُوَ عَامُ الأَحْزَابِ وَعَامُ الخَنْدَقِ، أَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ، فَنَزَلُوا بِأَعْلَى وَادِي قَنَاةَ مِنْ تِلقَاءِ الغَابَةِ (موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة).

وَغَلَّقَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ حِصْنَهُمْ، وَتَأَشَّمُوا بِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَقَالُوا: لَا تَكُونُوا مِنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ فِي شَيْءٍ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَمِنْ تَكُونُ الدَّبْرَةُ، وَقَدْ أَهْلَكَ حُيَيٌّ قَوْمَهُ فَاحْذَرُوهُ.

وَأَقْبَلَ حُيَيٌّ حَتَّى أَتَى بَابَ حِصْنِهِمْ، وَهُوَ مُغْلَقٌ عَلَيْهِمْ، وَسَيِّدُ اليَهُودِ يَوْمَئِذٍ كَعْبُ بْنُ أُسَدٍ، فَقَالَ حُيَيٌّ: أَثَمَّ كَعْبٌ؟ قَالَتِ امْرَأَتُهُ: لَيْسَ هَا هُنَا، خَرَجَ لِبَعْضِ حَاجَاتِهِ، فَقَالَ حُيَيٌّ: بَلْ هُوَ عِنْدَكِ، مَكَثَ عَلَى جَشِيشَتِهِ [1] يَأْكُلُ مِنْهَا، فَكَرِهَ أَنْ أُصِيبَ مَعَهُ مِنَ العَشَاءِ.

فَقَالَ كَعْبٌ: ائْذَنُوا لَهُ فَإِنَّهُ مَشْؤُومٌ، وَاللهِ مَا طُرِقْنَا [طَرَقَنَا] بِخَيْرٍ.

فَدَخَلَ حُيَيٌّ فَقَالَ: إِنِّي جِئْتُكَ وَاللهِ بِعِزِّ الدَّهْرِ إِنْ لَمْ تَتْرُكْهُ عَلَيَّ، أَتَيْتُكَ بِقُرَيْشٍ [وَسَادَتِهَا وَقَادَتِهَا]، وَسُقْتُ إِلَيْكَ الخَلِيفَيْنِ: أَسَدٌ وَغَطَفَانُ.

فَقَالَ كَعْبُ ابْنُ أَسَدٍ: إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا جِئْتَ بِهِ كَمَثَلِ سَحَابَةٍ أَفْرَغَتْ مَا فِيهَا ثُمَّ انْطَلَقَتْ، وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ، دَعْنَا عَلَى عَهْدِنَا لِهَذَا الرَّجُلِ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ رَجُلًا أَصْدَقَ وَلَا أَوْفَى مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَاللهِ مَا أَكْرَهَنَا عَلَى دِينٍ، وَلَا غَصَبَنَا مَالًا، وَلَا نَنْقِمُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَعَمَلِكَ شَيْئًا، وَأَنْتَ تَدْعُو إِلَى الـهَلَكَةِ، فَنُذَكِّرُكَ اللهَ إِلَّا مَا أَعْفَيْتَنَا مِنْ نَفْسِكَ.

---

(١) جشيشة: طعام يُصنع من البر يطحن غليظًا، ثم تجعل في القدور ويُلقى عليه لحم أو تمر أو تطبخ. النهاية لابن الأثير ١/ ٢٧٣، وهو الذي تقول له العامة: «دشيش» بالدال، والصواب بالجيم.

فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَفْعَلُ وَلَا يَخْتَبِزُهَا مُحَمَّدٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَلَا نَفْتَرِقُ نَحْنُ وَهَذِهِ الجُمُوعُ حَتَّى نَهْلَكَ.

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَعْدٍ القُرَظِيُّ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، إِنَّكُمْ قَدْ حَالَفْتُمْ مُحَمَّدًا عَلَى مَا قَدْ عَلِمْتُمْ أَنْ لَا تَخُونُوهُ، وَلَا تَنْصُرُوا عَلَيْهِ عَدُوًّا، وَأَنْ تَنْصُرُوهُ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ، فَأَوْفُوا عَلَى مَا عَاهَدْتُمُوهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ وَاعْتَزِلُوهُمْ.

فَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ حُيَيٌّ حَتَّى شَأَمَهُمْ، فَاجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ فِي الغَدِ عَلَى أَمْرِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، غَيْرَ أَنَّ بَنِي سَعْيَةَ أَسَدًا وَأُسَيْدًا وَثَعْلَبَةَ خَرَجُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، زَعَمُوا.

وَقَالَتِ اليَهُودُ: يَا حُيَيُّ، انْطَلِقْ إِلَى أَصْحَابِكَ، فَإِنَّا لَا نَأْمَنُهُمْ، فَإِنْ أَعْطَوْنَا مِنْ أَشْرَافِهِمْ مِنْ كُلِّ مَنْ جَاءَ مَعَهُمْ رَهْنًا، فَكَانُوا عِنْدَنَا، فَإِذَا نَهَضُوا لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ خَرَجْنَا نَحْنُ فَرَكِبْنَا أَكْتَافَهُمْ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَاشْدُدِ العَقْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.

فَذَهَبَ حُيَيٌّ إِلَى قُرَيْشٍ فَعَاقَدُوهُ عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا إِلَيْهِ السَّبْعِينَ، وَمَزَّقُوا صَحِيفَةَ القَضِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَهُمْ، وَنَبَذُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالحَرْبِ وَتَحَصَّنُوا.

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَعَبَّأَ أَصْحَابَهُ لِلقِتَالِ، وَقَدْ جَعَلَهُمُ المُشْرِكُونَ فِي مِثْلِ الحِصْنِ بَيْنَ كَتَائِبِهِمْ، فَحَاصَرُوهُمْ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَأَخَذُوا بِكُلِّ نَاحِيَةٍ حَتَّى مَا يَدْرِي الرَّجُلُ أَتَمَّ صَلَاتَهُ أَمْ لَا، وَوَجَّهُوا نَحْوَ مَنْزِلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَتِيبَةً غَلِيظَةً يُقَاتِلُونَهُمْ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ، فَلَمَّا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ ـ صَلَاةُ العَصْرِ ـ دَنَتِ الكَتِيبَةُ، فَلَمْ يَقْدِرِ النَّبِيُّ ﷺ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَنْ يُصَلُّوا الصَّلَاةَ عَلَى نَحْوِ مَا أَرَادُوا، فَانْكَفَأَتِ الكَتِيبَةُ مَعَ اللَّيْلِ، فَزَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ العَصْرِ، مَلَأَ اللهُ بُطُونَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا».

فَلَمَّا اشْتَدَّ البَلَاءُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ نَافَقَ نَاسٌ كَثِيرٌ وَتَكَلَّمُوا بِكَلَامٍ قَبِيحٍ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا فِيهِ النَّاسُ مِنَ البَلَاءِ وَالكَرْبِ، جَعَلَ يُبَشِّرُهُمْ وَيَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُفْرَجَنَّ عَنْكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنَ الشِّدَّةِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالبَيْتِ العَتِيقِ آمِنًا، وَأَنْ يَدْفَعَ اللهُ ﷻ إِلَيَّ مَفَاتِيحَ الكَعْبَةِ، وَلَيُهْلِكَنَّ اللهُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَلَتُنْفِقُنَّ كُنُوزَهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ».

وَقَالَ رَجُلٌ مِمَّنْ مَعَهُ لِأَصْحَابِهِ: أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ مُحَمَّدٍ؟ يَعِدُنَا أَنْ نَطُوفَ بِالبَيْتِ العَتِيقِ، وَأَنْ نَقْسِمَ كُنُوزَ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَنَحْنُ هَاهُنَا لَا يَأْمَنُ أَحَدُنَا أَنْ يَذْهَبَ الغَائِطَ، وَاللهِ لَمَا يَعِدُنَا إِلَّا غُرُورًا.

وَقَالَ آخَرُونَ مِمَّنْ مَعَهُ: ائْذَنْ لَنَا فَإِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا.

وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ أَخَا بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ، وَخَوَّاتَ بْنَ جُبَيْرٍ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ لِيُكَلِّمُوهُمْ وَيُنَاشِدُوهُمْ فِي حِلْفِهِمْ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى أَتَوْا بَابَ حِصْنِ بَنِي

قُرَيْظَةَ اسْتَفْتَحُوا، فَفُتِحَ لَـهُمْ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى الْمُوَادَعَةِ وَتَجْدِيدِ الحِلفِ فَقَالُوا: **الآنَ وَقَدْ كَسَرُوا جَنَاحَنَا**، يُرِيدُونَ بِجَنَاحِهِمُ الْمَكْسُورَةِ بَنِي النَّضِيرِ، ثُمَّ أَخْرَجُوهُمْ وَشَتَمُوا النَّبِيَّ ﷺ شَتْمًا، فَجَعَلَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يُشَاتِمُهُمْ، فَأَغْضَبَهُمْ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: **إِنَّا وَاللهِ مَا جِئْنَا لِهَذَا، وَلَمَا بَيْنَنَا أَكْثَرُ مِنَ الْمُشَاتَمَةِ**، ثُمَّ نَادَاهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ فَقَالَ: **إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ يَا بَنِي قُرَيْظَةَ، وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ بَنِي النَّضِيرِ، أَوْ أَمَرَّ مِنْهُ**، فَقَالُوا: **أَكَلتَ أَيْرَ أَبِيكَ**، فَقَالَ: **غَيْرُ هَذَا مِنَ الْقَوْلِ كَانَ أَجْمَلَ وَأَحْسَنَ مِنْهُ**.

فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ يَئِسُوا مِمَّا عِنْدَهُمْ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وُجُوهِهِمُ الكَرَاهِيَةَ لَمَا جَاؤُوا بِهِ، فَقَالَ: «**مَا وَرَاءَكُمْ؟**» فَقَالُوا: **أَتَيْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخَابِثِ خَلقِ اللهِ وَأَعْدَاهُ للهِ ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ**، وَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي قَالُوا، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكِتْمَانِ خَبَرِهِمْ.

وَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَهُمْ فِي بَلَاءٍ شَدِيدٍ يَخَافُونَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، فَقَالُوا حِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ مُقْبِلًا: **مَا وَرَاءَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ**: «**خَيْرٌ فَأَبْشِرُوا**»، ثُمَّ تَقَنَّعَ بِثَوْبِهِ فَاضْطَجَعَ وَمَكَثَ طَوِيلًا، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ وَالخَوْفُ حِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ اضْطَجَعَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ خَيْرٌ، ثُمَّ إِنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا بِفَتْحِ اللهِ وَنَصْرِهِ**».

فَلَـمَّا أَصْبَحُوا دَنَا القَوْمُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَكَانَ بَيْنَهُمْ رَمْيُ النَّبْلِ وَالحِجَارَةِ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ لَا تُعْبَدُ**».

وَأَقْبَلَ نَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الـمَخْزُومِيُّ، وَهُوَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ لِيُقْحِمَهُ الخَنْدَقَ، فَقَتَلَهُ اللهُ وَكَبَتَ بِهِ الـمُشْرِكِينَ، وَعَظُمَ فِي صُدُورِهِمْ، وَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: **إِنَّا نُعْطِيكُمُ الدِّيَةَ عَلَى أَنْ تَدْفَعُوهُ إِلَيْنَا فَنَدْفِنَهُ**، فَرَدَّ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنَّهُ خَبِيثٌ خَبِيثُ الدِّيَةِ، فَلَعَنَهُ اللهُ وَلَعَنَ دِيَتَهُ، فَلَا أَرَبَ لَنَا بِدِيَتِهِ، وَلَسْنَا مَانِعِيكُمْ أَنْ تَدْفِنُوهُ**».

وَرُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ رَمْيَةً فَقَطَعَتْ مِنْهُ الأَكْحَلَ (عرق في وسط الذراع يكثر فصده) مِنْ عَضُدِهِ، وَرَمَاهُ ـ زَعَمُوا ـ حَبَّانُ بْنُ قَيْسٍ أَخُو بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي العَرِقَةِ، وَيَقُولُ آخَرُونَ: أَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ حَلِيفُ بَنِي مَخْزُومٍ.

وَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ: «**رَبِّ اشْفِنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ قَبْلَ الْمَمَاتِ**»، فَرَقَأَ الكَلْمُ (جف الجرح) بَعْدَ مَا كَانَ قَدِ انْفَجَرَ.

وَصَبَرَ أَهْلُ الإِيمَانِ عَلَى مَا رَأَوْا مِنْ كَثْرَةِ الأَحْزَابِ وَشِدَّةِ أَمْرِهِمْ، وَزَادَهُمْ يَقِينًا لِمَوْعِدِ اللهِ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ الَّذِي وَعَدَهُمْ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، ثُمَّ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَرْسَلَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ: **أَنْ قَدْ طَالَ**

ثَوَاؤُنَا هَاهُنَا، وَأَجْدَبَ مَنْ حَوْلَنَا، فَمَا نَجِدُ رَعْيًا لِلظَّهْرِ، وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ فَيَقْضِيَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَمَاذَا تَرَوْنَ؟ وَبَعَثَتْ بِذَلِكَ غَطَفَانُ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ: أَنْ نِعْمَ مَا رَأَيْتُمْ، فَإِذَا شِئْتُمْ فَانْهَضُوا، فَإِنَّا لَا نَحْبِسُكُمْ إِذَا بَعَثْتُمْ بِالرَّهْنِ إِلَيْنَا.

وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَشْجَعَ يُقَالُ لَهُ: نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ، يُذِيعُ الأَحَادِيثَ، وَقَدْ سَمِعَ الَّذِي أَرْسَلَتْ بِهِ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَالَّذِي رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ أَشَارَ إِلَيْهِ وَذَلِكَ عِشَاءً، فَأَقْبَلَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قُبَّةً لَهُ تُرْكِيَّةً، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا وَرَاءَكَ؟» قَالَ: إِنَّهُ وَالله مَا لَكَ طَاقَةٌ بِالْقَوْمِ وَقَدْ تَحَزَّبُوا عَلَيْكَ وَهُمْ مُعَاجِلُوكَ، وَقَدْ بَعَثُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ أَنَّهُ قَدْ طَالَ ثَوَاؤُنَا، وَأَجْدَبَ مَا حَوْلَنَا، وَقَدْ أَحْبَبْنَا أَنْ نُعَاجِلَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُمْ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَنْ نِعْمَ مَا رَأَيْتُمْ، فَإِذَا شِئْتُمْ فَابْعَثُوا بِالرَّهْنِ ثُمَّ لَا يَحْبِسُكُمْ إِلَّا أَنْفُسُكُمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ شَيْئًا فَلَا تَذْكُرْهُ»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: «إِنَّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا إِلَيَّ يَدْعُونَنِي إِلَى الصُّلحِ وَأَرُدَّ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ».

فَخَرَجَ نُعَيْمٌ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى غَطَفَانَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ، وَعَسَى اللهُ أَنْ يَصْنَعَ لَنَا»، فَأَتَى نُعَيْمٌ غَطَفَانَ فَقَالَ: إِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ، وَإِنِّي قَدِ اطَّلَعْتُ عَلَى غَدْرِ يَهُودَ، تَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَكْذِبْ قَطُّ، وَإِنِّي سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ صَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ إِخْوَانَهُمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَيَدْفَعُونَ إِلَيْهِ الرَّهْنَ.

ثُمَّ خَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيُّ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَقُرَيْشًا فَقَالَ: اعْلَمُوا أَنِّي قَدِ اطَّلَعْتُ عَلَى غَدْرِ يَهُودَ، إِنِّي سَمِعْتُ مُحَمَّدًا يُحَدِّثُ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ صَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ إِخْوَانَهُمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا إِلَيْهِ الرَّهْنَ، وَيُقَاتِلُونَ مَعَهُ، وَيُعِيدُونَ الكِتَابَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ.

فَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى أَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَقَالَ: أَشِيرُوا عَلَيَّ، وَقَدْ مَلُّوا مُقَامَهُمْ، وَتَعَذَّرَتْ عَلَيْهِمُ البِلَادُ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ نَرْجِعَ وَلَا نُقِيمَ، فَإِنَّ الحَدِيثَ عَلَى مَا حَدَّثَكَ نُعَيْمٌ، وَالله مَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ، وَإِنَّ القَوْمَ لَغُدُرٌ.

وَقَالَتِ الرَّهْنُ حِينَ سَمِعُوا الحَدِيثَ: وَالله لَا نَأْمَنُهُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا، وَلَا نَدْخُلُ حِصْنَهُمْ أَبَدًا.

وَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنْ نَعْجَلَ حَتَّى نُرْسِلَ إِلَيْهِمْ فَنَتَبَيَّنَ مَا عِنْدَهُمْ.

فَبَعَثَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَيْهِمْ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، وَفَوَارِسَ، وَذَلِكَ لَيْلَةَ السَّبْتِ، فَأَتَوْهُمْ فَكَلَّمُوهُمْ فَقَالُوا: إِنَّا مُقَاتِلُونَ غَدًا فَاخْرُجُوا إِلَيْنَا، قَالُوا: إِنَّ غَدًا السَّبْتُ، وَإِنَّا لَا نُقَاتِلُ فِيهِ أَبَدًا، فَقَالَ عِكْرِمَةُ: إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ الإِقَامَةَ، هَلَكَ الظَّهْرُ وَالكُرَاعُ، وَلَا نَجِدُ رَعْيًا، فَقَالَتِ اليَهُودُ: إِنَّا لَا نَعْمَلُ يَوْمَ السَّبْتِ عَمَلًا بِالقِتَالِ، وَلَكِنِ امْكُثُوا إِلَى يَوْمِ الأَحَدِ، وَابْعَثُوا إِلَيْنَا بِالرَّهْنِ، فَرَجَعَ عِكْرِمَةُ وَقَدْ يَئِسَ مِنْ نَصْرِهِمْ.

وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ وَالحَصْرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَشَغَلَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ فَلَا يَسْتَرِيحُونَ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا، وَأَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ رَجُلًا فَيَخْرُجَ مِنَ الخَنْدَقِ فَيَعْلَمَ مَا خَبَرُ القَوْمِ، فَأَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «**هَلْ أَنْتَ مُطَّلِعٌ القَوْمَ؟**» فَاعْتَلَّ فَتَرَكَهُ، وَأَتَى آخَرَ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَحُذَيْفَةُ ابْنُ اليَمَانِ ﷺ يَسْمَعُ مَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ صَامِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا بِهِ مِنَ الضُّرِّ وَالبَلَاءِ، فَأَتَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ لَا يَدْرِي مَنْ هُوَ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» قَالَ: «**أَنَا حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمَانِ**، قَالَ: «**إِيَّاكَ أُرِيدُ، أَسَمِعْتَ حَدِيثِي مُنْذُ اللَّيْلَةِ وَمَسْأَلَتِي الرِّجَالَ لِأَبْعَثَهُمْ فَيَتَخَبَّرُونَ لَنَا خَبَرَ القَوْمِ؟**» قَالَ حُذَيْفَةُ: «**وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنَّهُ لَبِأُذُنَيَّ**، قَالَ: «**فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُومَ حِينَ سَمِعْتَ كَلَامِي؟**» قَالَ: «**الضُّرُّ وَالجُوعُ**، فَلَمَّا ذَكَرَ الجُوعَ ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**قُمْ حَفِظَكَ اللهُ مِنْ أَمَامِكَ، وَمِنْ خَلْفِكَ، وَمِنْ فَوْقِكَ، وَمِنْ تَحْتِكَ، وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيْنَا**»، فَقَامَ حُذَيْفَةُ ﷺ مُسْتَبْشِرًا بِدُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَأَنَّهُ احْتُمِلَ احْتِمَالًا، فَمَا شَقَّ مِنْ جُوعٍ، وَلَا خَوْفٍ، وَلَا دَرَى شَيْئًا مِمَّا أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ البَلَاءِ، فَانْطَلَقَ حَتَّى أَجَازَ الخَنْدَقَ مِنْ أَعْلَاهُ، فَجَلَسَ بَيْنَ ظَهْرَيِ الْمُشْرِكِينَ، فَوَجَدَ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَمَرَهُمْ أَنْ يُوقِدُوا النِّيرَانَ وَقَالَ: «**لِيَعْلَمَ كُلُّ امْرِئٍ مَنْ جَلِيسُهُ**، فَقَبَضَ حُذَيْفَةُ عَلَى يَدِ رَجُلٍ عَنْ يَمِينِهِ فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانٌ، وَقَبَضَ يَدَ رَجُلٍ عَنْ يَسَارِهِ قَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانٌ، وَبَدَرَهُمْ بِالْمَسْأَلَةِ خَشْيَةَ أَنْ يَفْطِنُوا لَهُ.

ثُمَّ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَذِنَ بِالرَّحِيلِ، فَارْتَحَلُوا وَحَمَلُوا الأَثْقَالَ فَانْطَلَقَتْ، وَوَقَفَتِ الخَيْلُ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ الصِّيَاحَ وَالإِرْصَاءَ مِنْ قِبَلِ قُرَيْشٍ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِمْ، فَأَتَاهُمُ الخَبَرُ بِرَحِيلِهِمْ، فَانْقَشَعُوا (ذهبوا وافترقوا) لَا يَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ.

وَقَدْ كَانَ اللهُ ﷻ قَبْلَ رَحِيلِهِمْ قَدْ بَعَثَ عَلَيْهِمْ بِالرِّيحِ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، حَتَّى مَا خَلَقَ اللهُ لَهُمْ بَيْتًا يَقُومُ، وَلَا رُمْحًا، حَتَّى مَا كَانَ فِي الأَرْضِ مَنْزِلٌ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ وَلَا أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ ذَلِكَ، فَأَقْشَعُوا وَالرِّيحُ أَشَدُّ مَا كَانَتْ، مَعَهَا جُنُودُ اللهِ لَا تُرَى كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ.

وَرَجَعَ حُذَيْفَةُ ﷺ بِبَيَانِ خَبَرِ القَوْمِ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، وَكَذَلِكَ فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ خَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَأَصْحَابُهُ فَقَتَلُوا كَعْبَ بْنَ الأَشْرَفِ، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا يُصَلِّي حَتَّى فَرَغُوا مِنْهُ وَسَمِعَ التَّكْبِيرَ، وَلَمَّا دَنَا حُذَيْفَةُ ﷺ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَدْنُوَ حَتَّى أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِرِجْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَثَنَا ثَوْبَهُ حَتَّى دَفِئَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ القَوْمِ، فَأَخْبَرَهُ الخَبَرَ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ فَتَحَ اللهُ ﷻ لَهُمْ، وَأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ، فَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ شَدِيدًا بَلَاؤُهُمْ مِمَّا لَقُوا مِنْ مُحَاصَرَةِ العَدُوِّ، وَكَانُوا حَاصَرُوهُمْ فِي شِتَاءٍ شَدِيدٍ، فَرَجَعُوا مُجْهُودِينَ فَوَضَعُوا السِّلَاحَ.

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الحَافِظُ ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ البَغْدَادِيُّ ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عُلاَثَةَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ خَالِدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الأَسْوَدِ ، عَنْ عُرْوَةَ، فَذَكَرَ هَذِهِ القِصَّةَ بِمَعْنَى مَا ذَكَرَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ.

وَلَمَّا ذَكَرَا فِي مَغَازِيهِمَا مِنْ هَذِهِ القِصَّةِ شَوَاهِدُ فِي الأَحَادِيثِ المَوْصُولَةِ، وَفِي مَغَازِي مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ ابْنِ يَسَارٍ، وَنَحْنُ نَذْكُرُهَا بِعَوْنِ الله تَعَالَى مُفَرَّقَةً فِي أَبْوَابٍ.

[دلائل النبوة للبيهقي٣/ ٣٩٨-٤٠٧، المغازي لموسى بن عقبة، جمع د/ باقشيش ٢١٤-٢٢٢].

المبحث العاشر

ما قيل من الشعر في غزوة الأحزاب [١]

شِعْرُ ضِرَارٍ: قَالَ ضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ بْنِ مِرْدَاسٍ، أَخُو بَنِي مُحَارِبِ بْنِ فِهْرٍ، فِي يَوْمِ الخَنْدَقِ:

وَمُشْفِقَةٍ تَظُنُّ بِنَا الظُّنُونَا ... وَقَدْ قُدْنَا عَرَنْدَسَةً طَحُونَا [٢]

كَأَنَّ زُهَاءَهَا أُحُدٌ إِذَا مَا ... بَدَتْ أَرْكَانُهُ لِلنَّاظِرِينَا [٣]

تَرَى الأَبْدَانَ فِيهَا مُسْبَغَاتٍ ... عَلَى الأَبْطَالِ وَاليَلَبَ الحَصِينَا [٤]

وَجُرْدًا كَالقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ ... نَؤُمُّ بِهَا الغُوَاةَ الخَاطِئِينَا [٥]

كَأَنَّهُمْ إِذَا صَالُوا وَصُلْنَا ... بِبَابِ الخَنْدَقَيْنِ مُصَافِحُونَا [٦]

أَنَاسٌ لَا نَرَى فِيهِمْ رَشِيدًا ... وَقَدْ قَالُوا أَلَسْنَا رَاشِدِينَا

فَأَحْجَرْنَاهُمُ شَهْرًا كَرِيتًا ... وَكُنَّا فَوْقَهُمْ كَالقَاهِرِينَا [٧]

نُرَاوِحُهُمْ وَنَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ ... عَلَيْهِمْ فِي السِّلَاحِ مُدَجَّجِينَا [٨]

بِأَيْدِينَا صَوَارِمُ مُرْهَفَاتٍ ... نَقُدُّ بِهَا المَفَارِقَ وَالشُّؤُونَا [٩]

كَأَنَّ وَمِيضَهُنَّ مُعَرَّيَاتٍ ... إِذَا لَاحَتْ بِأَيْدِي مُصَلَّتِينَا [١٠]

ووَمِيضُ عَقِيقَةٍ لَمَعَتْ بِلَيْلٍ ... تَرَى فِيهَا العَقَائِقَ مُسْتَبِينَا [١١]

فَلَوْلَا خَنْدَقٌ كَانُوا لَدَيْهِ ... لَدَمَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَا

وَلَكِنْ حَالَ دُونَهُمْ وَكَانُوا ... بِهِ مِنْ خَوْفِنَا مُتَعَوِّذِينَا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٤-٢٦٩.

(٢) **العرندسة**: الشديدة القوة، يريد: كتيبة. **الطحون**: التي تطحن كل ما مرت به.

(٣) **زهاؤها**: تقدير عددها.

(٤) **الأبدان** (هنا): الدروع. **مسبغات**: كاملة. **اليلب**: الترس أو الدرق.

(٥) **الجرد**: الخيل العتاق. **القداح**: سهام. **المسومات**: المرسلة، ويقال: هي الغالية الأسوام. **نؤم**: نقصد.

(٦) **المصافحة**: أخذ الرجل بيد الرجل عند السلام.

(٧) **أحجرناهم**: حصرناهم. **شهرًا كريتًا**: تامًّا كاملًا.

(٨) **المدجج** (بفتح الجيم وكسرها): الكامل السلاح.

(٩) **الصوارم**: السيوف. **مرهفات**: قاطعة. **نقد**: نقطع. **المفارق**: مجمع مفرق وهو حيث يفرق الشعر في أعلى الجبهة. ويريد «بالشئون» مجمع العظام أعلى الرأس.

(١٠) **الوميض**: اللمعان. **المصلت**: الذي جرد سيفه من غمده.

(١١) **العقيقة**: السحابة التي تنشق عن البرق.

فَإِنْ نَرْحَلِ فَإِنَّا قَدْ تَرَكْنَا لَدَى أَبْيَاتِكُمْ سَعْدًا رَهِينَا
إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ سَمِعْتَ نَوْحَى عَلَى سَعْدٍ يُرَجِّعْنَ الـحَنِينَا (١)
وَسَوْفَ نَزُورُكُمْ عَمَّا قَرِيبٍ كَمَا زُرْنَاكُمْ مُتَوَازِرِينَا (٢)
بِجَمْعٍ مِنْ كِنَانَةَ غَيْرِ عُزْلٍ كَأُسْدِ الغَابِ قَدْ حَمَتِ العَرِينَا (٣)

كَعْبٌ ﷺ يَرُدُّ عَلَى ضِرَارٍ: فَأَجَابَهُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ، أَخُو بَنِي سَلِمَةَ، فَقَالَ:

وَسَائِلَةٍ تُسَائِلُ مَا لَقِينَا وَلَوْ شَهِدَتْ رَأَتْنَا صَابِرِينَا
صَبَرْنَا لَا نَرَى للهِ عِدْلًا عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَا
وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ بِهِ نَعْلُو البَرِيَّةَ أَجْمَعِينَا
نُقَاتِلُ مَعْشَرًا ظَلَمُوا وَعَقُّوا وَكَانُوا بِالعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَا (٤)
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا بِضَرْبٍ يُعْجِلُ المُتَسَرِّعِينَا
تَرَانَا فِي فَضَافِضَ سَابِغَاتٍ كَغُدْرَانِ المَلَا مُتَسَرْبِلِينَا (٥)
وَفِي أَيْمَانِنَا بِيضٌ خِفَافٌ بِهَا نَشْفِي مِرَاحَ الشَّاغِبِينَا (٦)
بِبَابِ الخَنْدَقَيْنِ كَأَنَّ أُسْدًا شَوَابِكُهُنَّ يَحْمِينَ العَرِينَا (٧)
فَوَارِسُنَا إِذَا بَكَرُوا وَرَاحُوا عَلَى الأَعْدَاءِ شُوسًا مُعْلَمِينَا (٨)
لِنَنْصُرَ أَحْمَدًا وَاللهَ حَتَّى نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا
وَيَعْلَمُ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا وَأَحْزَابٌ أَتَوْا مُتَحَزِّبِينَا
بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَأَنَّ اللهَ مَوْلَى المُؤْمِنِينَا
فَإِمَّا تَقْتُلُوا سَعْدًا سِفَاهًا فَإِنَّ اللهَ خَيْرُ القَادِرِينَا

---

(١) **النوحي**: جماعة النساء اللاتي ينحن.

(٢) **متوازرين**: متعاونين.

(٣) **العزل**: الذين لا سلاح معهم، الواحد، أعزل. **الغاب**: جمع غابة، وهي الأجمة. **العرين**: موضع الأسد.

(٤) **المرصد**: المعد للأمر عدته.

(٥) **الفضافض**: الدروع المتسعة. **سابغات**: كاملة. **الملا** (مقصور): المتسع من الأرض. **متسربلون**: لابسون الدروع.

(٦) **المراح**: النشاط.

(٧) **الشوابك**: التي يتشبث بها فلا يفلت.

(٨) **الشوس**: جمع أشوس، وهو الذي ينظر نظر المتكبر بمؤخر عينه. **المعلم** (بفتح اللام وكسرها): الذي أعلم نفسه بعلامة الحرب ليشتهر بها.

سَيُدْخِلُهُ جِنَانًا طَيِّبَاتٍ تَكُونُ مُقَامَةً لِلصَّالِحِينَا
كَمَا قَدْ رَدَّكُمْ فَلًّا شَرِيدًا بِغَيْظِكُمْ خَزَايَا خَائِبِينَا (١)
خَزَايَا لَمْ تَنَالُوا ثَمَّ خَيْرًا وَكِدْتُمْ أَنْ تَكُونُوا دَامِرِينَا (٢)
بِرِيحٍ عَاصِفٍ هَبَّتْ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ تَحْتَهَا مُتَكَمِّهِينَا (٣)

شِعْرُ ابْنِ الزِّبَعْرَى: وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى السَّهْمِيُّ فِي يَوْمِ الخَنْدَقِ:

حَتَّى الدِّيَارِ مَحَا مَعَارِفَ رَسْمِهَا طُولُ البِلَى وَتَرَاوُحُ الأَحْقَابِ (٤)
فَكَأَنَّمَا كَتَبَ اليَهُودُ رُسُومَهَا إِلَّا الكَنِيفَ وَمَعْقِدَ الأَطْنَابِ (٥)
قَفْرًا كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ تَلْهُو بِهَا فِي نِعْمَةٍ بِأَوَانِسٍ أَتْرَابِ (٦)
فَاتْرُكْ تَذَكُّرَ مَا مَضَى مِنْ عِيشَةٍ وَمَحَلَّةٍ خَلْقِ المَقَامِ يَبَابِ (٧)
وَاذْكُرْ بَلَاءَ مَعَاشِرَ وَاشْكُرْهُمُ سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ مِنَ الأَنْصَابِ (٨)
أَنْصَابِ مَكَّةَ عَامِدِينَ لِيَثْرِبٍ فِي ذِي غَيَاطِلَ جَحْفَلٍ جَبْجَابِ (٩)
يَدَعُ الحُزُونَ مَنَاهِجًا مَعْلُومَةً فِي كُلِّ نَشْرٍ ظَاهِرٍ وَشِعَابِ (١٠)
فِيهَا الجِيَادُ شَوَازِبٌ مَجْنُوبَةٌ قُبُّ البُطُونِ لَوَاحِقُ الأَقْرَابِ (١١)
مِنْ كُلِّ سَلْهَبَةٍ وَأَجْرَدَ سَلْهَبٍ كَالسَّيِّدِ بَادَرَ غَفْلَةَ الرُّقَّابِ (١٢)

---

(١) **الفل**: القوم المنهزمون. **الشريد**: الطريد.
(٢) **دامرين**: هالكين.
(٣) **العاصف**: الريح الشديدة. **المتكمه**: الأعمى الذي لا يبصر.
(٤) **الأحقاب**: الدهور، الواحد: حقب.
(٥) **الكنيف**: الحظيرة والزرب الذي يصنع للإبل، وسمي كنيفًا، لأنه يكنفها، أي يسترها. **الأطناب**: الحبال التي تشد بها الأخبية وبيوت العرب. ويريد «**بمعقدها**»: الأوتاد التي تربط بها.
(٦) **الأتراب**: جمع ترب وهن المتساويات في السن.
(٧) **اليباب**: القفر.
(٨) قال أبو ذر: «**الأنصاب** هنا: الحجارة التي يعلم بها الحرم. والأنصاب (أيضًا): حجارة كانوا يذبحون لها ويعظمونها».
(٩) يريد «**بذي غياطل**»: جيشًا كثير الأصوات. **الغياطل**: جمع غيطة، وهي الصوت هنا. **جحفل**: جيش. **وجبجاب**: كثير.
(١٠) **الحزون**: جمع حزن، وهو ما ارتفع من الأرض. **المناهج**: جمع منهج، وهو الطريق البين. **النشر**: المرتفع من الأرض، ويقال فيه نشز أيضًا. (وهي رواية). **الشعاب**: جمع شعب، وهو المنخفض بين جبلين.
(١١) **الشوازب**: الضامرة. **المجنوبة**: المقودة. **قب**: ضامرة. **لواحق**: ضامرة: (أيضًا). **الأقراب**: جمع قرب، وهو الخاصرة وما يليها.
(١٢) **السلهبة**: الطويلة. **السيد**: الذئب.

جَيْشٌ عُيَيْنَةُ قَاصِدٌ بِلِوَائِهِ فِيهِ، وَصَخْرٌ قَائِدُ الأَحْزَابِ
قَرْمَانُ كَالبَدْرَيْنِ أَصْبَحَ فِيهِمَا غَيْثَ الفَقِيرِ وَمَعْقِلَ الهُرَّابِ (١)
حَتَّى إِذَا وَرَدُوا المَدِينَةَ وَارْتَدَوْا لِلمَوْتِ كُلَّ مُجَرَّبٍ قَضَّابِ (٢)
شَهْرًا وَعَشْرًا قَاهِرِينَ مُحَمَّدًا وَصِحَابُهُ فِي الحَرْبِ خَيْرُ صِحَابِ
نَادَوْا بِرِحْلَتِهِمْ صَبِيحَةَ قُلْتُمُ كِدْنَا نَكُونُ بِهَا مَعَ الخُيَّابِ
لَوْلَا الخَنَادِقُ غَادَرُوا مِنْ جَمْعِهِمْ قَتْلَى لِطَيْرٍ سُغَّبٍ وَذِئَابِ (٣)

حَسَّانُ ﷺ يَرُدُّ عَلَى ابْنِ الزِّبَعْرَى: فَأَجَابَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيُّ ﷺ، فَقَالَ:

هَلْ رَسْمُ دَارِسَةِ المَقَامِ يَبَابِ مُتَكَلِّمٍ لِمُحَاوِرٍ بِجَوَابِ (٤)
قَفْرٌ عَفَا رِهَمُ السَّحَابِ رُسُومَهُ وَهُبُوبُ كُلُّ مُطِلَّةٍ مِرْبَابِ (٥)
وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِهَا الحُلُولَ يَزِينُهُمْ بِيضُ الوُجُوهِ ثَوَاقِبُ الأَحْسَابِ (٦)
فَدَعِ الدِّيَارَ وَذِكْرَ كُلِّ خَرِيدَةٍ بَيْضَاءَ آنِسَةِ الحَدِيثِ كَعَابِ (٧)
وَاشْكُ الهُمُومَ إِلَى الإِلَهِ وَمَا تَرَى مِنْ مَعْشَرٍ ظَلَمُوا الرَّسُولَ غِضَابِ
سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَيْهِ وَأَلَّبُوا أَهْلَ القُرَى وَبَوَادِيَ الأَعْرَابِ (٨)
جَيْشٌ عُيَيْنَةُ وَابْنُ حَرْبٍ فِيهِمْ مُتَخَمِّطُونَ بِحَلْبَةِ الأَحْزَابِ (٩)
حَتَّى إِذَا وَرَدُوا المَدِينَةَ وَارْتَجَوْا قَتْلَى الرَّسُولِ وَمَغْنَمَ الأَسْلَابِ
وَغَدَوْا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ رُدُّوا بِغَيْظِهِمْ عَلَى الأَعْقَابِ (١٠)
بِهُبُوبِ مُعْصِفَةٍ تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ وَجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الأَرْبَابِ (١١)

---

(١) قرمان: فحلان سيدان. معقل الهراب: ملجؤهم.

(٢) ارتدوا: تقلدوا. كل مجرب: أي كل سيف قد جرب. القضاب: القاطع.

(٣) سغب: جائعة.

(٤) اليباب: القفر. المُحاور: الذي يراجعك ويتكلم معك.

(٥) عفا: تغير ودرس. رهم: جمع رهمة، وهي المطر. مطلة: مشرقة. مرباب: دائمة ثابتة.

(٦) الحلول: البيوت المجتمعة. ثواقب: مشرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق:٣].

(٧) الخريدة: المرأة الناعمة. الكعاب: التي نهد ثديها في أول ما ينهد.

(٨) ألَّبوا: جمعوا.

(٩) متخمطون: مختلطون. قال أبو ذر: «ويقال: المتخمط: الشديد الغضب المتكبر». الحلبة: جماعة الخيل التي تعد للسباق.

(١٠) الأيد: القوة.

(١١) المعصفة: الريح الشديدة.

فَكَفَى الإِلَهُ الْمُؤْمِنِينَ قِتَالَـهُمْ وَأَثَابَهُمْ فِي الأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ
مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا فَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ تَنْزِيلُ نَصْرِ مَلِيكِنَا الوَهَّابِ
وَأَقَرَّ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وَصِحَابِهِ وَأَذَلَّ كُلَّ مُكَذِّبٍ مُرْتَابِ
عَاتِي الْفُؤَادِ مُوَقَّعٍ ذِي رِيبَةٍ فِي الكُفْرِ لَيْسَ بِطَاهِرِ الأَثْوَابِ (١)
عَلِقَ الشَّقَاءُ بِقَلْبِهِ فَفُؤَادُهُ فِي الكُفْرِ آخِرُ هَذِهِ الأَحْقَابِ

كَعْبٌ ﷺ **يَرُدُّ عَلَى ابْنِ الزِّبَعْرَى**: وَأَجَابَهُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ أَيْضًا، فَقَالَ:

أَبْقَى لَنَا حَدَثُ الْحُرُوبِ بَقِيَّةً مِنْ خَيْرِ نِحْلَةِ رَبِّنَا الوَهَّابِ (٢)
بَيْضَاءَ مُشْرِفَةَ الذُّرَى وَمَعَاطِنًا حُمَّ الـجُذُوعِ غَزِيرَةَ الأَحْلَابِ (٣)
كَاللُّوبِ يُبْذَلُ جَمُّهَا وَحَفِيلُهَا لِلجَارِ وَابْنِ العَمِّ وَالـمُنْتَابِ (٤)
وَنَزَائِعًا مِثْلَ السَّرَاحِ نَمَى بِهَا عَلَفُ الشَّعِيرِ وَجِزَّةُ الـمِقْضَابِ (٥)
عَرِيَ الشَّوَى مِنْهَا وَأَرْدَفَ نَحْضَهَا جُرْدُ الـمُتُونِ وَسَائِرُ الآرَابِ (٦)
قُودًا تَرَاحُ إِلَى الصِّيَاحِ إِذْ غَدَتْ فِعْلَ الضِّرَاءِ تَرَاحُ لِلكُلَّابِ (٧)
وَتَحُوطُ سَائِمَةَ الدِّيَارِ وَتَارَةً تُرْدِي العِدَا وَتَؤُوبُ بِالأَسْلَابِ (٨)
حُوشُ الوُحُوشِ مَطَارَةٌ عِنْدَ الوَغَى عُبْسُ اللِّقَاءِ مُبِينَةُ الإِنْجَابِ (٩)
عُلِفَتْ عَلَى دَعَةٍ فَصَارَتْ بُدَّنًا دُخْسَ البَضِيعِ خَفِيفَةَ الأَقْصَابِ

---

(١) **عاتي الفؤاد**: قاسيه. **موقع**: ذو هيب، وأصلة من التوقيع في ظهر الدابة، وهو انسلاخ يكون فيه.

(٢) **النِّحلة**: العطاء.

(٣) **الذرى**: العالي، ويعني بها الآطام. ويعني «**بالمعاطن**»: منابت النخل عند الماء، تشبيهًا لها بمعاطن الإبل، وهي مباركها حول الماء. **حم**: سود. ويريد «**بالجذوع**» أعناقها. **الأحلاب**: ما يحلب منها.

(٤) **اللوب**: جمع لوبة، وهي الحرة، وهي أرض ذات حجارة سود. **جمها**: ما اجتمع من لبنها. **والمنتاب**: القاصد الزائر.

(٥) **النزائع**: الخيل العربية التي حُملت من أرض أخرى. **السراح**: الذئاب، الواحد سرحان. **جزة المقضاب**: أي ما يجز لها من النبات فتطعمه. **المقضاب**: من القضب، وهو القطع.

(٦) **الشوى**: القوائم. **النحض**: اللحم. **جرد المتون**: ملحمة الظهور. **الآراب**: جمع إرب، وهو كل عضو مستقل بنفسه.

(٧) **قود**: طوال، الواحد: أقود وقوداء. **تراح**: تنشط. **الضراء**: الكلاب الضارية الصيد. **الكلاب**: الصائد صاحب الكلاب، الكلاب، الواحد: كالب.

(٨) **السائمة**: الماشية المرسلة في المرعى إبلًا كانت أو غيرها. **تردي**: تهلك. **تؤوب**: ترجع.

(٩) **الحوش**: النافرة. **المطارة**: المستخفة. **الوغى**: الحرب. **الإنجاب**: الكرم والعتق.

(١٠) **البدن**: السمان. **دخس**: كثيرة اللحم. **البضيع**: اللحم. **الأقصاب**: الأمعاء، الواحد قصب.

يَغْدُونَ بِالزَّغْفِ الْمُضَاعِفِ شَكَّةٌ وَبِمُتْرَصَاتٍ فِي الثِّقَافِ صِيَابِ (١)
وَصَوَارِمٍ نَزَعَ الصَّيَاقِلُ غَلْبَهَا وَبِكُلِّ أَرْوَعَ مَاجِدِ الأَنْسَابِ (٢)
يَصِلُ الْيَمِينَ بِمَارِنٍ مُتَقَارِبٍ وُكِلَتْ وَقِيعَتُهُ إِلَى خَبَّابِ (٣)
وَأَغَرَّ أَزْرَقَ فِي القَنَاةِ كَأَنَّهُ فِي طُخْيَةِ الظَّلْمَاءِ ضَوْءَ شِهَابِ (٤)
وَكَتِيبَةٍ يَنْفِي القِرَانُ قَتِيرَهَا وَتَرُدُّ حَدَّ قَوَاحِذِ النُّشَّابِ (٥)
جَأْوَى مُلَمْلَمَةٍ كَأَنَّ رِمَاحَهَا فِي كُلِّ مُجْمَعَةٍ ضَرِيمَةُ غَابِ (٦)
يَأْوِي إِلَى ظِلِّ اللِّوَاءِ كَأَنَّهُ فِي صَعْدَةِ الخَطِّيِّ فَيْءُ عُقَابِ (٧)
أَعْيَتْ أَبَا كَرِبٍ وَأَعْيَتْ تُبَّعًا وَأَبَتْ بَسَالَتُهَا عَلَى الأَعْرَابِ (٨)
وَمَوَاعِظٌ مِنْ رَبِّنَا نُهْدَى بِهَا بِلِسَانِ أَزْهَرَ طَيِّبِ الأَثْوَابِ (٩)
عُرِضَتْ عَلَيْنَا فَاشْتَهَيْنَا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عُرِضَتْ عَلَى الأَحْزَابِ
حِكَمًا يَرَاهَا الْمُجْرِمُونَ بِزَعْمِهِمْ حَرَجًا وَيَفْهَمُهَا ذَوُو الأَلْبَابِ (١٠)
جَاءَتْ سَخِينَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ (١١)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: حَدَّثَنِي مَنْ أَثِقُ بِهِ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: لَـمَّا قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ:

جَاءَتْ سَخِينَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ

---

(١) **الزغف**: الدروع اللينة. **المترصات**: الشديدات. **صياب**: صائبة.

(٢) **صوارم**: سيوف قاطعة. **غلبها**: خشونها وما عليها من الصدأ. **الأروع**: الذي يروع بكماله وجماله. **الماجد**: الشريف.

(٣) **المارن**: الرمح اللين. **وقيعته**: صنعته وتطرقه وتحديده. **خباب**: اسم قين صانع للسيوف.

(٤) يعني **بالأغر الأزرق**: سنانًا. **الطخية**: شدة السواد.

(٥) **القران**: تقارن النبل واجتماعه. **القتير**: مسامير حلق الدرع، ويريد الدروع. **قواحذ النشاب**: النبال التي تصيب الأفخاذ.

(٦) **جيوي** (الأصل فيه المد وقصر للضرورة): يخالط سوادها حمرة. **ململمة**: مجتمعة. **الضريمة**: اللهب المتوقد.

(٧) **الصعدة**: القناة المستوية. **الخطي**: الرماح. **الفيء**: الظل.

(٨) **أبو كرب وتبع**: ملكان من ملوك اليمن. **بسالتها**: شدتها.

(٩) **الأزهر**: الأبيض.

(١٠) **حرجًا**: حرامًا. **الألباب**: العقول.

(١١) **سخينة**: لقب قريش في الجاهلية، وذكروا أن قصيًّا كان إذا ذبح ذبيحة أو نحر نحيرة بمكة أتى بعجزها فصنع منه خزيرة ـ وهو لحم يطبخ ببر، فيطعمه الناس، فسميت قريش بها سخينة، وقيل: إن العرب كانوا إذا أسنتوا أكلوا العلهز، وهو الوبر والدم، وتأكل قريش الخزيرة، فنفست عليهم ذلك، فلقبوهم سخينة. (الروض).

قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ شَكَرَكَ اللهُ يَا كَعْبُ عَلَى قَوْلِكَ هَذَا».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ فِي يَوْمِ الخَنْدَقِ:

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعْمِعُ بَعْضُهُ ... بَعْضًا كَمَعْمَعَةِ الأَبَاءِ المُحْرَقِ (١)

فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً تُسَنُّ سُيُوفُهَا ... بَيْنَ المَذَادِ وَبَيْنَ جَزْعِ الخَنْدَقِ (٢)

دَرِبُوا بِضَرْبِ المُعْلِمِينَ وَأَسْلَمُوا ... مُهُجَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ المَشْرِقِ (٣)

فِي عُصْبَةٍ نَصَرَ الإِلَهُ نَبِيَّهُ ... بِهِمْ وَكَانَ بِعَبْدِهِ ذَا مَرْفِقِ (٤)

فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخُطُّ فُضُولُهَا ... كَالنَّهْيِ هَبَّتْ رِيحُهُ المُتَرَقْرِقِ (٥)

بَيْضَاءَ مُحْكَمَةٍ كَأَنَّ قَتِيرَهَا ... حَدَقُ الجَنَادِبِ ذَاتِ شَكٍّ مُوثَقِ (٦)

جَدْلَاءَ يَحْفِزُهَا نِجَادُ مُهَنَّدٍ ... صَافِي الحَدِيدَةِ صَارِمٍ ذِي رَوْنَقِ (٧)

تِلْكُمْ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا ... يَوْمَ الهِيَاجِ وَكُلَّ سَاعَةِ مَصْدَقِ

نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا ... قُدُمًا وَنُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

فَنَرَى الجَمَاجِمَ ضَاحِيًا هَامَاتُهَا ... بَلْهَ الأَكُفَّ كَأَنَّهَا لَمْ تُخْلَقِ (٨)

نَلْقَى العَدُوَّ بِفَخْمَةٍ مَلمُومَةٍ ... تَنْفِي الجُمُوعَ كَقَصْدِ رَأْسِ المَشْرِقِ (٩)

وَنُعِدُّ لِلأَعْدَاءِ كُلَّ مُقَلَّصٍ ... وَرْدٍ وَمَحْجُولِ القَوَائِمِ أَبْلَقِ (١٠)

---

(١) **المعمعة**: صوت التهاب النار وصريفها. **الأباء**: القصب، ويقال: الأغصان الملتفة.

(٢) **المأسدة**: موضع الأسود، ويعني بها هنا موضع الحرب. **المذاد**: موضع بالمدينة حيث حفر الخندق، وقيل: هو بين سلع وخندق المدينة. **الجزع**: الجانب.

(٣) **المعلمون**: الذين يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة يعرفون بها. **المهجات**: الأنفس، واحده: مهجة. **لرب المشرق**: يريد لرب المشرق والمغرب، فحذفه للعلم به.

(٤) **العصبة**: الجماعة.

(٥) **السابغة**: الدروع الكاملة. **تخط فضولها**: ينجر على الأرض ما فضل منها. **النهي**: الغدير، وكل موضع يجتمع فيه الماء، وجمعها أنهاء ونهي. **المترقرق**: الذي تصفقه الريح، فيجيء ويذهب.

(٦) **القتير**: مسامير الدروع. **الجنادب**: ذكور الجراد. **الشك**: إحكام السرد.

(٧) **الجدلاء**: الدرع المحكمة النسج. **يحفزها**: يرفعها ويشمرها. **النجاد**: حمائل السيف. **صارم**: قاطع. **الرونق**: اللمعان.

(٨) **الجماجم**: الرؤوس. **ضاحيًا**: بارزًا للشمس. **بله**: اسم فعل بمعنى اترك ودع، ويصح نصب «الأكف» به، أو جره على أنه أنه مصدر مضاف له.

(٩) **الفخمة**: الكتيبة. **الملمومة**: المجتمعة. **المشرق**: جبل بين الصريف والعصيم من أرض ضبة (معجم البلدان).

(١٠) **المقلص**: الفرس الخفيف.

تُرْدِي بِفُرْسَانٍ كَأَنَّ كُمَاتَهُمْ عِنْدَ الهِيَاجِ أُسُودُ طَلٍّ مُلْثِقِ (١)
صُدُقٌ يُعَاطُونَ الكُمَاةَ حُتُوفَهُمْ تَحْتَ العَمَايَةِ بِالوَشِيجِ المُزْهِقِ (٢)
أَمَرَ الإِلَهُ بِرَبْطِهَا لِعَدُوِّهِ فِي الحَرْبِ، إِنَّ اللهَ خَيْرُ مُوَفِّقِ
لِتَكُونَ غَيْظًا وَحُيَّطًا لِلدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ خُيُولُ النُّزَّقِ (٣)
وَيُعِينُنَا اللهُ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ مِنْهُ وَصِدْقِ الصَّبْرِ سَاعَةَ نَلْتَقِي
وَنُطِيعُ أَمْرَ نَبِيِّنَا وَنُجِيبُهُ وَإِذَا دَعَا لِكَرِيهَةٍ لَمْ نُسْبَقِ
وَمَتَى يُنَادِ إِلَى الشَّدَائِدِ نَأْتِهَا وَمَتَى نَرَ الحَوْمَاتِ فِيهَا نُعْنِقِ (٤)
مَنْ يَتَّبِعْ قَوْلَ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ فِينَا مُطَاعُ الأَمْرِ حَقٌّ مُصَدَّقِ
فَبِذَاكَ يَنْصُرُنَا وَيُظْهِرُ عِزَّنَا وَيُصِيبُنَا مِنْ نَيْلِ ذَاكَ بِمِرْفَقِ
إِنَّ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ مُحَمَّدًا كَفَرُوا وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ المُتَّقِي

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَنْشَدَنِي بَيْتَهُ: تِلْكُمْ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا
وَبَيْتُهُ: مَنْ يَتَّبِعْ قَوْلَ النَّبِيِّ، أَبُو زَيْدٍ.
وَأَنْشَدَنِي: تَنْفِي الـجُمُوعَ... كَرَأْسِ قُدْسِ المَشْرِقِ (٥).
قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ فِي يَوْمِ الخَنْدَقِ:

لَقَدْ عَلِمَ الأَحْزَابُ حِينَ تَأَلَّبُوا عَلَيْنَا وَرَامُوا دِينَنَا مَا نُوَادِعُ (٦)
أَضَامِيمَ مِنْ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ أَصْفَقَتْ وَخِنْدِفَ لَمْ يَدْرُوا بِمَا هُوَ وَاقِعُ (٧)
يَذُودُونَنَا عَنْ دِينِنَا وَنَذُودُهُمْ عَنْ الكُفْرِ وَالرَّحْمَنُ رَاءٍ وَسَامِعُ (٨)
إِذَا غَايَظُونَا فِي مَقَامٍ أَعَانَنَا عَلَى غَيْظِهِمْ نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَاسِعُ

---

(١) تردي: تسرع. الكماة: الشجعان. الطل: الضعيف من المطر. الملثق: ما يكون من الطل من زلق وطين، والأسد أجوع ما تكون وأجرأ في ذلك الحين.

(٢) يريد بالعماية: سحابة الغبار وظلمته. الوشيج: الرماح. المزهق: المذهب النفوس، وقد وردت هذه الكلمة بالراء المهملة.

(٣) حيط: جمع حائط، وهو اسم الفاعل من حاط يحوط. دلفت: قربت. النزق: الغاصبون السيئو الخلق، الواحد: نازق.

(٤) الحومات: مواطن القتال، الواحدة: حومة. نعنق: نسرع.

(٥) أشار السهيلي إلى أن هذه الرواية أولى وقال: لأن قدسًا جبل معروف من ناحية المشرق.

(٦) تألبوا: تجمعوا. نوادع: نصالح ونهادن.

(٧) أضاميم: جماعات انضم بعضها إلى بعض، ويروى: أصاميم، والأصاميم: الخالصون في أنسابهم. أصفقت: اجتمعت وتوافقت على الأمر.

(٨) يذودونا: يدفعونا ويمنعوننا.

وَذَلِكَ حِفْظُ اللهِ فِينَا وَفَضْلُهُ عَلَيْنَا وَمَنْ لَمْ يَحْفَظِ اللهُ ضَائِعُ
هَدَانَا لِدِينِ الحَقِّ وَاخْتَارَهُ لَنَا وَللهِ فَوْقَ الصَّانِعِينَ صَنَائِعُ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَهَذِهِ الأَبْيَاتُ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ فِي يَوْمِ الخَنْدَقِ:

أَلَا أَبْلِغْ قُرَيْشًا أَنَّ سَلعًا وَمَا بَيْنَ العُرَيْضِ إِلَى الصَّمَادِ (١)
نَوَاضِحُ فِي الحُرُوبِ مُدَرَّبَاتٌ وَخُوصٌ ثُقِّبَتْ مِنْ عَهْدِ عَادِ (٢)
رَوَاكِدَ يَزْخَرُ المُرَّارُ فِيهَا فَلَيْسَتْ بِالجِمَامِ وَلَا الثُّمَادِ (٣)
كَأَنَّ الغَابَ وَالبَرْدِيَّ فِيهَا أَجَشُّ إِذَا تَبَقَّعَ لِلحَصَادِ (٤)
وَلَمْ نَجْعَلْ تِجَارَتَنَا اشْتِرَاءَ الحَمِيـ ـرِ لِأَرْضِ دَوْسٍ أَوْ مُرَادِ (٥)
بِلَادٌ لَمْ تَثُرْ إِلَّا لِكَيْمَا نُجَالِدَ إِنْ نَشَطْتُمْ لِلجِلَادِ (٦)
أَثَرْنَا سِكَّةَ الأَنْبَاطِ فِيهَا فَلَمْ تَرَ مِثْلَهَا جَلْهَاتِ وَادِ (٧)
قَصَرْنَا كُلَّ ذِي حُضْـرٍ وَطُولٍ عَلَى الغَايَاتِ مُقْتَدِرٍ جَوَادِ (٨)
أَجِيبُونَا إِلَى مَا نَجْتَدِيكُمْ مِنَ القَوْلِ المُبَيَّنِ وَالسَّدَادِ (٩)
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ لَكُمْ مِنَّا إِلَى شَطْرِ المِذَادِ (١٠)

---

(١) **سلع**: جبل بسوق المدينة. **العريض**: واد بالمدينة، قال أبو ذر: «ويحتمل أن يكون تصغير عرض، واحد الأعراض، وهي أودية خارج المدينة فيها النخل والشجر». **الصماد** (بالفتح والكسر): جبل، قال أبو ذر: «ويمكن أن يكون جمع صمد، وهو المرتفع من الأرض».

(٢) يعني **بالنواضح**: حدائق نخل تسقى بالنضح. **الخوص**: الآبار الضيقة. **ثقبت**: حفرت.

(٣) **رواكد**: ثابتة دائمة. **يزخر**: يعلو ويرتفع. **والمرار**: نهر، قال أبو ذر: ومن رواه «المداد» يعني الماء الذي يمدها. **الجمام**: جمع جمة، وهي البئر الكثيرة الماء. **الثماد**: الماء القليل.

(٤) **الغاب**: الشجر الملتف. **البردي**: نبات ينبت في البرك تصنع منه الحصر الغلاظ. **أجش**: عالي الصوت. **تبقع**: صارت فيه بقع صفر.

(٥) **دوس ومراد**: قبيلتان من اليمن.

(٦) **لم تثر**: لم تحرث.

(٧) **السكة**: النخل المصطف. **الأنباط**: قوم من العجم. أي حرثناها وغرسناها كما تفعل الأنباط في أمصارها لا تخاف عليها كيد كائد. **جلهات الوادي**: ما استقبلك منه إذا نظرت إليه من الجانب الآخر، الواحد: جلهة، وقال السهيلي: «جلهات الوادي: ما كشفت عنه السيول فأبرزته، وهو من الجله، وهو انحسار الشعر عن مقدم الرأس».

(٨) **الحضر**: الجري. ويريد «**بذي الحضر**» الخيل. ويروى: «**خطر**» أي قدر.

(٩) **نجتديكم**: نطلب.

(١٠) **الشطر**: الناحية والقصد. **المذاد**: موضع بالمدينة حيث حفر الخندق، وقيل: هو بين سلع وخندق المدينة.

نُصَبِّحُكُمْ بِكُلِّ أَخِي حُرُوبٍ وَكُلِّ مُطَهَّمٍ سَلِسِ القِيَادِ (١)
وَكُلِّ طِمِرَّةٍ خَفِقٍ حَشَاهَا تَدِفُّ دَفِيفَ صَفْرَاءِ الجَرَادِ (٢)
وَكُلِّ مُقَلَّصِ الآرَابِ نَهْدٍ تَمِيمِ الخَلْقِ مِنْ أُخْرٍ وَهَادِي (٣)
خُيُولٌ لَا تُضَاعُ إِذَا أُضِيعَتْ خُيُولُ النَّاسِ فِي السَّنَةِ الـجَمَادِ (٤)
يُنَازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ إِذَا نَادَى إِلَى الفَزَعِ الـمُنَادِي (٥)
إِذَا قَالَتْ لَنَا النُّذُرُ اسْتَعِدُّوا تَوَكَّلْنَا عَلَى رَبِّ العِبَادِ
وَقُلْنَا لَنْ يُفَرِّجَ مَا لَقِينَا سِوَى ضَرْبِ القَوَانِسِ وَالجِهَادِ (٦)
فَلَمْ تَرَ عُصْبَةٌ فِيمَنْ لَقِينَا مِنَ الأَقْوَامِ مِنْ قَارٍ وَبَادِي (٧)
أَشَدَّ بَسَالَةً مِنَّا إِذَا مَا أَرَدْنَاهُ وَأَلْيَنَ فِي الوِدَادِ (٨)
إِذَا مَا نَحْنُ أَشْرَجْنَا عَلَيْهَا جِيَادَ الجُدْلِ فِي الأُرَبِ الشِّدَادِ (٩)
قَذَفْنَا فِي السَّوَابِغِ كُلَّ صَقْرٍ كَرِيمٍ غَيْرِ مُعْتَلِثِ الزِّنَادِ (١٠)
أَشَمَّ كَأَنَّهُ أَسَدٌ عَبُوسٌ غَدَاةَ بَدَا بِبَطْنِ الجِزْعِ غَادِي (١١)
يُغَشِّي هَامَةُ البَطَلِ الْمُذَكَّى صَبِيَّ السَّيْفِ مُسْتَرْخِي النِّجَادِ (١٢)

---

(١) **المطهم**: الفرس التام الخلق.

(٢) يقال: **دف الطائر**: إذا حرك جناحيه ليطير. **صفراء الجراد**: الحيفانة منها، وهي التي ألقت سرأها، أي بيضها، وهي أخف أخف طيرانًا.

(٣) **المقلص**: المنشمر الشديد. **الآراب**: قطع اللحم، الواحدة، أربة (بضم الهمزة). **النهد**: الغليظ. **الهادي**: العنق، يريد أنه تام تام الخلق من مقدمه ومؤخره.

(٤) **السنة الجماد**: سنة القحط.

(٥) **مصغيات**: مستمعات.

(٦) **القوانس**: أعالي بيض الحديد.

(٧) **القاري**: من كان من أهل القرى. **البادي**: من كان من أهل البادية.

(٨) **البسالة**: الشدة والشجاعة.

(٩) **أشرجنا**: ربطنا. **الجدل**: جمع جدلاء، وهي الدرع المحكمة النسج. **الأرب**: جمع أربة، وهي العقدة الشديدة. ويروى: **الأزب**. بالزاء، وهو الشديد الضيق.

(١٠) **السوابغ**: الدروع الكاملة. **اعتلث الرجل زندًا**: أخذه من شجر لا يدري أيوري أم لا، يصفه بحسن الاستعداد للحرب.

(١١) **الأشم**: العزيز، وأصله من الشمم، وهو ارتفاع قصبة الأنف. **بدا**: ظهر. وفي رواية: «ندى»، وندى الصوت: ارتفع، يريد إذا ارتفع صوت غاد طالب الغوث. ويروى: «يرى». **الجزع**: جانب الوادي وما انعطف منه.

(١٢) **المذكي**: الذي بلغ الغاية في القوة. **صبي السيف**: وسطه. **النجاد**: حمائل السيف.

لِنُظْهِرَ دِينَكَ اللَّهُمَّ إِنَّا بِكَفِّكَ فَاهْدِنَا سُبُلَ الرَّشَادِ

مُسَافِعٌ يَبْكِي عَمْرًا فِي شِعْرِهِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ مُسَافِعُ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ وَهْبِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ جُمَحَ يَبْكِي عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِيَّاهُ:

عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ كَانَ أَوَّلَ فَارِسٍ جَزِعَ الْمَذَادِ وَكَانَ فَارِسَ يَلْيَلِ (١)

سَمْحُ الْخَلَائِقِ مَاجِدٌ ذُو مِرَّةٍ يَبْغِي الْقِتَالَ بِشِكَّةٍ لَمْ يَنْكُلِ (٢)

وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ حِينَ وَلَّوْا عَنْكُمْ أَنَّ ابْنَ عَبْدٍ فِيهِمْ لَمْ يَعْجَلِ

حَتَّى تَكَنَّفَهُ الْكُمَاةُ وَكُلُّهُمْ يَبْغِي مَقَاتِلَهُ وَلَيْسَ بِمُؤْتَلِي (٣)

وَلَقَدْ تَكَنَّفَتْ الأَسِنَّةُ فَارِسًا بِجَنُوبِ سَلعٍ غَيْرَ نَكْسٍ أَمْيَلِ (٤)

تَسَلُ النِّزَالَ عَلِيَّ فَارِسَ غَالِبٍ بِجَنُوبِ سَلْعٍ، لَيْتَهُ لَمْ يَنْزِلِ

فَاذْهَبْ عَلِيٌّ فَمَا ظَفِرْتَ بِمِثْلِهِ فَخْرًا وَلَا لَاقَيْتَ مِثْلَ الْمُعْضِلِ (٥)

نَفْسِي الفِدَاءُ لِفَارِسٍ مِنْ غَالِبٍ لَاقَى حِمَامَ الْمَوْتِ لَمْ يَتَحَلْحَلِ (٦)

أَعْنِي الَّذِي جَزِعَ الْمَذَادَ بِمُهْرِهِ طَلَبًا لِثَأْرٍ مَعَاشِرٍ لَمْ يُخْذَلِ

مُسَافِعٌ يُؤَنِّبُ الْفُرْسَانَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَمْرٍو:

وَقَالَ مُسَافِعٌ أَيْضًا يُؤَنِّبُ فُرْسَانَ عَمْرٍو الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، فَأَجْلَوْا عَنْهُ وَتَرَكُوهُ:

عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ وَالْجِيَادُ يَقُودُهَا خَيْلٌ تُقَادُ لَهُ وَخَيْلٌ تُنْعَلُ (٧)

أَجْلَتْ فَوَارِسُهُ وَغَادَرَ رَهْطُهُ رُكْنًا عَظِيمًا كَانَ فِيهَا أَوَّلُ (٨)

عَجَبًا وَإِنْ أَعْجَبْ فَقَدْ أَبْصَرْتُهُ مَهْمَا تَسُومُ عَلِيٌّ عَمْرًا يَنْزِلُ (٩)

---

(١) جزع: قطع. والمذاد: موضع. يليل: واد ببدر.

(٢) المرة: الشدة والقوة. الشكة: السلاح. لم ينكل: لم يرجع من هيبة ولا خوف.

(٣) تكنفه: أحاط به. ليس بمؤتلي: ليس بمقتصر.

(٤) سلع: جبل بسوق المدينة، قال الأزهري: موضع قرب المدينة (راجع معجم البلدان). النكس: الضعيف من الرجال. الأميل: الذي لا رمح معه، وقيل: الذي لا ترس معه.

(٥) المعضل: الأمر الشديد.

(٦) لم يتحلحل: لم يبرح مكانه.

(٧) تنعل: تلبس النعال من الحديد لتقوى.

(٨) أجلت: تفرقت وولت.

(٩) تسوم: تطلب وتكلف.

لَا تَبْعَدَنَّ فَقَدْ أُصِبْتَ بِقَتْلِهِ ... وَلَقِيتَ قَبْلَ المَوْتِ أَمْرًا يَثْقُلُ
وَهُبَيْرَةُ المَسْلُوبُ وَلَّى مُدْبِرًا ... عِنْدَ القِتَالِ مَخَافَةً أَنْ يُقْتَلُوا
وَضِرَارُ كَانَ البَأْسُ مِنْهُ مُحْضَرًا ... وَلَّى كَمَا وَلَّى اللَّئِيمُ الأَعْزَلُ (١)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ بِالشِّعْرِ يُنْكِرُهَا لَهُ.

وَقَوْلُهُ: «عَمْرًا يَنْزِلُ» عَنْ غَيْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ.

هُبَيْرَةُ يَبْكِي عَمْرًا وَيَعْتَذِرُ مِنْ فِرَارِهِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ هُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ يَعْتَذِرُ مِنْ فِرَارِهِ وَيَبْكِي عَمْرًا، وَيَذْكُرُ قَتْلَ عَلِيٍّ ﷺ إِيَّاهُ:

لَعَمْرِي مَا وَلَّيْتُ ظَهْرِي مُحَمَّدًا ... وَأَصْحَابُهُ جُبْنًا وَلَا خِيفَةَ القَتْلِ
وَلَكِنَّنِي قَلَّبْتُ أَمْرِي فَلَمْ أَجِدْ ... لِسَيْفِي عَنَاءً إِنْ ضَرَبْتُ وَلَا نَبْلِي
وَقَفْتُ فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ لِي مُقَدَّمًا ... صَدَدْتُ كَضِرْغَامٍ هِزَبْرٍ أَبِي شِبْلِ (٢)
ثَنَى عِطْفَهُ عَنْ قَرْنِهِ حِينَ لَمْ يَجِدْ ... مَكَرًّا وَقِدْمًا كَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي (٣)
فَلَا تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو حَيًّا وَهَالِكًا ... وَحُقَّ لِحُسْنِ المَدْحِ مِثْلُكَ مِنْ مِثْلِي
وَلَا تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو حَيًّا وَهَالِكًا ... فَقَدْ بِنْتَ مَحْمُودَ الثَّنَا مَاجِدَ الأَصْلِ (٤)
فَمَنْ لِطِرَادِ الخَيْلِ تُقْدَعُ بِالقَنَا ... وَلِلْفَخْرِ يَوْمًا عِنْدَ قَرْقَرَةِ البُزْلِ (٥)
هُنَالِكَ لَوْ كَانَ ابْنُ عَبْدٍ لَزَارَهَا ... وَفَرَّجَهَا حَقًّا فَتًى غَيْرُ مَا وَغْلِ (٦)
فَعَنْكَ عَلِيٌّ لَا أَرَى مِثْلَ مَوْقِفٍ ... وَقَفْتَ عَلَى نَجْدِ المُقَدَّمِ كَالفَحْلِ (٧)
فَمَا ظَفِرَتْ كَفَّاكَ فَخْرًا بِمِثْلِهِ ... أَمِنْتَ بِهِ مَا عِشْتَ مِنْ زَلَّةِ النَّعْلِ

هُبَيْرَةُ يَبْكِي عَمْرًا فِي شِعْرِهِ:

وَقَالَ هُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ يَبْكِي عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ عَلِيٍّ ﷺ إِيَّاهُ:

---

(١) **الأعزل**: الذي لا سلاح معه.

(٢) **الضرغام**: الأسد. **الهزبر**: الشديد. **والشبل**: ولد الأسد.

(٣) **العطف**: الجانب. **القرن**: الذي يقاومك في شدة أو قتال.

(٤) **الثنا**: الذكر الطيب. ويروى: الثنا.

(٥) **تقدع**: تكف. **القرقرة**: من أصوات فحول الإبل. **والبزل**: الإبل القوية، ضربه مثلًا للمفاخرين إذا رفعوا أصواتهم بالفخر.

(٦) **الوغل**: الفاسد من الرجال.

(٧) **فعنك**: اسم فعل بمعنى تباعد. **النجد**: الشجاع.

لَقَدْ عَلِمَتْ عُلَيَا لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ لَفَارِسُهَا عَمْرٌو إِذَا نَابَ نَائِبُ
لَفَارِسُهَا عَمْرٌو إِذَا مَا يَسُومُهُ عَلِيٌّ وَإِنَّ اللَّيْثَ لَا بُدَّ طَالِبُ (١)
عَشِيَّةَ يَدْعُوهُ عَلِيٌّ وَإِنَّهُ لَفَارِسُهَا إِذْ خَامَ عَنْهُ الكَتَائِبُ (٢)
فَيَا لَـهْفَ نَفْسِي إِنَّ عَمْرًا تَرَكْتُهُ بِيَثْرِبَ لَا زَالَتْ هُنَاكَ المَصَائِبُ

حَسَّانُ ﷺ يَفْتَخِرُ بِقَتْلِ عَمْرٍو:

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ يَفْتَخِرُ بِقَتْلِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ:

بَقِيَّتُكُمْ عَمْـرٌو أَبَحْنَـاهُ بِالقَنَـا بِيَثْـرِبَ نَحْمِـي وَالحُـمَاةُ قَلِيـلُ
وَنَحْـنُ قَتَلْنَـاكُمْ بِكُـلِّ مُهَنَّـدٍ وَنَحْنُ وُلَاةُ الحَرْبِ حِينَ نَصُولُ
وَنَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ بِبَدْرٍ فَأَصْبَحَتْ مَعَـاشِرُكُمْ فِي الهَـالِكِينَ تَجُـولُ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَعْضُ أَهْلِ العِلمِ بِالشِّعْرِ يُنْكِرُهَا لِحَسَّانَ ﷺ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ أَيْضًا فِي شَأْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ:

أَمْسَى الفَتَى عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ يَبْتَغِي بِجُنُوبِ يَثْرِبَ ثَأْرَهُ لَمْ يُنْظَرِ (٣)
فَلَقَدْ وَجَدْتَ سُيُوفَنَا مَشْهُورَةً وَلَقَدْ وَجَدْتَ جِيَادَنَا لَمْ تُقْصَرِ (٤)
وَلَقَدْ لَقِيتَ غَدَاةَ بَدْرٍ عُصْبَةً ضَرَبُوكَ ضَرْبًا غَيْرَ ضَرْبِ الخُسَّرِ (٥)
أَصْبَحْتَ لَا تُدْعَى لِيَوْمٍ عَظِيمَةٍ يَا عَمْرُو أَوْ لِخَسِيمِ أَمْرٍ مُنْكَرِ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَعْضُ أَهْلِ العِلمِ بِالشِّعْرِ يُنْكِرُهَا لِحَسَّانَ ﷺ (٦).

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ أَيْضًا:

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا هِدْمٍ رَسُولًا مُغَلْغَلَةً تَخُبُّ بِهَا المَطِيُّ (٧)

---

(١) يسومه: يكلفه.

(٢) خام: جبن ورجع.

(٣) لم ينظر: لم يمهل ولم يؤخر.

(٤) لم تقصر: لم تكف.

(٥) الحسر: جميع حاسر، وهو الذي لا درع له، ويروي «الخشر» بالخاء والشين المعجمتين، وهم الضعفاء من الناس، كما يروي: «الخسر» بالخاء المعجمة والسين المهملة، وهو جمع خاسر.

(٦) وقد بحثنا عنها في ديون حسان فلم نجدها.

(٧) المغلغلة: الرسالة تحمل من بلد إلى بلد. تخب: تسرع.

أَكُنْتُ وَلِيُّكُمْ فِي كُلِّ كُرْهٍ وَغَيْرِي فِي الرَّخَاءِ هُوَ الوَلِيُّ
وَمِنْكُمْ شَاهِدٌ وَلَقَدْ رَآنِي رُفِعْتُ لَهُ كَمَا اُحْتُمِلَ الصَّبِيُّ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَتُرْوَى هَذِهِ الأَبْيَاتُ لِرَبِيعَةَ بْنِ أُمَيَّةَ الدَّيلِيِّ، وَيُرْوَى فِيهَا آخِرُهَا:

كَبَتَ الخَزْرَجِيَّ عَلَى يَدَيْهِ وَكَانَ شِفَاءُ نَفْسِي الخَزْرَجِيُّ

وَتُرْوَى أَيْضًا لِأَبِي أُسَامَةَ الجُشَمِيِّ.

المبحث الحادي عشر
خرائط غزوة الأحزاب
(١)

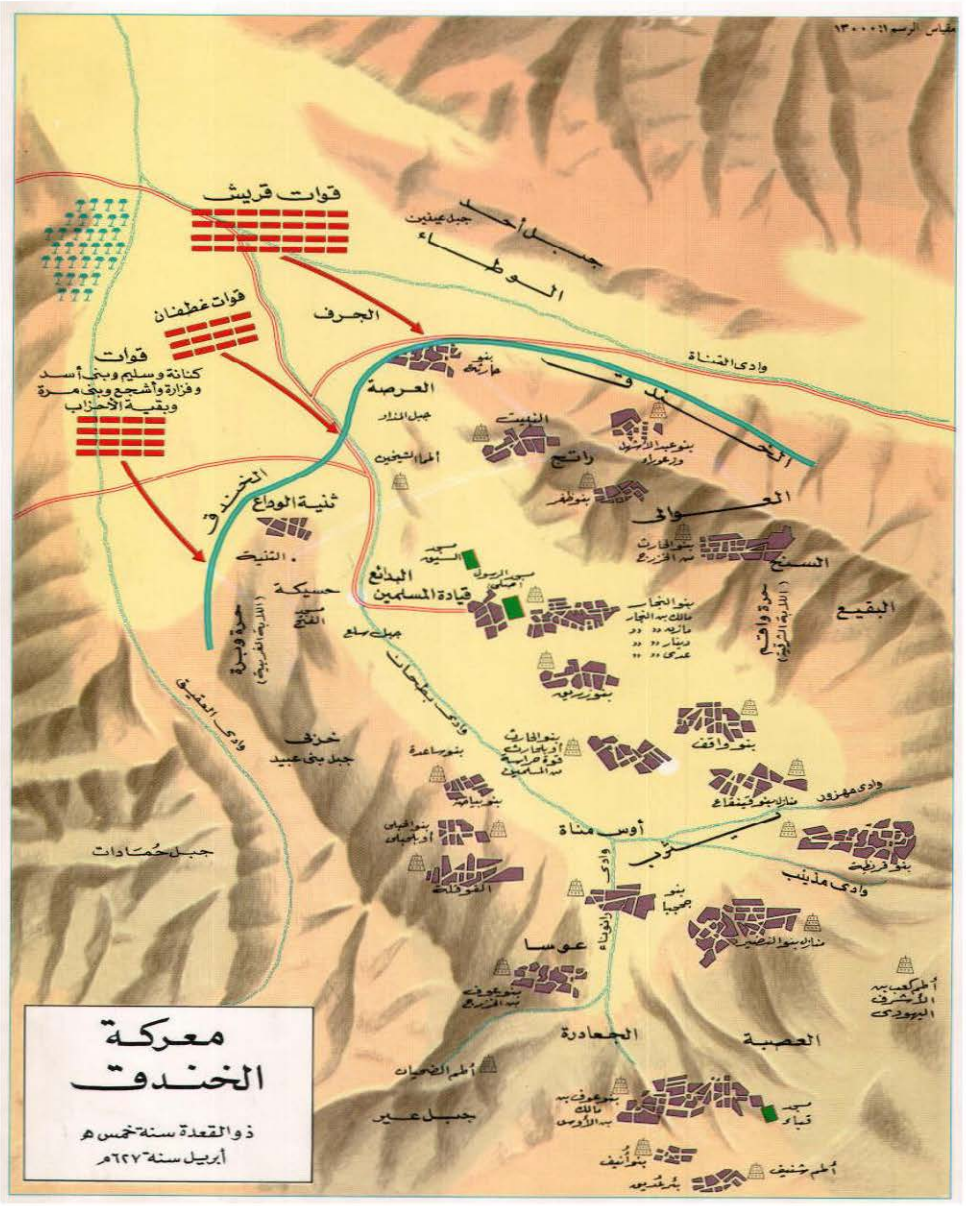

أطلس تاريخ الإسلام لمؤنس ٦٩.

(٢)

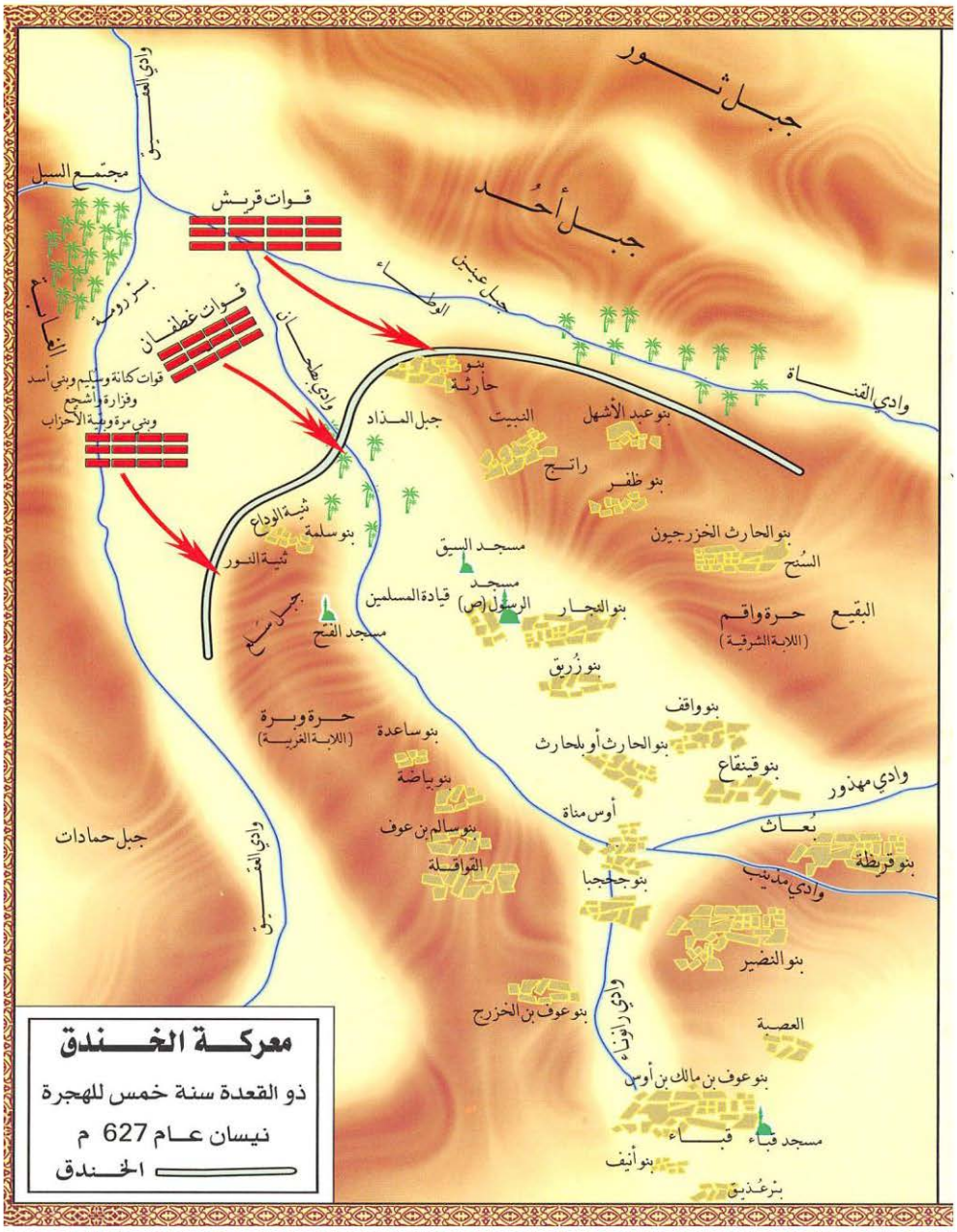

أطلس تاريخ العرب والإسلام للكاتب ص ١٦.

(٣)

أطلس السيرة لأبي خليل ١٣٧، وأطلس القرآن لأبي خليل ٢٣٦.

(٤)

أطلس الحديث النبوي لأبي خليل ٧٠.

(٥)

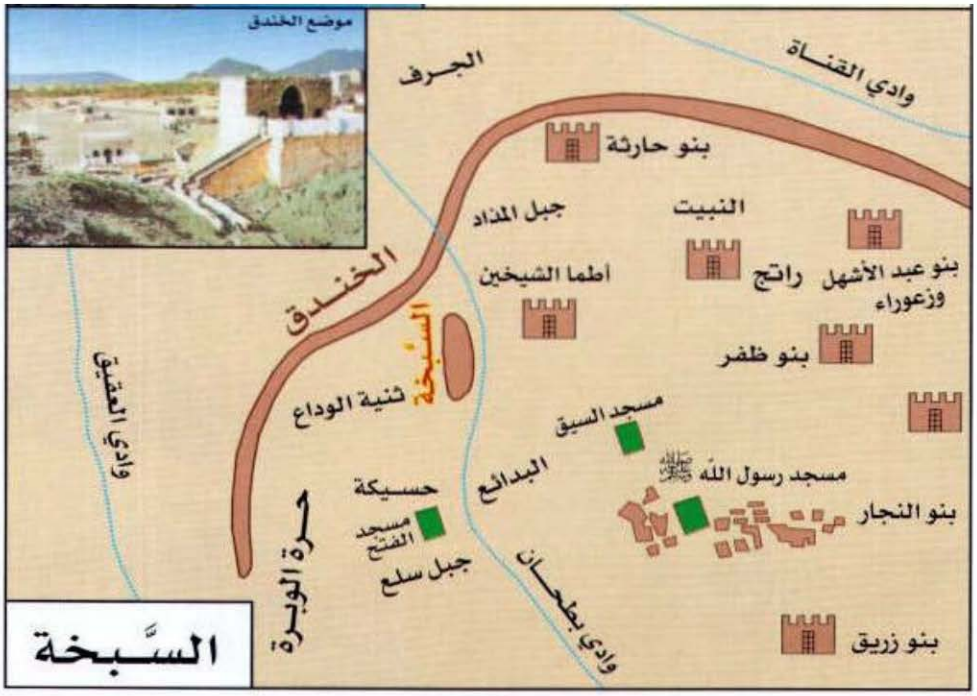

أطلس الحديث النبوي لأبي خليل ٢١٢.

(٦)

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ١٧٥.

(٧)

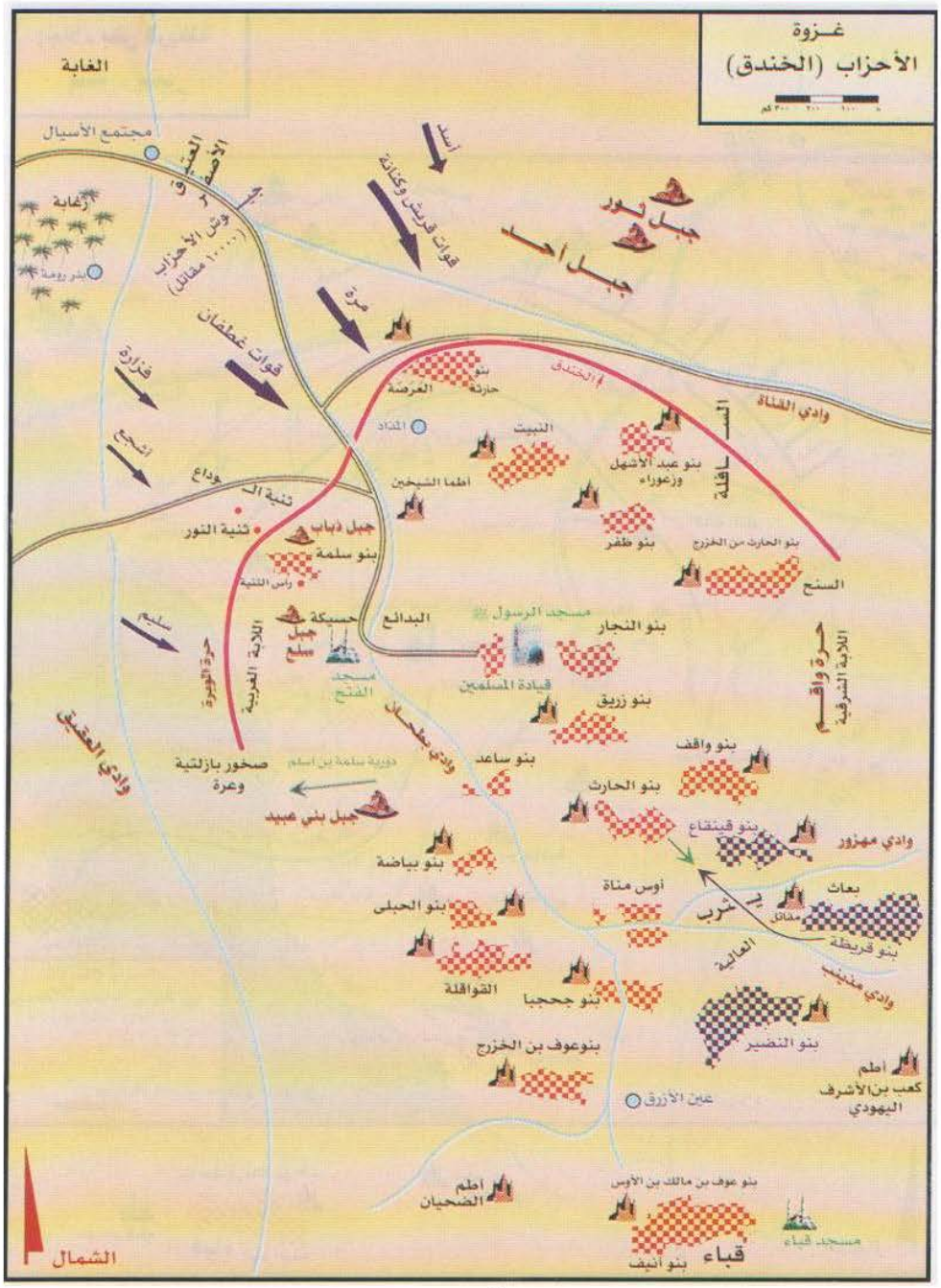

حدائق الأنوار لبحرق ٥٤١.

(٨)

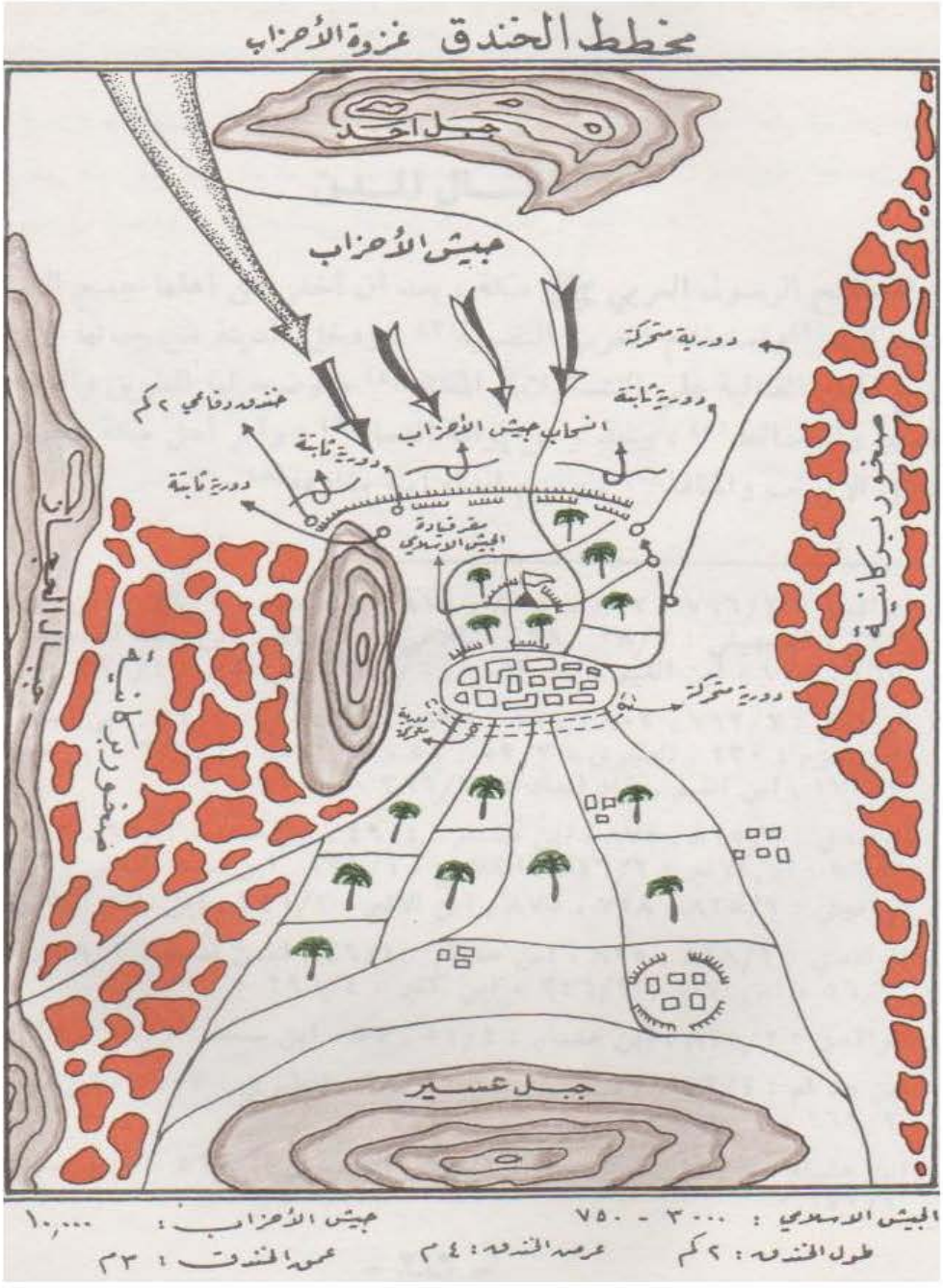

الإدارة العسكرية في حروب الرسول محمد ﷺ لوتر ٢١٧.

(٩)

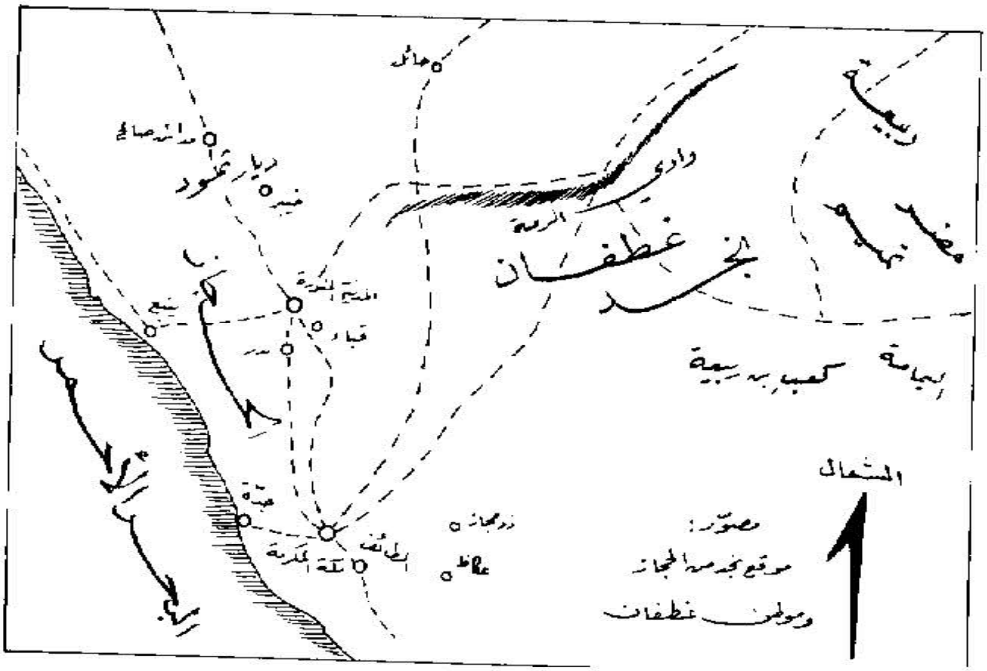

غزوة الخندق لأبي خليل ٨٩

(١٠)

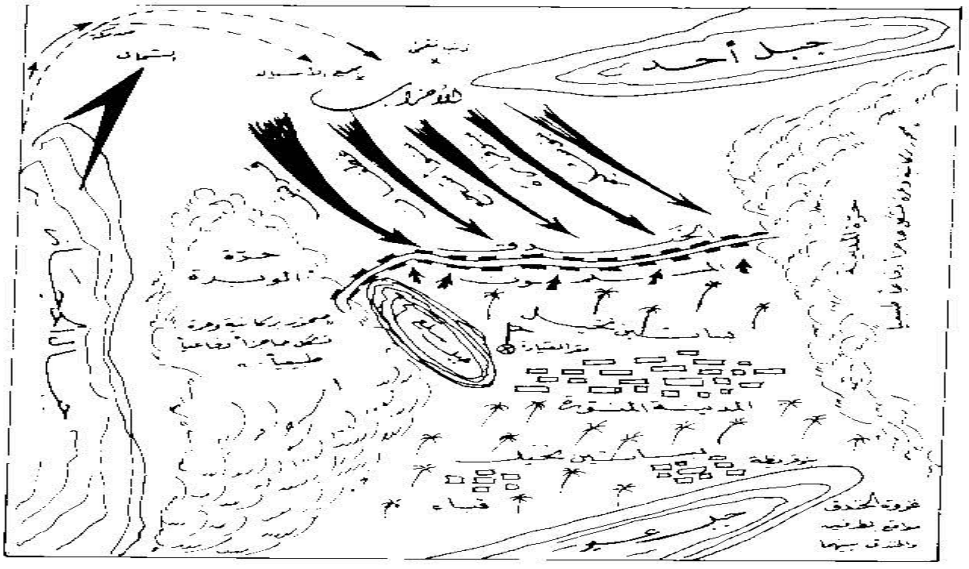

غزوة الخندق لأبي خليل ٩٦

(١١)

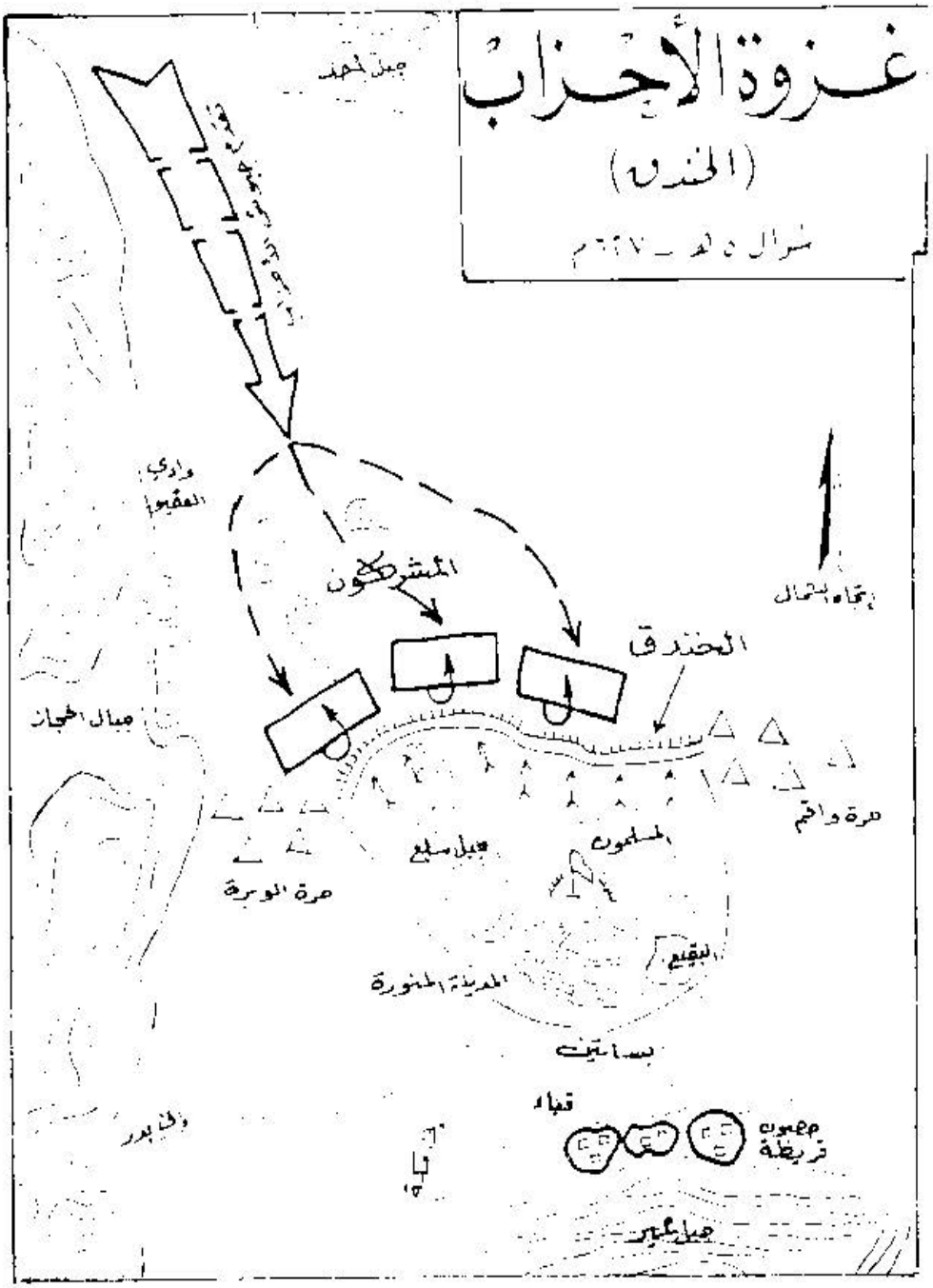

الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٧٦.

(١٢)

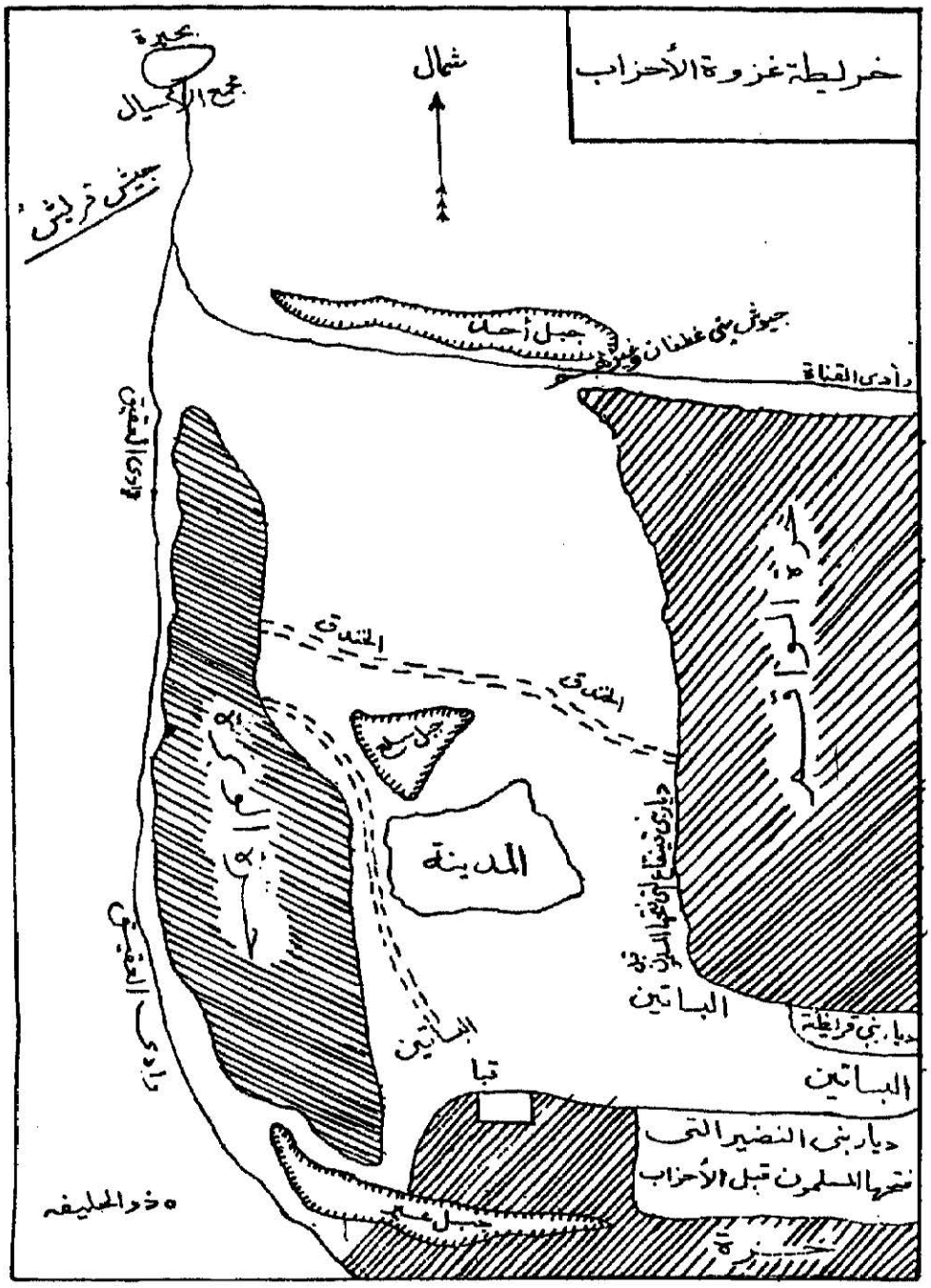

الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٦٧٧.

(١٣)

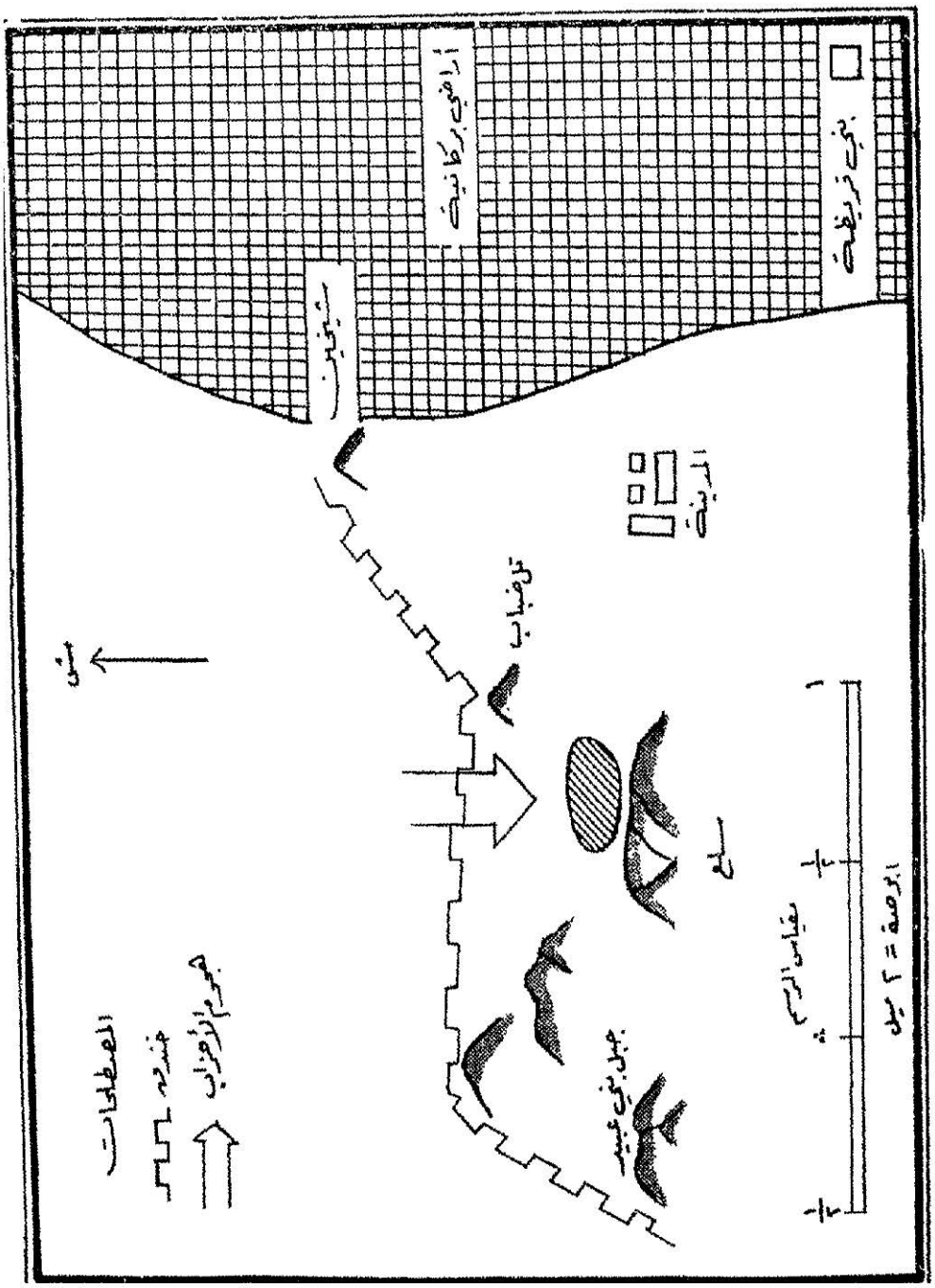

سيف الله خالد بن الوليد ﷺ لأكرم ص ٨١.

(١٤)

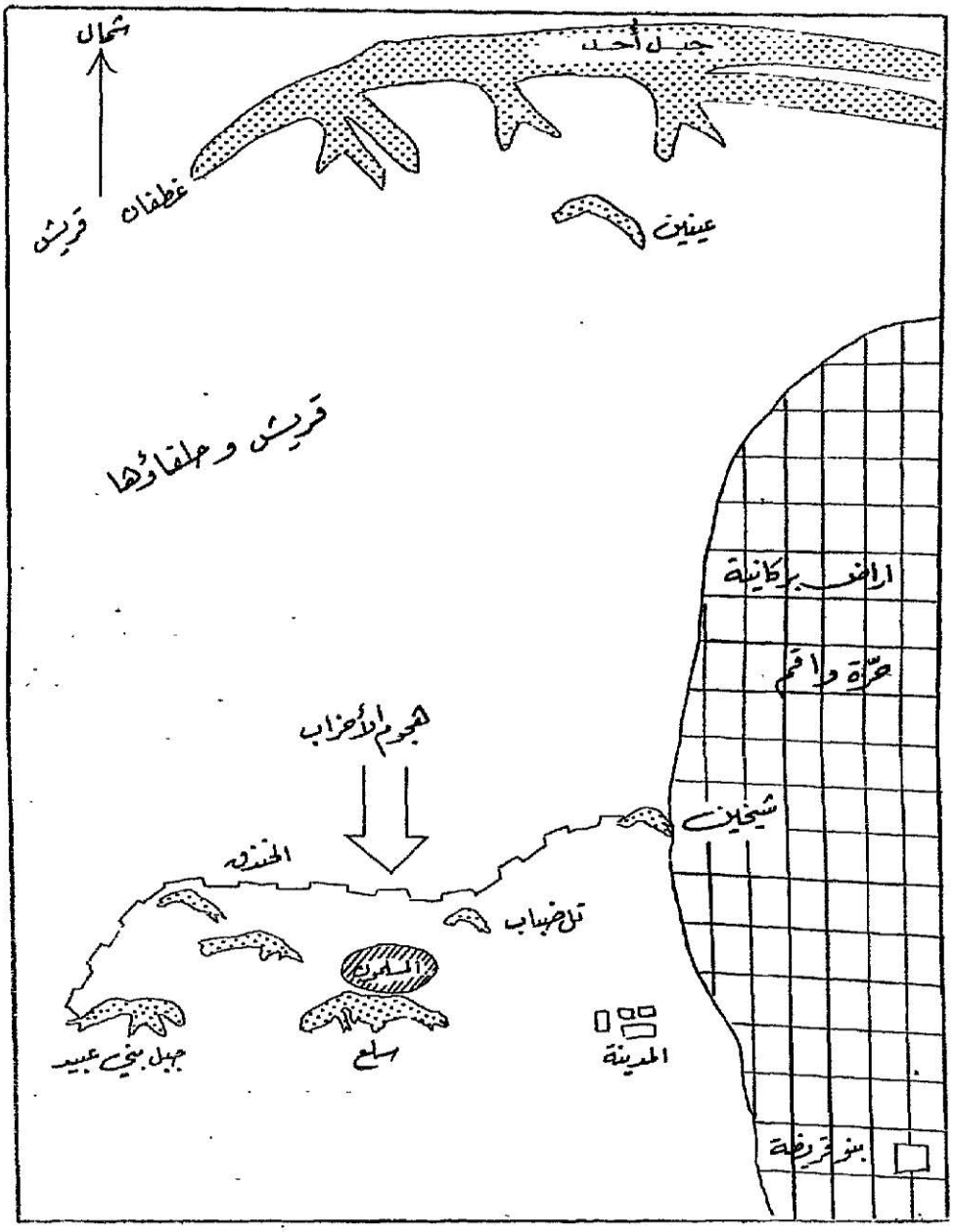

غـزوة الخنـدق

مأخوذة من كتاب سيف الله خالد بن الوليد ـ الجنرال اكرم ص ٤٦ ، ٨١

أولو العزم من الرسل لعمر ٢/ ٥٨٠

(١٥)

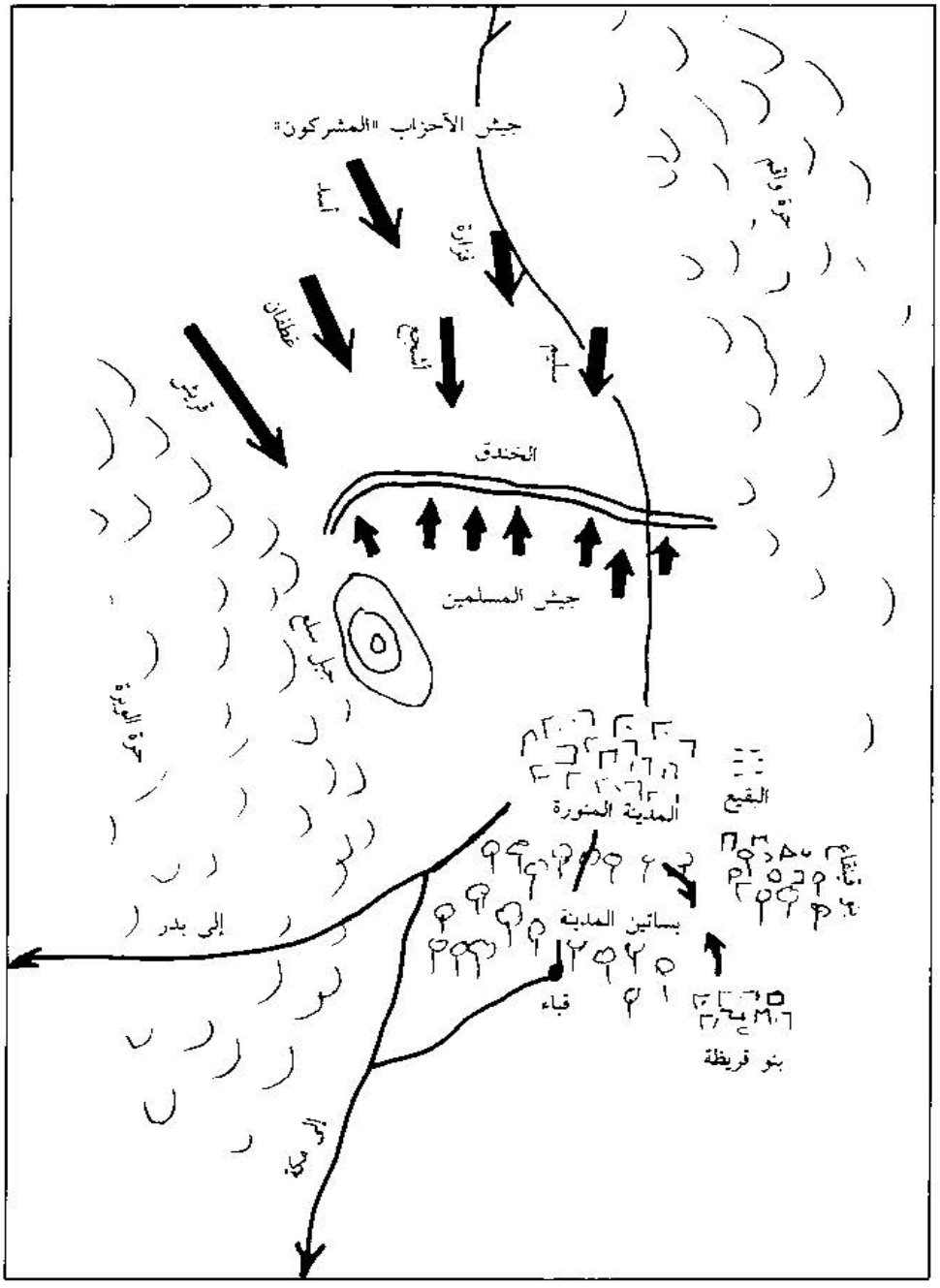

قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ١٧٧.

(١٦)

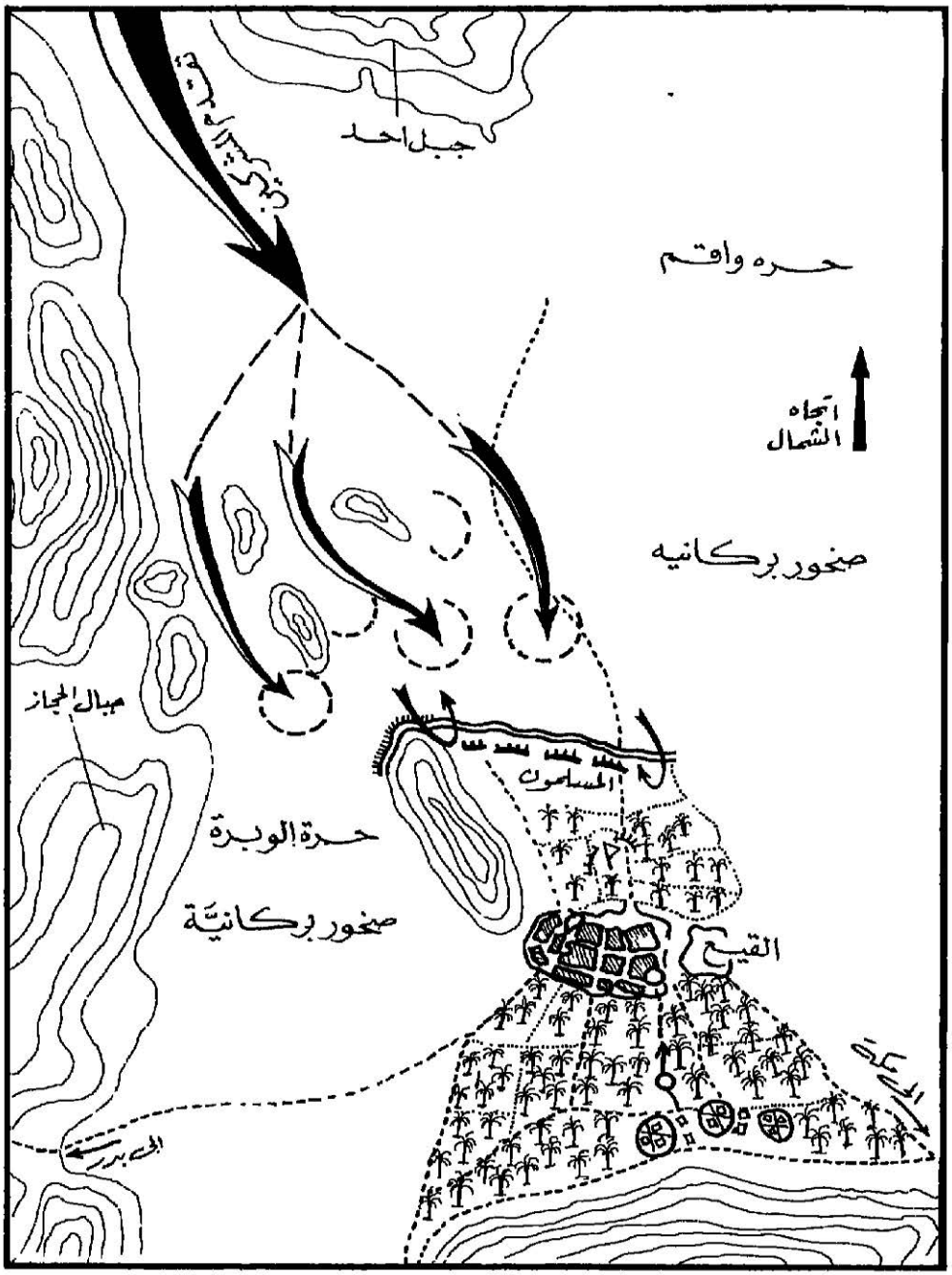

قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية لعرموش ٧٥.

(١٧)

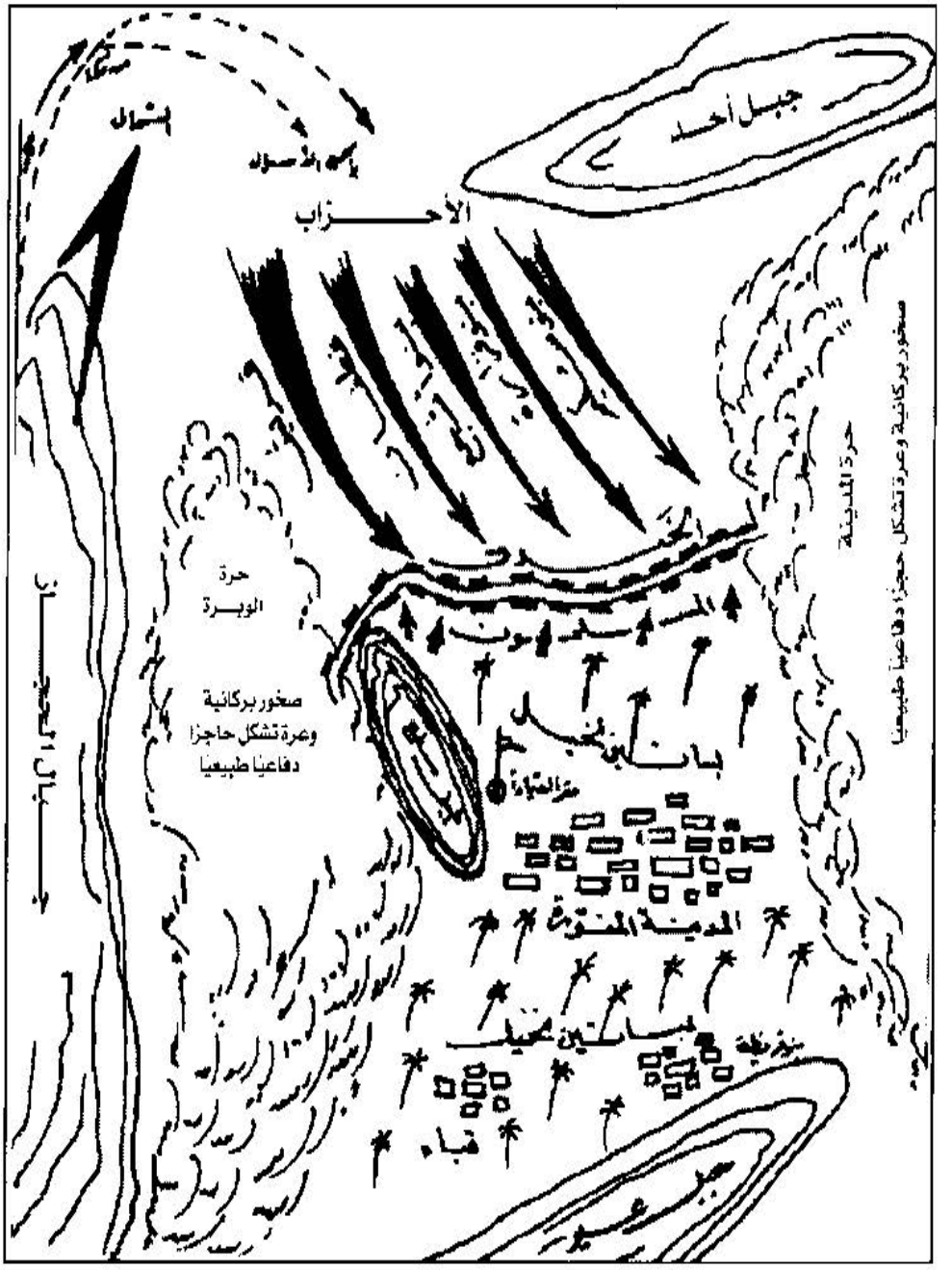

كبرى المعارك والفتوحات الإسلامية الكبرى لمرسي ٣٢.

(١٨)

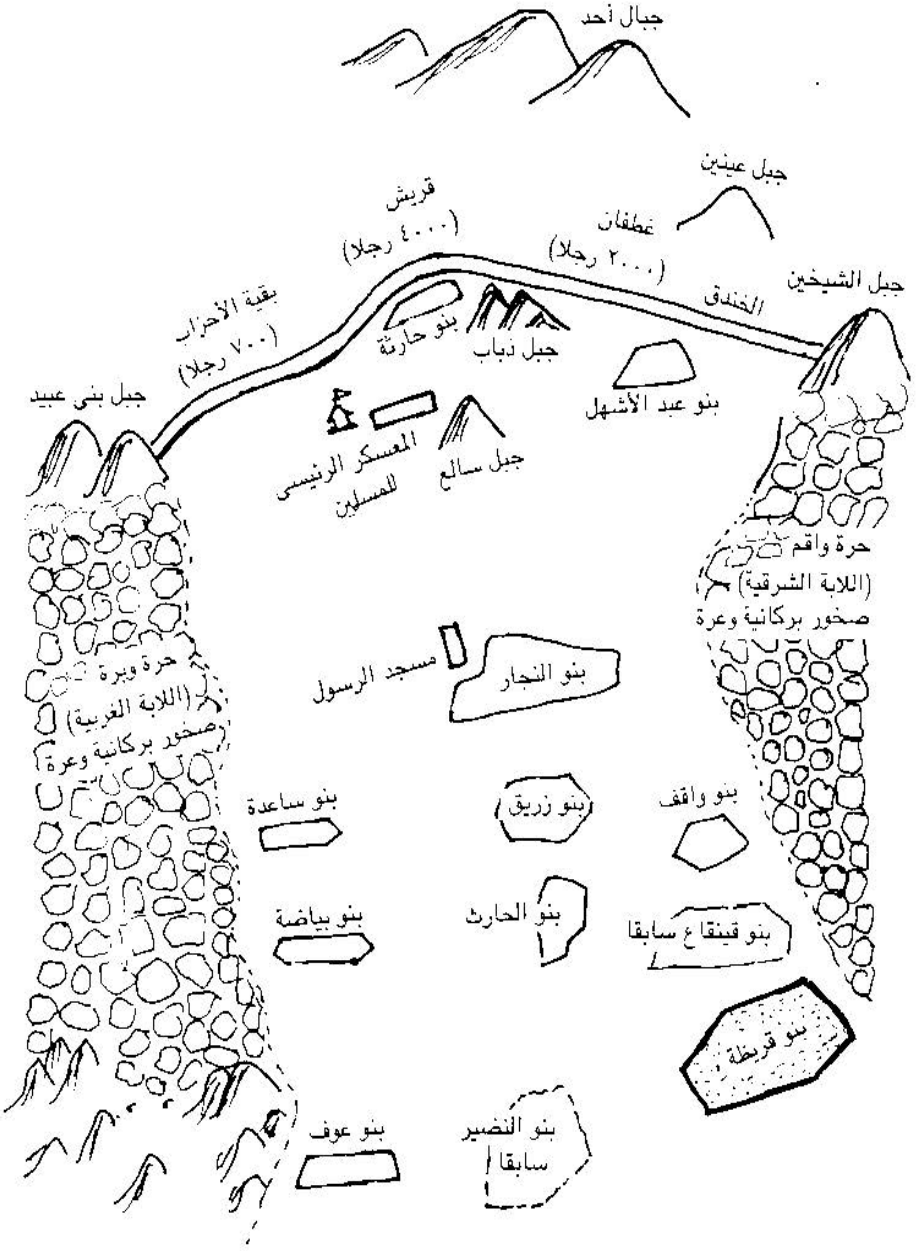

خاتم الأنبياء محمد ﷺ للبدراوي ٥٨٧

(١٩)

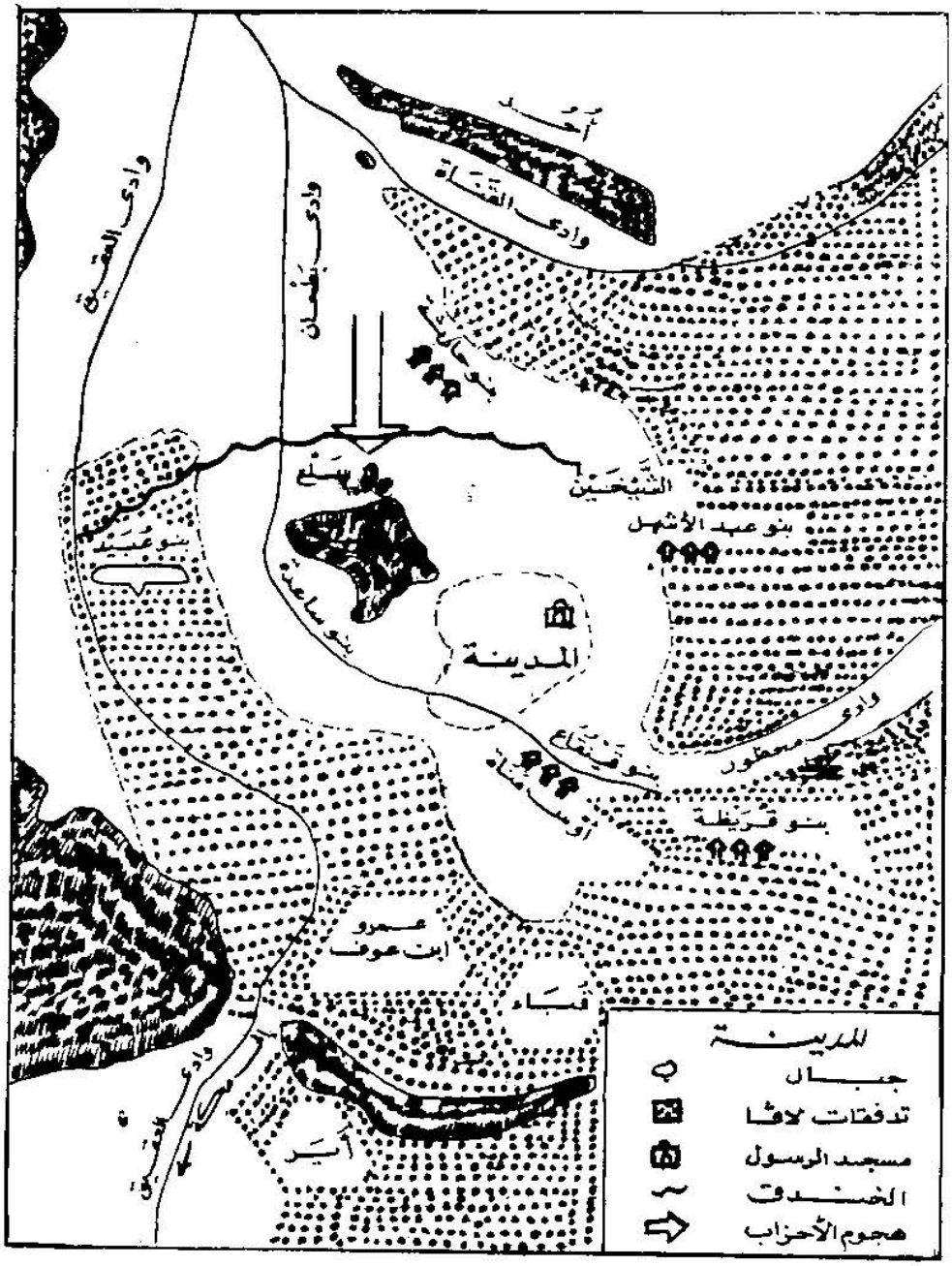

المدينة في زمن معركة الأحزاب

محمد ﷺ واليهود لبركات ١٢٩.